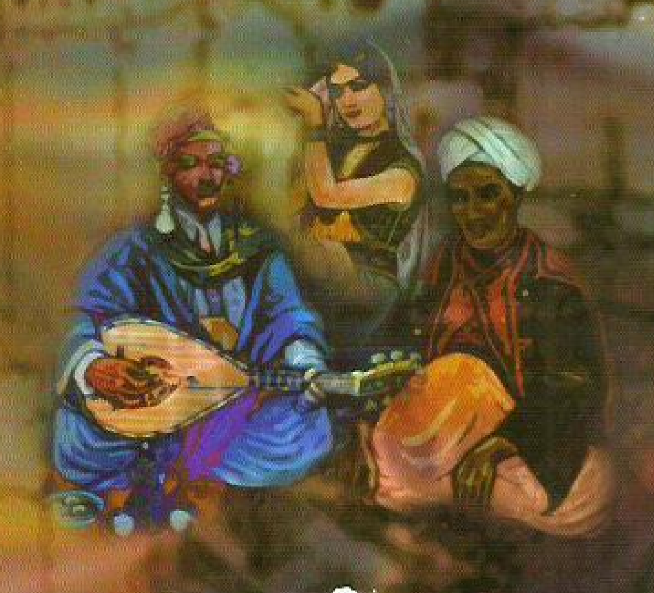
رشيد الضعيف

معبد ينجح في بغداد

رواية





رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

معبد ينجح
في بغداد

رشيد الضعيف

معبد ينجح في بغداد

رواية



MABAD SUCCEEDS IN BAGHDAD

By

Rachid Al-Daif

(A Novel)

First Published in January 2005

BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com
. www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21181-7

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٥

تحذير

إن معبد بن رباح، المغنّي الذي تسوق أخبارُه هذه الرواية، هو غير معبد بن وهب، أبي عبّاد، مولى بني مخزوم (أو مولى بني قَطَن)، نابغةِ الغناء العربي في عصر الدولة الأمويّة، الذي تولّى الخليفةُ الوليد بن يزيد أمرَه بنفسه حين مات، وأخرجه من داره إلى موضع قبره.

لذلك، فكلّ شبه بين معبد بن رباح ومعبد بن وهب، هو من قبيل الصدفة البحت.

٩

معبدْ.

أبوه رباحْ، مولىً عبدٌ.

وكان المولى العبدُ إذا تحرّر، أصبح مولى عتق، ومولى العتق يظلّ مرتبطاً بأسياده.

ورباحْ والد معبدْ، كان مولى عبداً لسيّد من أشراف بني عُذَيب، وكان أسود اللون كأمّه السبيّة من السودان أو من الحبشة، وقد «وقع عليها» (ضاجعها) أبوه، سيّدُها، فحبلت منه، ولمّا وَلَدتْ حِمْلَها وكان ذكراً قال الوالد: أرُونَا إيّاه! فحملوه إليه، ولمّا رآه أسود لم «يَنسبه» (لم يضمّه إلى أبنائه الأحرار ليكون له ما لهم)، فبقي عبداً كأمّه.

وكان للوالدة قبل أن تلد رباح، بنتٌ حبلت بها من «غير رِشْدة» أي من الزنا، إذ «وقع عليها» عبدٌ لسيّدها، فحبلت منه، ولمّا رأى بطنها انتفخ وخاف العقاب، هرب واختفت آثاره، وقيل إنّه هلك وهو هارب في الصحراء، على الطريق إلى الشام، وإنّ البعض رأى جثّته تنهشها الأفاعي، وقيل إنّه شوهد في الشام، يعمل عند أحد اللحّامين، وينقل على ظهره كروش الذبائح ودواخلها إلى خارج المدينة، حيث ينتهي نهر برَدى في الصحراء. أمّا المرأة، أمّ رباح، فقد استمهلها سيّدها حتّى وَلَدَت، ولمّا رأى أن المولود أنثى أراد وَأْدَها، فقالت له والدتها: وَأدٌ بعد ابن عبدالله؟! فأبقاها لها وتكفّل خبزَها وماءَها.

ثمّ مات الوالدُ السيّدُ، بعد مولد الصبيّ العبد رباح، بعشر سنوات.

ولمّا بلغ رباح سنّ الشباب، صار يجيئه شيطان الشعر، ويُوَشْوِشه بأبيات مُفردَة، فاضطرب! وشيطان الشعر إذا جاء العربيَّ الحرَّ يضطرب وتصطكّ منه ركبتاه، فكيف إذا جاء عبداً أسود؟

وكان الشاعر المجنون، قيس بن الملوّح المعروف بقيس ليلى قد توفي منذ وقت قليل، وقد رأى رباحْ بعينه كيف أنّه لم تبقَ فتاة في الحيّ إلّا وخرجت حاسرةً، صارخةً عليه، تندبُه، وحتى الفتيان اجتمعوا يبكون عليه أحرّ بكاء، وينشجون عليه أشدّ نشيج، وقد حضر أهل ليلى معزّين وكان بينهم والد ليلى، عمُّ قيس، الذي رفض أن يزوّج قيساً بها وأعطاها لغيره، حتّى فقد الفتى عقله، وأمضى العمر تائهاً في البوادي يقول الشعر في ليلى، ولا يصحو إلّا إذا حُدِّث بليلى. وقد فوجئ رباح عندما رأى عمَّ قيس أشدَّ الناس حزناً عليه، وأكثر الناس بكاء، وقد سمعه يقول: ما توقّعتُ

أنّ الأمر سيبلغ كلَّ هذا، ولكنّي كنتُ امْرَأً عربياً أخاف من العار و«قُبْحِ الأُحدوثة» (أي حديث الناس بالسوء)، خفتُ كما يخاف كلّ واحد مثلي، فزوّجتُها وخرجَت الأمور من يدي، ولو علمت ما ستصير إليه لما كنتُ زوّجتُها غيره. وفوجئ رباح أكثر من ذلك بكثير عندما سمعه يصرخ قائلاً: لست قاتلاً!

فما كان يومٌ بكى فيه الناس كما بكَوْا يوم مات قيسْ بن الملوّح. رجالاً ونساء، شباناً وشابّات. ولم يكن هذا لأنّ قيسْ جنّنه العشقُ، بل لأنه كان شاعراً قد وقع في هوى ابنة عمّه، فكم من مجنون بعشقه مات ولم يدرِ به أحد. فمَنْ بعد موته سيسلّيهم بمثل هذا الشعر الجميل:

أُحِبُّ من الأسماء ما وافقَ اسمَها
وأَشبَهَهُ أو كان منه مُدانِيا

ومن سيداعبهم بشعر كهذا:
أأترُكُ ليلى ليس بيني وبينَها
سوى ليلةٍ ؟ إنّي إذن لصبورُ!

فاضطرب إذن رباح، وكيف لا يضطرب والشعر أمرٌ خطير؟ فبهِ يُستسقى، ويعلو الشرف، وتُفكّ الرقاب، ويُردّ الأعداء.

ثمّ بعد أن وشوشه شيطان الشعر بأبيات مفرَدة، أوحى له بقصائد، لكنّه كان يحذَر من أن يبوح بذلك إلى أحد، لئلاّ يكون ما يجيئه توهُّماً لا حقيقة، لكنّ الشيطان ألحّ عليه، فكان لا بدّ له من أن يخبر من يثق به، فأخبر أختَه من أمّه، بنتَ الزنى التي كان يناديها

«أخيّة» تحبّباً، أخبرها بأنّ شيطان الشعر يزوره، وبأنّه يحلم بالذهاب إلى والي مصر مروان ليمدحه، فيعطيه مقابل ذلك من المال ما يسمح له بعتق نفسه (أي تحريرها)، وعتْق من عَزَّ عليه من أقربائه: «أرجو أن يُعتقكِ الله عزّ وجلّ به (أي بشعره) وأن يُعتقَ أمَّكِ ومن كان مرقوقاً (عبداً) من أهل قرابتي»! فقالت له أختُه: ألا يكفيك أنّك أسود، أتريد فوق ذلك أن يضحك عليك الناس؟
عبد وأسود ويقول الشعر؟

فقال لها اسمعي! وأسمعها من شعره فبكت فوراً وقالت: «في هذا والله رجاءٌ عظيمٌ!» أيقنَتْ بقدوم اللحظة، وبأنّ الفرج قريب.

ثم أخبر زوجته فقالت له وهل يدخل الشعر العمارات المعتمة؟ تقصد العبيدَ السود. فقال لها اسمعي وأسمعها فاضطربتْ كما اضطربتْ أختُه، وقالت «إنّ في هذا، وتقصد الشعر، رجاء عظيماً!». لكنها أرادت أن تتأكّد من أنّ ما يقوله هو من شيطان الشعر بالذات، لا وهماً يتوهّمه، فعمدتْ إلى حيلة كان الناس يعمدون إليها: صارت تتزيّن كلّ يوم، كما لو كانت تستعدّ ليوم عرس بعد طلاق، أي بعد أن تكون خبرت أزواجاً سابقين، ثم كانت وهي على هذه الحال من الجهوزيّة تمنعه منها منعاً باتّاً، فلا تسمح له بولوجها، ولا حتّى في التمادي في ملامستها ومداعبتها، وكانت في الليل، وهو على هذا المستوى من الهياج الجنسيّ، تفتح قميصَها ليكشف عن صدرها، وتشمر فستانها حتّى منبت فخذيها أسفلَ البطن، ثمّ تحتضنه وتضع رأسه بين ثديَيْها، وكانت تطلب منه أن يلهث بينهما، وأن يستدعي شيطانه وأن يركّز عليه فقط، وأن يتناساها كجسد، فإذا لم يجئه الشيطان، يكون كلّ ما يجري له وهماً صرفاً، وإذا جاءه الشيطان بسرعة، يكون عند ذاك شيطاناً

مدّعياً، شدّته أنوثة الزوجة إليها، لأنّ كثيراً من الشياطين يتربّصون بالنساء فما إن يكشفن عن شيء فيهنّ حتى يحضروا ويبدأوا بالعبث، أمّا إذا جاءه الشيطان بعد تركيز طويل وبعد محاولات متكرّرة فيكون هو الصحيح. وجاءه الشيطان أخيراً بعد تركيز طويل، وتعب وحرمان، دام أسابيع طوالاً، وأوحى له ببيت واحد من الشعر، وابتهجت زوجتُه في تلك الليلة ابتهاجاً لم تعرف مثلَه حتّى في ليالي أفراحها النادرة، وفتحت له كلّ شيء، فتحت له قلبها ونفسها وأعماقها، وفي تلك الليلة حبلت منه، لكنّها ولدت له إثرَها بنتاً سوداء، وكان رباح يتوقّع أن يكون مولودُها صبيّاً جميلاً تشتهيه النساء، لكثرة ما التذّ في تلك الليلة، واشتهى زوجته وهو فيها، وهي بين يديهِ حبّةُ تين أنضجتها شمسُ آب.

لكن زوجته نصحته بالحذر، حتى يأمن ردّ فعل أسياده، لئلاّ يهزأوا منه ويمنعوه من قول الشعر. لذلك بدأ يقول الشعر لمن كان يثق بهم، مدّعياً أنه لشعراء سابقين. وكان يلقى صدى جيّداً.

ثمّ قرّر أخيراً أن يهرب إلى بغداد، ليمدح أحد أرستقراطييها، أو أحد تجّارها، أو من يستطيع من النافذين فيها، فيقبض مقابل هذا المدح مبلغاً من المال يشتري به عتقَه، ويحرّر نفسه.

ولطالما سمع عن بغداد!
ولطالما حلم ببغداد!

كان يتصوّر نفسه إلى مائدة بعض الوزراء وهم يأكلون: غلام إلى يمينهم وغلام إلى يسارهم، يتناولون ملعقة من غلام اليمين الحامل ثلاثين ملعقة من زجاج نادر، يأكلون بها مرّةً واحدة فقط، ثم

يدفعونها إلى غلام اليسار. كلّ ملعقة لقمة. فهم من نظافتهم لا يُعيدون الملعقة ذاتها مرّة ثانيةً إلى فمهم.

وكان يتصوّر نفسه ينشد قصيدة في عرس خليفة، أو عرس ابن خليفة، أو عرس أحد أبناء الأشراف، فتنال قصيدته إعجاب الممدوح، ويُعطى مالاً يَقِيهِ طَوال حياته من العَوَز.

لكنّ الرياح لا تجري دائماً بما تشتهي السفن، وصحّ ما توقّعته والدته. نصحته والدته عندما أخبرها بما ينوي القيام به ألّا يهرب، لأنّ أسياده سيقبضون عليه، فهو راجل وهم على خيولهم. وبالفعل قبضوا عليه، واقتصّوا منه، فعرّوه من ثيابه إلّا ما ستر عورتَه، ودهنوا رأسه بالزيت، وربطُوا يديه ورجليه ورموه على «بُلُس» (بساط) في الصحراء في عزّ الشمس، فاجتمعت عليه كلّ حشرات الأرض وزواحفها، من نمل وأفاعٍ وفئران، ودبابير وذباب وبرغش، وما إلى ذلك، وسالت معدته حتّى احترقت أجوافُه وانكوى مخرجُ بدنه، ثم أُفرج عنه بعد أن أقسم أمام أسياده على التوبة. ورعتْه زوجتُه حتى طاب. ولم تلمه على إخفائه سرَّ هربه عنها، خاف أن يبوح لغير والدته فينتشر سرّه.

حين قبضوا عليه لم يبح لهم بالسبب الذي دفعَه إلى الهرب، ولا هم سألوه عن السبب، لأن الأمر بالنسبة إليهم كان أنّ العبد يهرب، لا أكثر ولا أقلّ.

ثمّ شجّعتْه زوجته، على إنشاد أبيات من وحي شيطانه، لأسياد من قوم مواليه، مدّعياً الشيء ذاته، أي أنّ هذا الشعر لشعراء سابقين، ففعل وأعجبهم، ولمّا وثق من استحسانهم، باح لهم بأنّه من وحي

شيطانه، فطلبوا منه عندذاك أن يستعدّ ليقول مديحاً في والي مصر، الذي سيزورونه قريباً، وهو من قبيلتهم، فكاد يفقد عقله من الفرح. اقترب يوم الفرج! سيصبح حرّاً بالتأكيد، سيدفع والي مصر ثمن عتقه إلى أسياده، مقابل أبيات يقولها في مديحه. هذا حلمه سيتحقّق قريباً، وسيُعْتِق والدته وأخته، وسيُعتِقُ أوّلاً جدّته، ثم كلّ من استطاع من أقربائه.

وسيُعتِق ابنتَه، وهذا أهمّ شيء، لأنّه هو الذي تسبّب بمجيئها إلى هذا العالم، كان يخاف عليها أن تكسد، وأن تبقى العمر كلّه بلا زواج، وكان إلى خوفه هذا، يشعر بالذنب شعوراً مريراً. كان دائماً يقول: أخاف عليها أن تكسَد لأنني «نفضتُ عليها سوادي!» كان يخاف عليها أن تصبح كـ«أُخيّة» الحبيبة، التي كان يرفض تزويجها لطالبي يدها من السود، ولم يكن أحد من البيض يطلب يدَها.

عبدة وسوداء!
لو كانت عبدةً وحسب، كالفارسيّات والروميّات مثلاً، لهان الأمر كثيراً.

لذلك قرّر بعد ولادة ابنته ألّا يستولد زوجته السوداء مرّة أخرى، وكان يحبّها ويلتذّ معها. ولذلك صار «يعزل» (يُنزِل خارج الفرج) ويقول لها: حتّى «لا ننفض سوادنا عليهم» فنشعر بالذنب تجاههم! وحتّى لا نظلمهم كما ظلَمَنا أهلُنا! وكانت زوجته توافقه وترضى.

وقرّر أن يتزوّج ذات يوم، إن وفّقه الله بشعره، امرأةً بيضاء، تلد له أولاداً بيضاً مثلها.

وفي مصر، كان الفرزدق الشاعر العربيّ الذي خلّدته الأيّام، حاضراً في مجلس الأمير، وكان في زيارة له، وكان متقدّماً جدّاً في العمر، (مات عن عمر يقارب المائة عام)، وكان رباح فتى لم يبلغ بعد من العمر عشرين عاماً.

كم ترى ثمن هذا العبد؟ سأله الأمير.
قال الفرزدق: أرى ثمنه مائة دينار.

قال الأمير: لكنّه شاعر جيّد، فقال الفرزدق: ويقول الشعر أيضاً؟ فقيمتُه إذن نصف ذلك أو ثلثه، ثلاثون ديناراً!

ثم طلب الأمير من رباح أن ينشده، فقال:
إذا اكتحلتْ عَيْنا محبٍّ بضوئه
تجافتْ به حتى الصباح مضاجعُه

توقف! قال الأمير، والتفت إلى الفرزدق قائلاً له، ما رأيك في هذا الشعر؟ وكان الفرزدق ما زال منشداً الأمير قصيدة قال فيها:

ورَكْبٍ كأنّ الريحَ تطلبُ عندهم
لها تِرَةً منْ جَذبِها بالعصائبِ

وكان الأمير يتوقَّع منه قصيدةً يمتدح فيها كرمه وشجاعته، أو ما شابه ذلك من الفضائل، وإذ بها قصيدة يفخر فيها الفرزدق بقومه، ويصفهم بالأشداء، ويصوّرهم في مشهد أسطوري في معركة مع الرياح تجذب عمائمهم (العصائب)، كأنّ لها ثأراً (تِرَة) عليهم، وتريد أن تنال منهم بلا إبطاء.

فأجاب الفرزدقُ الأميرَ: شعرُ أسودَا! والتفت إلى رباح وقال له: ليس بهذا الشعر «تُطلب الملوك»، وأضاف بلا أن يتردّد لحظةً، أو أن يقيم اعتباراً لكونه في حضرة الأمير، «لئن استطعتَ أن تكتم هذا على نفسك فافعلْ!» فتصبّب العرق من رباح، وكاد أن يُغمى عليه، أمّا الأمير فاسودّ لونه غضباً.

ثمّ استأذن الفرزدق الأمير بالخروج، فأذن له، وقال بعدما خرج:
وخيرُ الشعر أكرمُه رجالاً
وشرُّ الشعر ما قال العبيدُ

ارتاح رباح بعدما خرج الفرزدق، وحضره فوراً شيطان الشعر، وأوحى له بهذه الأبيات:
وكفُّك حين ترى السائلي
ـن أندى من الليلة الماطرة
فمنك العطاء ومنّي الثناء

فقاطعه الأمير قائلاً لأحد حجّابه: أعطوه! أعطوه! فقال رباح: إني عبد مملوك! فلن يترك لي أسيادي شيئاً مما ستعطيني. فطلب الأمير من الحاجب أن يخرج إلى السوق وأن يسأل عن سعره، فجمع الحاجب عدداً من المقوِّمين، وسألهم عن سعر عبد أسود لا عيب فيه، فقالوا مائة دينار، فقال إنّه راع للإبل لا تضيع عن ناظريه، ويُحسن العناية بها، قالوا إذن مائتان. قال إنه شاعر مجيد، ما زال مادحاً الأمير بقصيدة أعجبته، قالوا إذن ألف دينار. قال مروان ادفعوها إليه. قال رباح: وجائزتي التي أستحقّها عن مدحي إيّاك؟ فأجابه: اشترِ نفسك أوّلاً ثمّ عُد إلينا!

ولمّا رأى أسياده أنّ شعره أعجب الملوك، عرضوا عليه أن «يستلحقوه»، أي أن يعطوه اسمهم، وأن ينسبوه إليهم، ويصير منهم، فرفض، لكنه فهم مقصدهم من هذا الاقتراح، إذ أرادوا أن يقاسموه المال الذي يجنيه من شعره، فقال لهم ما قاله الشاعر العبد الأسود نُصَيب، لمواليه الذين عرضوا عليه أن ينسبوه، بعدما صار يربح بشعره مالاً من مدح الولاة: «والله لأنْ أكون مولى لائقاً أحبّ إليّ من أن أكون دعيّاً لاحقاً» ففضّل أن يبقى مولى واضح النسَب، ملحَقاً بأسياده، على أن يكون متّهماً على الدوام بنسبه. ووعدهم رغم ذلك، بأن يقاسمهم ما يجنيه من مال بشعره، وظلّ على وعده حتى مات.

ثم زار رباح بعد ذلك مصر مرّة أخرى، ونال من ممدوحه ألفَ دينار أخرى، لكنه عاد إلى الحجاز في ثياب رثّة، ليُظهر لأسياده أنه لم يجنِ شيئاً، وبعد أشهر على ذلك فاوضهم في عتق أمّه، فاشتراها وأعتقها، ثم دفع لهم ضعف ما دفع عن أمّه ثمناً لجدّته أمّ أمّه، وأعتقها.

وبعد أن ذاع صيتُه، وصار لديه مبلغ لا بأس به من المال، اشترى غلاماً، واشترى بضعة عبيد.

وأراد أن يُحقّق حلمه بصبيّ أبيض، وكان عمره حينذاك فوق السبعين، فاشترى جارية صبيّة بيضاء فارسيّة الأصل، فاستخلاها (ضاجعها) وحبلت منه، وأعتقها بعد أن ولدت له صبيّاً أبيض اللون.

وقد سمّى ابنه معبدْ.

وبعد أن ذاع صيته كثيراً، وبشكل خاص بين أقاربه، جاءه يوماً ابن خالة له مولى عبد، فسأله أن يُعتقه، فاستجاب له ودفع ثمنه، ثمّ رآه مرّة يرقص وينفخ بالمزمار، ومعه كثير من العبيد السود، يتحلّق حولهم العوام وكثير من الصبية، وبينهم ابنه معبد، فزجر ابن خالته قائلاً له: لم أعتقك حتى تبقى ضحكة للناس! فأجابه: إن كنتَ أعتقتني لأكون كما تريد، فهذا لن يكون! أفضّل في هذه الحال أن أكون كما يريد أسيادي! فهل أعتقتني لتستعبدني من جديد؟ أم لأنك قريبي وأردتَ مرضاة الله؟ قال بل إنّك لا تستطيع بهذه الخِلقة المشوَّهة أن تصل إلى مكان، فلا شرف أبٍ يدعو الناس إلى إكرامك، ولا شرف أمّ ولا قبيلة، فما بلغتُه أنا فبعقلي وبلساني، فشغِّلْهما! حاول أن تنصت إلى شيطان الشعر، بدل أن تتلهّى بهذا السخف. فقال قريبه:

أنا حرّ!

أنا حرٌّ إذا رقصتُ، وحرّ إذا غنّيتُ، وحرّ إذا نفختُ في المزمار، وحرّ إذا فعلتُ ما شئتُ! فغضب رباح، وانصرف وهو يقول متمثّلاً شعر نُصَيب، وكان نصيب نموذجاً بالنسبة إلى رباح، لأنّه كان مثله عبداً حرّره شعره من العبوديّة:

نسِيتَ إعمالي لكَ الرواحِلا
وضَربيَ الأبواب فيك سائلا

ثم حضره شطر بيت من الشعر يقول:

إن العبيد لأَجناسٌ مناكيدُ!

لكنّه لم يسعَ إلى إكماله، بل أكمله بعد ذلك بأكثر من مائة عام، الشاعر العظيم أبو الطيّب المتنبّي، وبنى به بيتاً كاملاً من الشعر،

هجا فيه كافور الإخشيديّ، حاكم مصر في تلك الأيّام، وكان أسود اللون. قال المتنبّي:

لا تشترِ العبدَ إلّا والعصَا مَعَهُ
إنّ العبيدَ لأنجاسٌ مناكيدُ

فاستبدل «أنجاس» بـ«أجناس»، وبين الكلمتين شَبَه يكاد أن يكون تامّاً.

وكان معبد حاضراً يتفرّج، وكان صغيراً، وكان مسروراً جدّاً، وفخوراً بقريبه، الذي كان يترأّس الحلقة، والذي حرّره والدُه، ففوجئ بما جرى وصُدم وبكى، لأنّه كان يحبّ الغناء وكان بدأ شيطان الغناء يوشوشه بألحان غامضة، يخاف أن يردّدها لأحد.

وكان معبد في تلك الأثناء، يرعى الغنم لأسياده وأسياد أبيه، الذين كانوا يرسلونه، وهو ما زال غلاماً، إلى مكان يُسمّى «ظَهْر الحَرّة» يبعد أيّاماً عن منازلهم لـ «يتلقّى الغَنَم» هناك. وكان في الليل يأتي صخرةً «مُلقاةً»، ويستند إليها ويغفو من تعب السعي وراء الغنم، في لهيب الصحراء، فيسمع وهو نائم «صوتاً»، أي غناء، يجري في مسامعه، فيقوم من نومه، و«يحكي» هذا الصوت، أي يردّده تماماً كما سمعه وهو نائم.

وكان هذا الصوت لا يجيئه كرؤيا، ولا في الحلم، بل في النوم. في النوم وحسب. لذلك كان ما يحكيه في اليقظة هو تماماً ما يسمعه في النوم.

وهكذا بدأ معبد بن رباح بالغناء. بدأ يغني ليحكي ما يجري في

مسمعه وهو نائم. لكنّه كان يخاف أن يبوح بذلك لأحد، لئلّا يعرف والدُه، فيغضب عليه وينهره أو يضربه. ولكنّ الصوت كان يلحّ عليه، فيأتيه كلّ ليلة وهو مستلق في البريّة على هذه الصخرة، بعد أن يكون قد رعى غنمَه، فيقوم من نومه ويَحكي ما سمع بصوت عال، فيُسحَرُ ويكاد ألّا يصدِّق ما يجري له.

وقصد مرّةً رجلاً من الأشراف، وأخبره بخبره، ورجاه أن يسمعه يغنّي صوتاً من هذه الأصوات التي يسمعها أثناء نومه، فقال له الشريف ساخراً منه: نَبِيّ في الغناء؟ فقال معبد لا إطلاقاً، بل أصوات حقيقيّة أسمعها في الليل، فأقوم لأحكيها ذاتها بالذات. فأجابه الرجل «لو أقبلتَ على غيره من الآداب، لكان أزينَ لأسيادك ومواليك ولك!» فعاد مكسور الخاطر. وعلم أبوه بالأمر، وهذا ما كان يحذر منه ويعمل على تحاشيه، لأنّ والده كان يكره العبيد الذين يغنّون، (وبشكل خاص العبيد السود منهم)، وكان يكره أن يصبح ابنه مثلهم، بل كان يفضّل أن يبقى ولده على ما هو عليه، راعياً للغنم محترماً كما يُحترَمُ الرعيان، بدل أن يتبذّل في الغناء ويُذَلّ. ولمّا علم والدُه بالأمر نهاه عن ذلك وحذره: لا تكنْ أضحوكتين للناس، عبداً وناقر دفّ! يكفيك أنّك عبد!

لستُ عبداً! قاطعه معبد.
واشكر ربّك، أضاف رباح، أنّه خلقك أبيض بلون أمّك. إنها نعمة أنعم الله بها عليك، فلا تتعب من شكرانه!

لكنه ظلّ يسمع في الليل أصواتاً رائعةً ساحرة، وكان يحاول المستحيل ليُبقيها في النسيان، لكن إلى متى؟ إلى أن سمع ذات يوم صوتاً، ظنّ لكثرة ما سحره أنّه سيجنّ، فلم يقوَ على تناسيه،

فصحا من نومه وراح يغنّيه كما سمعه تماماً، بلا زيادة ولا نقصان، وظلّ يُردّدُه بصوته العالي الملآن، إلى أن سمع وهو كذلك، وفي هذا الليل المقمر، صوتَ منادٍ يناديه، فالتفت نحو مصدر الصوت، فرأى في ضوء القمر قافلةً تتّجه نحو المدينة، فانحدر نحوها حتّى بلغها، فقال دون أن يسأله أحد: هذا أنا! فأجابه رجل بصوت فتيّ، وفي ثياب أشراف بغداد: وأنت من أنت؟ قال أنا الذي كنت أغنّي الصوت الذي سمعتَه، فهزئ منه الرجل على راحلته وقال له هل تعرف أين قبرُ ابن سريج؟ فصُدم معبد بن رباح، ولم يستوعب ما جرى، فقال له الرجل: تغنّي ولا تعرف من هو ابن سُريج؟ ومعبد يعرف من هو ابن سريج، ويعرف أنّ لحنه في شعر عمر بن أبي ربيعة:

تشكّى الكُمَيْتُ الجَرْيَ لمّا جهدْتُهُ
وبيَّنَ لو يستطيعُ أنْ يتكلّما

اختير واحداً من أجمل ثلاث ألحان في التاريخ.
(الكُمَيْت هو الحصان الذي لونه بين الأسود والأحمر. جهدتُه: أتعبتُه)

ويعرف معبد بالتأكيد أين قبره، فقال بلى، ولكن اسمعني رجاءً، وإن لم تحبّ ما سمعت فليكن أجرك عند الله، قال الرجل: دلّنا أوّلاً على القبر ثم ننظر في أمرك فيما بعد. فقال معبد لكنني لا أستطيع الابتعاد عن غنم أسيادي، لئلاّ يتشتت في هذا الليل، فقالوا: غلام من غلماننا يحلّ مكانك إلى أن تعود. ولما وصلوا إلى القبر، نزل الرجل الذي كلّمه عن راحلته، وحسر عمامته عن وجهه، فإذا هو وجه فتى لا يمكن أن يفوقه حسناً وجمالاً بشرٌ ولا جنّ، إلّا وجه الله عز وجلّ! فاضطرب معبد، وكاد أن يخرّ

ساجداً، غير آبه بأن يُتّهم بالشرك، أو بالمذلّة لغير الله. هذا ليس جمال بشر بل جمال خلفاء! هذا جمال من لا يعلوهم إلّا الله! وحضره في تلك اللحظة شعر الأخطل الذي يقول فيه عن الخليفة:

الخائض الغمر والميمون طائره
خليفة الله يُستسقى به المطر!

نعم! قال في نفسه، إنّ الخليفة هو خليفة الله، وبه يترجّى الناس هطول المطر بعد إمساك. ثمّ عقر الفتى ناقته على قبر ابن سُرَيج، واندفع يندبه بصوت شجيّ كلِيل حسَن، ثم نزل صاحبُه الذي كان يرافقه وعقر ناقته هو أيضاً، ووقف ينتظر إشارة من الفتى الذي قال له بعد لحظات: غنَ اللحنَ الأوّل! فاندفع يغنّي لحناً لم يسمعه معبد من قبل، فغاب الفتى عن الوعي، وارتمى على الأرض مغشيّاً عليه، فتوقّف الرجل عند ذاك عن الغناء، وانصرف إلى بغلته يُصلح السرج عليها، ولا يلتفت إلى الفتي المُغمى عليه، فودّ معبد لفتَ انتباهه إليه، لكنّه لم يجرؤ، بل ظلّ مسمّراً مكانَه، ثم بعد وقت أفاق الفتى، فاقترب منه الرجل وراح يمسح وجهه بالماء، ويقول له على سبيل المعاتبة: إلى متى ستبقى تكلِّف نفسك هذا العناء، وهذه المشقّة، تأتي من بغداد إلى هنا كلَّ سنة، ليُغشى عليك على قبر ابن سريج؟

ثم ركب الفتى على فرسه وقد استعاد عافيته، فناوله الرجل إناءً كان وضع فيه بعضَ غبار مسحه عن القبر، وسكب عليه ماء وقال للفتى أن يشرب! ثم أَركب الرجلُ معبدْ وراءه حتى وصلوا إلى «ظهر الحرّة» حيث أنزله وأعطاه ثلاثين ديناراً، ونادى على الغلام الذي حلّ مكانه ومضوا جميعاً ناحيةَ العراق.

كان من المستحيل على معبد، بعد الذي رآه، أن يطلب من الفتى سماعه، وكان في ودّه ذلك رغم كلّ شيء، لكنه خاف وتهيّب.

ثمّ عاد معبد بعد ذلك إلى مكان القبر بِبَعِيرَين، وحمل عليهما الراحلتين اللتين عقرهما الفتى والرجل، وباعهما بثلاثين ديناراً، دون أن يدري والده أو أحد من أسياده. وكانت هذه أوّل مرّة يكون معه مال، فسُرّ كثيراً وقال في نفسه: «سأجمع من الدنانير ما يقنع أسيادي بالسماح لي بالذهاب إلى بغداد!» ثم قال: والله إنّ الغناء الذي سمعتُه من هذا الرجل، حتّى لو كان لابن سُريج، ليس أجمل من الغناء الذي أردتُ إسماعَهما إيّاه. وقال إنّه لا بدّ أن يعجب هذا الغناء أسياده ومَواليه، فيتركوه يعمل حسب رغبته. أمّا والده فلا مجال للنقاش معه في هذا الموضوع. كان والده يتفهّم أن تغنّي جاريةٌ. لكن أنْ يغنّي رجل! إنّ في ذلك إمعاناً في العبوديّة. ولكنّ معبدْ راهن في الأخير على أسياده، فإذا رضوا فلا بدّ أن يصبح رضا والده أقرب منالاً، لأنّه، أي والده، ما زال شديد الإخلاص لأسياده حتّى بعدما اشترى عتقه، فهذا مبدأه وهو مبدأ لا يتخلّى عنه على الإطلاق، بحيث إنّ معبدْ لمّا أراد أن يتزوّج، وقد أعجبته ابنةُ «عمّه»، كلّم والدَها بالأمر، فقبل أن يزوّجه إيّاها، لكنّه طلب منه أن يأتي مع أبيه حتّى تتمّ الخطبة حسب الأصول، فخاف أن يخبر والدَه، لكنّه كان مجبراً على ذلك، إذ ليس في اليد حيلة، فإن لم يخبره فمن سيخطبها له وكيف سيتزوّجها؟ فأخبر والدَه الذي قال له بهدوء لا يشي بشيء من غضب أو نكران: غداً نلتقي في الساحة ونذهب.

وفي الغد، وصل معبد إلى الساحة، وكان يتحلّق حول أبيه عدد كبير من الناس، فقال له والده: تريد أنت أن تتزوّج من هذه

الفتاة؟ فلم يفهم معبد ما قال والده، فكرّر عليه السؤال، فأجابه بنعم، وبأنّه يهواها منذ وقع نظره عليها. فقال والده لعبيده السود: جرّوه برجليه واضربوه ضرباً مؤلماً! فأخذوه وجرّوه برجليه، وضربوه ضرباً آلمه كثيراً، وكاد أن يعطب شيئاً فيه، ثم نظر والده إلى والد الفتاة، أي «أخيه» الحرّ، وقال له: لولا أنّك أنتَ من أنت، ولولا أنّي أكره أن أؤذيك لِشرف نسبك، كنتُ ألحقتك به. ثم نظر إلى شاب من أشراف الحيّ كان واقفاً يتفرّج، ودلّ عليه وقال لوالد الفتاة: زوّج هذا ابنتَك، ولهما من مالي الخاصّ، المهر ومصاريف الزواج كلّها!

ثمّ منع زوجته أمّ معبد من أن تهتمّ بابنها معبد، حتّى يعرف قدره! ومنعها من أن تعتني بجراحه التي أصابته من الضرب، فأظهرت الطاعة لكنّها اهتمّت به خلسةً.

أمّا معبد فظلّ يحبّ هذه الفتاة، وقد عزم في نفسه على أن يتزوّجها، مهما كان الأمر، ومهما طال الزمن، ومهما بلغت الصعوبات. كان يراقبها ويراقب تحوّلاتها بعد أن زوجت من فارس شريف. لم تحبل. وكان يتتبّع أخبارها. وقد بلغت رغبته فيها يوماً أن قرّر تدبير حيلة للتخلّص من زوجها، وخطفها، والهرب بها إلى بغداد.

هي لم تكن تحبّه كما كان يحبّها، لكنّها مكّنته منها، وربّما سهّل عليها الأمر أنّ زوجها كان فارساً يهوى الغزو، ويهوى الصيد في الصحاري البعيدة، وكان يملك من النساء ما شاء، روميّات كاملات الأجسام، وفارسيّات متحدّرات من سلالات عريقة، يمتزن بالرغبة والحكمة، وكان يُبقي على زوجته تلك لشرف نَسبها فقط، لا لشيء آخر، وكان نادراً جدّاً ما «يواقعها»، وكانت في أوّل

الأمر تشتكي لوالدها، فأنكر عليها والدها ذلك، ونهرها ومنعها من أن تشتكي، فامتثلت لأمره حتّى تحفظ شرفه وشرف إخوتها.

لكنّ زوجَها صار مع الأيّام يحذرُ منها، وصارت ظنونُه تكبر في سلوكها، فكان يكلّف عبداً له بمراقبتها حين يغيب في صيد أو غزو، وكان يأمره بأن «يقعد» على عدد كبيرٍ من بيض الدجاج، في مكان قريب من مسكن زوجته هذه، ومطلٍّ عليه، وكان يقول له: حين أعود يجب أن يكون هذا البيض قد فقّس صيصاناً، والصيصان لك، تتصرّف بها كما تشاء. حتى بات هذا العبد يُعرف بأبي الصيصان، وهذه عائلة ظلّت مزدهرةً مئات السنين.

وكان هذا العبد يراقب الزوجة في غياب سيّده وهو يحضن البيض، وكان البيض أحياناً كثيرة لا يفقّس بعد عشرين يوماً، فيبقى العبد حينذاك حاضناً إيّاه حتّى عودة سيّده.

ومرّةً شاهد العبدُ معبدْ يدخل بيت الزوجة، فأسرع إلى سيّده، الذي كان ادّعى أمام زوجته أنّه ذاهب في غزوة، وكانت الغزوات التي يشارك فيها تدوم أشهراً عديدة في أغلب الأحيان، وربّما أكثر، فقال له إنه رأى معبدْ يدخل بيت زوجته، وأنه ما زال هناك، فنادى السيّد جاريةً وأمرها بأن تساعد العبد على الاستمناء في وعاء، وأمر العبد بأن يحلب معزاة في هذا الإناء بالذات بعد أن يكون قد سكب منيَّه فيه، وأن يقدّمه لزوجته حين تطلب منه حليباً لتشرب، لأن معبدْ عشيقها سيعطش بعد أن ينتهي من مضاجعتها، وسيطلب حليباً بالتأكيد ليروي به عطشه. وكان من عادات الناس في تلك الأيّام، أن يُشربوا من يريدون قتلَه منيَّ أحدٍ آخر. وكان السيّد يريد أن يقتل معبد وهو في حضن زوجته، فيثير

غيظ أهلها عليها فيقتلونها بأنفسهم ليتحرّروا من عارها، وهكذا يتحرّر هو من عارها أيضاً، ويخلص في الوقت نفسه، من جميع المشاكل التي قد تنتج عن قتله إيّاها بيده. لكنّ العبد الذي كلّفه بهذه المهمّة، لم يكن من السهل عليه تنفيذها، فهو أوّلاً لم يستطع ضبط رغبته، عندما وجد نفسه مع جارية سيّده، في هذا المكان المنعزل البعيد عن أعين الناس، فاندفع نحوها يريد إتيانها، فنهته عن ذلك مهدَدَةً وقائلة له، إنّه عليه أن يُريق (يُنزِلَ) ماءَه في الإناء، لكنّه لم ينتبه إلى ما قالته، وتابع اندفاعه، وأراق على ثيابها قبل أن يبلغ منها مكاناً عارياً، وقد تمّ ذلك في ثوانٍ معدودة لم يستطع أثناءها السيطرة على نفسه، وحين قالت له إنه أفسد كلّ شيء، راح يمسح ماءه عنها ويضعه في الإناء، لكنّ الثياب كانت قد شربت قسماً منه، وكان من العسير قحطه، وبينما هما كذلك انتصب من جديد، وهو في الحقيقة لم يرتخِ، فقال لها نعيد الكرّة، تصرّفي أنتِ كما يجب، فأمسكت قضيبه ووجّهته نحو الإناء، وداعبته حتى صبّ ماءه فيه، ثم حلب المعزاة فوقه، وانتظر حتى نادته الزوجة، فذهب إليها مع الإناء المملوء حليباً، فقالت له: ولماذا جئتني بالحليب؟ أنا لم أطلب منك حليباً! فارتابت به، وكانت هيئته عكرةً على غير عادته، فصرفته، وعاد يحتضن البيض وينتظر أن يسمع صراخاً، لكنّ الذي حدث هو أنّ الزوجة لم تكن جاهلةً بحِيل زوجها، فشمّت الحليب وارتابت برائحته، فسكبته على الأرض ورأت شيئاً ما زال ملتصقاً بقعر الإناء، سميكاً يشبه الحليب لكنّه ليس حليباً، ففهمت أنها خدعة، فقالت حينذاك لمعبدْ، يا معبدْ إنه يريد الخلاص منّي ومنك، فلو أراد قتلك كان قَتَلك الآن لأنه هو الآن هنا وليس مسافراً، خَدعَنا، أراد قتلك في حضني حتى يجبر أهلي على قتلي، ليغسلوا عارهم بأيديهم، بينما يدّعي هو الغياب ويدّعي أنّه على جهل تامّ بما جرى. انتظرْ حتى

يأتي الليل والبس ثياب امرأة، واختفِ من المدينة ومن المنطقة كلّها.

ـ أقتلُه؟

لا تقتلْ! قالت له. بل ارحلْ إلى بغداد إن استطعت، فهناك يغتني الناس من الغناء.

وخرج معبد من مأزقه عند ابنة «عمّه»، لكنّه لم يخرج من مأزقه بشكل عام. فإقامته صارت نوعاً ما خطرةً، وبات عليه أن يبقى يقظاً، فزوج ابنة «عمّه» قد يُسيء إليه في كلّ لحظة، ورعاية الإبل وخدمة الأسياد لم تعد تكفي، ولا تلبي طموحاً، وشيطان الغناء يلحّ عليه ويوشوشه بألحان رائعة، وأخبار بغداد تلهب أحلامه.
ووالده على عناده ولا يسمح له بالغناء.

وهو مقتنع بأنّ فكرة والده عن الغناء فكرة سيّئة جدّاً وخاطئة، فالغناء اليوم لم يعد كما كان في السابق، ندباً وبكاءً على الموتى، بل أصبح فنّاً من أتقنه عاش مقرّباً من الملوك، في نعيم. صحيح أن المغنّين في غالبيّتهم الغالبة من الموالي، لأنّ العرب الأقحاح الأحرار لا يغنّون، ولكنّ هؤلاء العرب الأقحاح الأحرار يحبّون الغناء ويجيدون السمع ويُكرمون المغنّين. وقد بلغ حبّهم للمغنّين أنّهم كانوا يموتون من هذا الحبّ، خلفاء وأولاد خلفاء، وأمراء ووزراء وكتّاباً. وكانت هذه حالَ سُراة الناس وأشرافِهم جميعاً. فالمغنّي يزلزل عليهم الأرض! بل إنّ الخلفاء وأولاد الخلفاء يغنّون لكن لا للتكسّب ولا في العلن! إنّ هارون الرشيد بالذات صنع بعض الألحان، وأخته عليّة بنت الخليفة المهديّ كانت تقول الشعر وتؤلّف

الألحان وتؤدّيها، وأخوه إبراهيم ابن الخليفة المهديّ أشهر من نار على علم في هذا الباب، كان منافساً لإسحق بن إبراهيم الموصلي العالم الكبير بالموسيقى!

وكان هؤلاء الموالي المغنّون ينالون الشهرة ويجمعون الثروات الهائلة بأغانيهم، وكانوا يبلغون أعلى المراتب، ويحظون بكثير من الاحترام، بحيث إنّ إبراهيم الموصليّ تجرّأ مرّة وقال للخليفة المهديّ والد الخليفة هارون الرشيد وجدّ الخليفة المأمون: أغنّي للذّتي!

تغيّر الوضع كثيراً عمّا كان عليه في السابق، لكنّ والده لم يكن يرى ما يراه.

وتمنّى معبد في الحقيقة، ومن كلّ قلبه، أن يجيئه شيطان الشعر، بدل شيطان الغناء، وكان يحلم به كلّ مساء، لكنّه لم يكن يجيئه، رغم حاجته إليه، وكانت حاجته إليه عظيمة، فشيطان الشعر يُغْني، وشيطان الشعر يُحرّر، وشيطان الشعر يُسهّل الوصول إلى النساء حتى المُحصنات منهن وذوات الشرف. وأجمل نساء العرب ودّت لو قال فيها عمر بن أبي ربيعة شعراً، وكم من النساء احتلن عليه ليقول فيهنّ من شعره!

لكنّ العين بصيرة واليد قصيرة، وعلى الإنسان أن يتدبّر أمره بما بين يديه. وكانت الأصواتُ ما زالت تلحّ عليه، وصارت تجيئه وهو نائم في البيت، وتجيئه في كلّ مكان وكلّ ليلة، وكان ينهض ويبتعد في الخلاء ويحكيها، كما جاءته تماماً.

وإذا جاءته هذه الأصوات، وهو في أعالي الصحراء يرعى الإبل،

كان يبتهج بها أشدّ الابتهاج، ويردّد ما سمعه بأعلى صوته، لتسمعه الجهة الأخرى من الأرض قاطبةً.

وكان شديد الاقتناع بأنّ غناءه جميل، لأنّه كان يردّد ما يسمعه في الليل من شيطان أنيس.

لكنّه لا يستطيع أن ينسى حزنَ أبيه وانكساره وغضبه عندما رأى قريبَه ينقر بالدفّ. والله لو علم أبوه بأنّه عاد إلى الغناء، بعدما وعده بتركه ونسيانه، لمات كمداً. لذلك ظلّ يخفي أمر هذه الأصوات التي كانت تجيئه، ولشدّ ما كان يتناساها، كان يسمعها أحياناً بعيدة بعيدة كأنّها صدىً لشيء. كأنها صدى لماضٍ، كأنّها صدى لمستقبل لا أمل بمجيئه.

ثمّ أراد والده تزويجه، علّه يهتدي ويرجع إليه عقله، ويبني مستقبله كما يبني أولاد الناس مستقبلهم. وكان عمره ستّ عشرة سنة. زوّجه من جارية روميّة، وكان يفضّل أن يزوِّجَه من جارية فارسيّة، لأنّ الفارسيّات أكثر أدباً وعلماً وفنّاً، لكنّه خاف عليه منها أن تشجّعه على الغناء، لما للغناء من وقع في نفوس الفرس، أمّا الروميّات فأدبهن قليل إن لم يكن معدوماً، لكنّهنّ أكمل أجساماً، وأوضح بَشَرةً، وعيونُهنّ زرقٌ كالأنهار. وهدف أبيه أيضاً من زواجه بروميّة هو أن تلد له بنات بيضاوات اللون. لا يهمّ لون الصبيّ كما يهمّ لون البنت. لكنّ الأقدار شاءت أن تلد له بنتاً سوداء، كعبدة من السودان أو من الحبشة. فاغتمّ وتملّكه الهمّ، وكان من أثر ذلك عليه أن خاف أن يقرب امرأتَه كي لا تحبل مرّة ثانية، وتلد له بنتاً سوداء، وكان يشتهيها إلى أقصى حد، ففترت شهوتُه نحوها فجأة، وتحوّلت هذه الزوجة المشتهاة إلى

تمثال من رخام متنقِّل، وكان عمرها يوم ذاك ستّة عشر عاماً، وكانت قد تزوّجت وعمرها اثنا عشر عاماً. لقد أسعد أباه أنّه انشغل بها. كان لا يتعب من البقاء معها، ومعاشرتها ومباشرتها في الليل والنهار، حتّى لقّبه أصحابه بها، وصاروا ينادونه بِـ: «أبو الروميّة». وكان حين يبعثه أسياده لرعي الإبل والغنم، ويُضطرّ للبقاء أسابيع وشهوراً بعيداً عنها، يموت من الغضب، ويموت من الرغبة فيها، وكان يتلهّى عنها بالأصوات التي كانت تجيئه في الليل وهو مستلق على صخرته، وكان ينهض ليردّدها.

ودام معبد على هذه الحال إلى أن علم مرّة، وكان عمره ثماني عشرة سنة، أنّ أباه ذاهب عند خُليدة المكّية ليخطبها لابن أحد أسياده!

غريب كيف تلعب الصدف دورَها في مصائر البشر!

فأصرّ على الذهاب معه إصراراً لم يترك لأبيه حيلة في رفض طلبه، لأنّه كان يعرف أنّها تغني، وأنّ غناءَها حسن، لكنّه لم يكن سمعها تغنّي، ولم يكن سمع لها أغنية يؤدّيها أحد غيرها، وعندما دخلا استقبلتهما في ثياب رقيقة شفّافة، لكنها اعتذرت لمّا رأت أنّ الزائر رباح، وقالت له معتذرةً، ظننت أن الطارق أحد من «السفهاء»، وتقصد أحداً من الذين يريدونها لساعة من الوقت، فلامها رباح قائلاً: أتستقبلين السفهاء بهذه الحالة؟ قالت هذا عملي!

ولمّا أجلستهما قال لها رباح: جئت في طلب. قالت ولماذا جئت بابنك معك، قال لها لأنني جئت في طلب من نوع آخر، قالت

أقدّم لكما شيئاً أوّلاً، فماذا تريدان أن تشربا، أو أن تأكلا إذا شئتما؟ فعندي من بغداد حلوى قدّمها لي زائر جاءني من هناك، ليسمع مني صوتاً أغنّيه ولا يغنّيه أحد غيري، وقد ذاع صيت هذا الصوت حتّى بلغ الخليفة، وحتى الآن والحمد لله لم يسرقه منّي أحد، ولم أعلّمه إلى أحد، ولا أغنّيه إلّا إذا تأكّدت من خلوّ المجلس من مغنّ يحسن سرقة الأصوات، لأن هذا رزقي وبه أعتاش. قال رباح لا والله لا نريد شيئاً، إنما جئنا في طلب وحسب، هنا قاطع معبد والده وقال لها، لو أنّكِ تضيّفيننا هذا الصوت، فكأنّك أولمتِ لنا، ولن ننسى بعد ذلك هذه الخدمة، فسرّت خليدة من هذا الكلام، وأمسكت بالعود فوراً وراحت تغنّي، فطرب معبد، وقام وهي لم تنتهِ بعد، وقبّل قدميها اللتين كانتا عاريتين. يحبّ الغناءَ معبد! قالت خليدة وقد وضعت العود عنها، فقال لها رباح، لقد جئتكِ يا خليدة بأمر أهمّ من ذلك بكثير، جئتك بأمر فيه خلاص لكِ من هذه الحياة التي تعيشينها، ستصبحين سيّدة إن شاء الله، بعد أن كنتِ عبدة مولاة، فقالت وكيف ذلك؟ قال تعرفين ابن سيّدي غَسّان، قالت بلى إنه يحبّ الغناء، ويزورني أحياناً ليسمع منّي فأُسرّه، قال لقد أرسلني لأخطبكِ له، وأنتِ تعلمين من هو وابن من هو، أنت تعلمين أنّه ابن عمّ الخليفة وأنّه مرشّح لأن يكون حاكماً لأحد أقاليم الخلافة، وتعلمين من زوجتُه، ومن جدُّها الذي فتح أقاليم الشمال، وجعل الخيرات تمطر على الشام وعلى بغداد وعلينا، وأنتِ من أنتِ، مثلي عبدة سوداء، وجارية يزورك العابرون. لكنّه يريد أن يكون زواجاً بالسرّ لا يدري به أحد. فقالت له خليدة:

قد نسبتَه فأبلغتَ (نسبتَه: قلتَ من هو وابن من)، فاسمع إذن نسَبي أنا الآن: إنّ أبي بِيع بسعر حمار ذَكَر، ومات آبقاً (أي هارباً

من أسياده) وفي رجله قيد وفي عنقه سلسلة، وكان يسرق، وولدتني أمّي على غير رِشدة، بعدما وقع أبي عليها بلا زواج، وماتت وهي آبقة، هاربة من سيّدها تسرق لتأكل، فأنا من تعلم، فإذا أراد صاحبك زواجاً مُباحاً شرعيّاً وقانونيّاً، فنحن مستعدّون (قالت: نحن)، وإذا أراد زنى صريحاً: فأبلغه أنّا له! فقال لها رباح ولكنّه لا يأتي الحرام، فقالت ولا ينبغي إذن أن يستحي من الحلال، فأمّا زواج بالسرّ فلا! والله لا فعلتُه، ولا كنتُ عاراً على الجواري والقيان اللواتي يعملنَ مثلي! فصمت رباح ولم يجب بشيء، أمّا معبد فقد انفجر بالبكاء، واستعجل والدَه الخروج فخرجا صامتَيْن. وبعد أن ابتعدا قليلاً قال معبد لوالده لقد نسيت عندها نعليّ. وقد تعمّد نسيانهما هناك، فعاد ليأخذهما، فركع عند قدميها وقبّلهما من جديد وقال لها: افتحي لي عندما أعود ولا تنسيْ اسمي: معبدْ. قالت: «عاشت الأسامي!».

ذكّرها اسمه بمعبد بن وهب، نابغةِ الغناء العربيّ.

ولمّا أخبر رباح عَسّان ابنَ سيّده بما جرى، قال له ولكن هل يُعقل أن أتزوّجها جهاراً، وعندي مَنْ جدُّها فاتح البلدان ومُمْطرُ الخيرات؟ لا! ولكن ارجع إليها وقل لها أن تجيء لعندي، في بيتي على المطلّ، فأمتّع بصري فيها، «لعلّي أسلو»، فأبلغَها رباح الرسالة، فتبسّمت، ثم قالت: أمّا هذا فنعم، «لسنا نمنعه منه!».

ثم عاد إليها معبدْ بن رباح ما إن سنحت له الفرصة، ففتحت له ورحّبت به، لكنّها استقبلته بثياب محتشمة. وكان أوّل ما سألها هو عن الصوت الذي غنّته له، فقالت له: علّمتْني هذا الصوت بنت ابن سُريج، فقد باتت عندي مرّةً وكرّمتُها تكريماً لم يستحقّه

أحد غيرها، فأرادت أن تشكرني، فعرضت عليّ مالاً فرفضت، فعلّمتني هذا الصوت الذي أخذَتْه عن والدها، وحفظتُه بسرعة، وأعدتُه أمامها مرّات عديدة، حتى اطمأنّ قلبي إلى حسن أدائي له، وكانت هي عالمة بالغناء، أخذتْه عن أبيها، الذي كان يخاف عليها أن تعيش بعد موته في الفقر والعازة. وأخبرتني أنّه رآها تبكي وهو يُحتضر فبكى وقال لها: أنتِ همّي الوحيد، أخاف عليكِ الفقر من بعد موتي، فقالت: لا تخف! فما غنّيتَ شيئاً إلّا حفظته! قال هاتي، فاندفعت تغنّي أصواتاً له، وهو مصغ إليها مذهول عن كلّ شيء وحتّى عن ألمه، ثمّ قال: هوّنتِ علي الموت! أستطيع الآن أن أموت مطمئنّاً!

وهذا الصوت هو الآن كنزي، قالت خُليدة، أغنّيه مرّةً واحدة في الجلسة الواحدة، ولا أكرّره إطلاقاً، حتى لا يحفظه أحد عنّي، فيروج بين المغنّين وبين الناس، ولا يعود ملكاً لي. فقال لها معبدْ ابن رباح: لكنني حفظته. فاضطربَتْ، فقال لها لا تخافي! وأقسم أنّه لن يغنّيه في مكان، ولا لأحد، ولن يخبر أحداً بأنه يحفظه، قالت له حتى تتأكّد من أنّه يقول الصدق: غَنِّهِ! فغنّاه، ففقدت وعيها ووقعت على الأرض مغشيّاً عليها. ولمّا عادت إلى وعيها بعد ساعة قالت له، ضمّني لأتحقّق من أنّك لست عدوّاً بل صديق، فخاف من أن تؤذيه، فقالت له لمّا أحسّت بخوفه وحذره، إنّها هي التي تريد أن تتأكّد من أنّه لا يريد لها الأذى، فاقترب منها فضمّته إلى صدرها، وراحت تبكي وتشهق بالبكاء حتى أبكته، فرجاها أن تطمئنّ، وأخبرها كيف أنّه يحبّ الغناء وكيف أنّ أباه منعه عنه، وكيف أنّه يسمع أصواتاً في الليل فيقوم ويحكيها، فكشفت له عندذاك عن ثدييْها وقالت له هذان لك! خذْهما هذه الليلة وتمتّعْ بها ما شئتَ! فإنّ أحداً لم يتمتّع بهما قبلك، وقد أخفيتُهما على

كلّ من وقع عليّ، حتّى سيّدي الذي كان يقع عليّ دائماً، قبل أن يذهب للغزو ويموت في فارس، كنت أحتال عليه حتّى لا أكشف عنهما له، وإذا كنتَ صادقاً وإنني أحسّك صادقاً، فإنني أهبهما لك ساعة تشاء، وأعدك «وعد حُرّةٍ» بأنني لن أكشفهما لأحد غيرك. هذان أغلى ما عندي، فهما لك. ولمّا أحسّته أنه يريد شيئاً آخر، يفتّش عليه تحت ثيابها، تركته يفعل حتى بلغه، وقالت له حينذاك: لا! هذا ليس لك، هذا للسفهاء أو للإنجاب. ومضت ساعة وهو غاف على صدرها، ثمّ أفاق وقال لها لقد سمعت صوتاً، قالت له: قُلْهُ. فتردّد قليلاً قبل أن يقوله، لأنّه في الحقيقة خاف أن تحفظه فوراً، وأن تدّعيه لنفسها، ثم قال في نفسه لا يمكن أن تكون سيئة وهي على هذا القدر من الدفء والحنان، فقام وبدأ يغنّي، لكنّه ما إن قال بعض المقاطع، حتّى اندبّت عليه تسدّ فمه بيدها وتقول له: دَعْهُ في قلبك لا تُخرِجْه منه لئلاّ يسمعه أحد، وقالت له إنّه صوت يليق بالخلفاء، ولا يجوز أن يسمعه من هم دون الخلفاء. وأخبرته أنّها سمعت مِن قادمين من بغداد مرّة، أَنَّ هارون الرشيد أمر قبل موته بقليل، إبراهيم الموصلي أن يختار له أجمل ثلاث أغان، ليحفظها في سجلاّت من ذهب، وليحفظ أسماء مؤلّفيها وأسماء من غنّاها، فقال لها سمعت بهذا الخبر! ففوجئت وقالت له كيف تصلك هذه الأخبار؟ من يُبلغكَ إيّاها؟ فأجابها بأنه يهيم بأخبار بغداد.

وقالت له إنّ هذه الأغنية جديرة بأن تكون بين هذه الأصوات! فطار عقله، لكن ليس لأنّ هذه الأغنيةَ جديرة بأن تحفظ في سجلاّت من ذهب، فهذا أمر لم يستوعبه إطلاقاً ولم يعنِ له شيئاً، بل لأنّ هذه الأغنية أعجبت خُليدة الجارية المغنّية، خاصّة وأنّ هذه أوّل مرّة يُسمع أحداً صوتاً، منذ بدأت تجيئه الأصوات في الليل

وهو وحده في الصحراء منعزل عن الآخرين.

الحلم بدأ يصير حقيقة.

وقالت له لا تُنصت إلى ما يقوله والدُك عن الغناء، فوالدك معقّد من وضعه، وإنه لمن حقّنا وواجبنا كأرقّاء وعبيد وموالٍ، أن ننهض مما نحن فيه وأن نسعى إلى الأفضل، ومن حقنا وواجبنا أن ننهض بالغناء، حتّى نُقنع به الملوك والخلفاء، أو من لم يقتنع به منهم بعدُ، لأنّهم في غالبيّتهم القصوى يعرفون أنّ الحياة بدونه ناقصة وكئيبة، وأنّها بدونه لا تطاق، وأخبرته ما قاله إبراهيم الموصليّ مرّة لابنه إسحق. فقد غنّى ابنُ أحد الوجهاء يوماً لإسحق طالباً رأيه في غنائه، فقال له إسحق: أنصحك بألّا تغنّي، فلستَ صالحاً للغناء! فنهره والده لمّا خلا به وقال له: يا أحمق! الغناء أمر عظيم! وهؤلاء أغنياء ملوك، وهم يعيّروننا بالغناء، فدعهم يتهتّكوا به، ويُعيَّروا، ويَفتضحوا، ويحتاجوا إلينا، فننتفع بهم ويَبين فضلنا لدى الناس بأمثالهم!

وأخبرَتْه كثيراً من الأخبار التي لذّته والتي كان يجهلها. وأخبرته بأنّ أحد الخلفاء كان يقول، إذا سئل لماذا لا يقدر على الحجّ: يستقبلني أهل المدينة بصوتَيْ معبد بن وهب:

القصر فالنخل فالجمّاء بينهما

وَ

يوم تُبدي لنا قتيلةُ عن جيـ
دٍ تليعٍ تزينُه الأطواقُ

وها هو الخليفة يزيد بن عبد الملك يستخفّه الطرب، حين يسمع معبد النابغة يصنع لحناً يحاكي به خفيف ابن سريج، فيثب إلى جواريه ويقول لهنّ افعلن مثلي! ويروح يدور في الدار ويدُرن معه وهو يقول:

يا دار دوّريني
يا قَرقر امسكيني
آليتِ منذ حينِ
حقّاً لَتَصرِميني
ولا تواصليني
بالله فارحميني
لم تذكري يميني

ويظلّ يدور كما يدور الصبيان، وجواريه يدُرن معه، حتّى يخرّ مغشيّاً عليه، ويقعن هنّ فوقه مغشياً عليهنّ، فيسرع إليه الخدم، ويقيمون من كان على ظَهره من جواريه، ويحملونه وقد جادت نفسه أو كادت؟

وكانت خليدةُ تضحك من كل قلبها وهي تمثّل له كيف كان الخليفة يدور ومعه جواريه.

وقالت له ألم يُخبرك والدك بخبر عطاء بن أبي رباح، الذي رأى ابن سريج مرّة وعليه ثياب مصبوغة بالألوان الزاهية، وفي يده جَرادَة مشدودة الرِّجْل بخيط، يطيّرها ويجذبها إليه كلّما تخلّفت، فقال عطاء، يا فتّان! ألا تكف عما أنت عليه؟ فقال له ابن سريج: وما على الناس تلويني ثيابي ولَعِبي بجرادتي؟ فقال له تفتن الناس

أغانيك الخبيثة! فقال له ابن سريج وقد كظم غيظه، أسألك بالله أن تسمع منّي أغنية واحدة، وأنا أقسم بالله وبحقّ هذه البَنيّة (يقصد ابنته التي كان يحبّها والتي لم يشأ أن يكون لها أخ ولا أخت!) فإذا أمرتني بعد ذلك بالتوقّف عن الغناء توقّفتُ! فوافق عطاء غير متوقّع ما سيحلّ به، واندفع ابن سريج يغنّي بشعر جرير:

إنّ الذين غَدوا بلبّك غادروا
وَشَلاً بعينك لا يزال مَعينا
غيّضن من عبراتهن وقلن لي
ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا

فاضطرب عطاء اضطراباً شديداً، وأمضى نهاره لا يكلّم أحداً، يردّد فقط هذا اللحن، ولم يعد يتعرّض لابن سريج بعد ذلك بشيء يزعجه، ولا لأحد من المغنّين، ولا حتّى لأحد من المخنَّثين.

الله! قال معبد، متى أستطيع أن أفعل ذلك! أُحبّ أن أذهب إلى بغداد، وأن أعود منها راكباً على فرس أشقر، ومرتدياً ألواناً كربيع لبنان!

ثم قال لها، سأعلّمكِ صوتاً من هذه الأصوات التي تجيئني في الليل، عربون ثقة واعتراف بالجميل، وستغنّينه لأحد من الأشراف الذين يزورونكِ، أو الذين يدعونك إلى بيوتهم، فسُرّت كثيراً، ولم تعد تتمالك نفسها، وتسارعت نبضات قلبها بلا ضابط، وخافت، وكادت أن تغيب عن الوعي، فاضطرب هو لمّا رآها كذلك، وعادت ظنونُه من جديد تُشغل باله، خاف أن تدّعي ملك ما يعلّمها إيّاه، ثم قال في نفسه ما هي إلّا أغنية، ثمّ اطمأنّ قلبه أكثر

عندما قالت له وهي تستعيد قواها، سأوصلك إلى أبعد ممّا يمكن أن تتصوّر، هاتِ علّمني ممّا سمعت، وغداً في العقيق سأفاجئ السمّار بها، في السهرة التي يقيمها العزّي كلّ أسبوع، ويدعونني إليها أحياناً، سأُسعدك لأنّك تسعدني. وسيسألني بلا ريب عن مؤلّفها وسأخبره عنك، وعنده جارية يحبّها ويحبّ أن يعلّمها الغناء، بعد أن تتعلّم اللغة العربية، لأنها سبيّة من أرمينيا، وما زالت لا تتقن العربيّة جيّداً، وهو من شدّة حبِّه لها يخاف أن يسلّمها لأيّ كان من المعلّمين والمؤدّبين، لئلاّ يغريهم جمالها وهي مَنْ هي، جارية لا تعرف كيف تزن الناس حسب شرفهم، ولا تعرف أيضاً للإخلاص معنى. يودُّ أن يعلّمها النثرَ كاتب كابن المقفّع، فنثره مقتصد، دقيق، لكنّ ابن المقفع هذا فارسيّ شعوبيّ، يكره العرب بل يكره الإسلام حتّى، أليس هو الذي ادّعى أنّ في قدرته ابتداع آيات أجمل ممّا جاء في الكتاب الكريم، لذلك هو يفضّل الجاحظ، أبا عمرو عثمان، فهو متعصّب للعرب، وحذر من الفرس والروم الذين يدخلون في العربيّة، لكنّه يحبّ الثرثرة أحياناً وهو ينثر، كالمثقّفين المعجبين بأنفسهم والذين يحبّون سماع أنفسهم يتكلّمون، والحسنة العظمى في الجاحظ أنّه قبيح المنظر جدّاً، فلا خوف عليها منه. سيرسل سريعاً إلى البصرة أحداً ليجيء بالجاحظ، قبل أن يموت، لأنّه تقدّم كثيراً في السنّ (لكنّه استقرّ في بغداد من زمان!)، يريد من الجاحظ أن يقيم عنده ما شاء الله، حتى تتقن العربيّة، ثم يريد بعد ذلك أن يأتي بأبي نواس ليعلّمها الشعر، يريد أن يؤدّبها أدباً يُحدثُ في شخصيّتها تحوّلاً عميقاً وجذريّاً، لتصير كائناً ذا جوهر مختلف، يعرفه، ويحبّ أن تكون عليه. وهذا الجوهر يُختصَر بكلمتين: براءة وجرأة. براءة إلى أقصى حدّ وجرأة إلى حدّ. يريد منها أن تُقدم بحدود وأن تحمرّ خجلاً إذ تُقدم. هذا ذوقه. لكنّ أبا نؤاس لا يؤتَمنُ على شيء، لا على رجل ولا على

امرأة، ولا على غلام ولا على صبيّة، فكيف يأتمنه على هذه الجارية الرائعة الجمال؟ وقد قصد بغداد وأقام فيها زمناً حتّى وقع على هذه الجارية التي أعجبته، والتي قدّر أنها ذكيّة بما يكفي ليؤدبّها كما يشاء. فقال لها معبد: ومتى يريد البدء بتعليمها الغناء، قالت لا أظنّ أن الأمر سيطول إلى أكثر من سنة، تكون أنت قد أعطيتني عدداً من الأغاني التي تقنعه بأنّك المناسب لتعليمها الغناء.

وستقولين إنّ هذه الأغاني لي؟ سألها ذلك مبدياً لها بعض الشكّ، فقالت بكلّ تأكيد! وقد قدّمتُ لك الدليل على ذلك، فقد متّعتك بصدري وهذا ما لم يحدث من قبل! وليس عندي من دليل أقدّمه لك أقوى من هذا، أمّا إذا كنتَ تريد الولوج فهذا يساويك بالآخرين ولا يميّزك عنهم. فإن شئتَ فهيّا! وتمدّدت على البساط فاتحةً رجليها، مبديةً أسفل بطن نظيف، معَدَ بعناية لاستقبال الزائرين.

ثق بي قالت له. أما أحسستَ أنّ صدري لم يمَسَسْهُ غيرك، وأنني لم أُعطِ شفتيّ طوعاً لغيرك، فأيّ دليل أقوى من هذا؟ ليس عندي أقوى من هذا، فإمّا أن تقتنع به، وإمّا أن نتوقّف عن العمل معاً منذ الآن، حتى لا نصبح أعداء فيما بعد. ربما لم يتسنَّ لك أن تعلم أنّ الغيرة متفشّية في هذا الوسط، وأنّ الحسد، للأسف الشديد، من دواعي الإبداع. ألم يُخبركَ أحدٌ بخبر والدك والفرزدق؟ قال أعرف ما جرى بينهما عند مروان الذي أعتق والدي. قالت لا، بل هنا في المدينة عندما حجّ سليمان بن عبد الملك وحجّ معه الشعراء، فلمّا جاء المدينة تلقّوه بنحو أربع مائة أسير من الروم، فقعد يدفعهم إلى الوجوه وإلى الناس فيقتلونهم، حتى دفع إلى جرير رجلاً منهم، فدسّ له والدك سيفاً قاطعاً. كان

والدك يفضّل جريراً على خصمه الفرزدق لأنّ جريراً من بني كليب، حلفاء أسياده بني غُذَيب. والدك كان دائماً يقول: على العبد ألاّ يُخطئ في ولائه لأسياده. إذن جرير «أبان» رأس الأسير الروميّ، أي قطعه عن باقي الجسم بسرعة ووضوح. ولمّا جاء دور الفرزدق ودفع له سليمان أسيراً، دُسّ له سيف كليل لا يقطع، فضرب الأسيرَ فلم يصنع شيئاً، «فما حصّ شعرة» كما حدّث ابن سلاّم الجُمحيّ عن ابي يحيى الضبّيّ، وكأنّه لم يَمَسّه، فضحك الحاضرون منه ومن سوء ضربته، وشَمَت به قوم جرير وأنصاره. لكنّ المشكلة ليست هنا، بل في أنّ الفرزدق بلغه، أو ظنّ، أنّ والدك هو الذي دسّ السيف الكليل له، لذلك حقد عليه. أمّا والدك فقد نفى لي ذلك نفياً قاطعاً، لا حبّاً بالفرزدق بل لأنّه ناوله سيفاً من هذه السيوف الملقاة قربه، وقد فعل ذلك على مرأى من جميع الذين كانوا هناك، ولكنّه سُرّ ولا شكّ حين لم يقطع سيفُ الفرزدق، لأنّ مواليه كانوا غضبوا عليه لو قطع. وتفسيري أنا لِمَا جرى هو أنّ الفرزدق لم يُرِدْ أن يقطع رأس الأسير، ولكنّه كان غير قادر على رفض ما طلبه منه الخليفة سليمان، الذي قرّر لا شكّ أن يقتل الأسرى، ليس فقط لأنهم غير قادرين على شراء رقابهم، بل لسبب آخر خفيّ لا يدركه إلّا من كان راسخاً في العلم، وهؤلاء قلّة قليلة: يعرف سليمان لا شكّ أنّ عمرو بن العاص أشار على عمر بن الخطّاب بشقّ قناة السويس لربط البحر المتوسّط بالبحر الأحمر، فرفض عمر رفضاً قاطعاً، وقال له أتريد أن تدخل مراكب الروم بحر الحجاز ويخطفوا الناس من مكّة والمدينة؟ كان سليمان يعرف أنّ الروم يدركون أهميّة هذه القناة من أجل السيطرة على الجزيرة العربيّة بكاملها.

قتل سليمان أسرى الروم إذن، وكان من غير الوارد ألّا يقتلهم، وما

من أحد يدفع غراماتهم ويشتري رقابهم.

لكنّ الفرزدق لا يحسب هذه الحسابات. الفرزدق في مبادرته هذه كان رجل أخلاق لا رجل سياسة، وذلك بدليل أنه قال ردّاً على الشامتين به، وعلى هجاء جرير له وتعييره بالجبن:

لم ينبُ سيفي من رُعب ولا دَهَشٍ
عن الأسيرِ، ولكنْ أَخَّرَ القدرُ
ولن يُقدِّم نفساً، قبل مدّتها،
جمعُ اليدين، ولا الصمصامةُ الذَكَرُ

(جمع اليدين: القبض على السيف باليدين الاثنتين. الصمصامة: السيف. الذكر: المتين).

بل أكثر من ذلك فحين عيّره جرير بأنه «مُحدَث غيرُ صارم» أي أنه حديث العهد بحمل السيف ولم يتعوّد القطع به، (وهذه كانت من شيم الرجل الأولى)، ردّ عليه الفرزدق بقوله:

ولا نقتلُ الأسرى، ولكن نفُكّهمْ
إذا أثقل الأعناقَ حَملُ المغارمِ

نحن نفكّ الأسرى، أجابه الفرزدق، إذا عجزوا عن دفع الغرامة ليفتدوا بها أنفسهم.

أمّا والدك فكان دائماً يقول إنّ الرجل الحرّ قادر على مثل هذا التصرّف النبيل، لا العبد. لكنّ الفرزدق لم يكن يتحمّل أحداً من

أنصار جرير بالمطلق، فكيف إذا كان مولى عتق وعبداً أسود! ثمّ إنه كان من مصلحته أن يكون مولى من موالي قوم جرير، دسّ له هذا السيف الذي لا يقطع، وذلك حتّى يأمن غضب الخليفة، لأنّ مخالفة الخليفة لا تحمد عقباها.

لكنّ الخليفة أمر، بعدما ضحك وضحك معه الناس، بأن يُعطى سيفاً آخر قاطعاً، فأُعطي فقَطَع.

انتبهْ يا معبد! قالت خُلَيدة، فإمّا أن تثق بي وإمّا ألّا تثق. كثير من المغنّين والشعراء والمتأدّبين على أنواعهم، يجيئون لعندي ويأخذون بتحقير بعضهم البعض، ثمّ يحتكمون إليّ، فيمنعونني عن عملي. ولو كانوا يدفعون لي أجور هذه الليالي، التي يقبعون طَوالها في حضني يشكون إليّ، لكنت رضيت، لكنّهم يأكلون وقتي وجهدي ولا يدفعون لي أجراً، ولا هديّة، كأن الاستماع إليهم ساعات طويلة، والحكم في أمورهم المستحيلة، ليس عملاً، فهم لا يعتبرونني أعمل إلّا إذا فتحت لهم ساقَيّ، وأفرغوا أسافل بطونهم فيّ. بينما تراهم يدفعون للأطباء أجر كلّ كلمة يُسمعونهم إيّاها. أنا أَقدَرُ على شفاء هؤلاء من أطبّائهم، لأنّ هؤلاء الأطباء يطبّقون القواعد التي يستنبطونها من طُرُق معاملتي لهم.

وبعد تأمّل طويل قال لها معبد: اتفقنا، وثقتُ بكِ! فقالت له لم تثق بي إلّا لأنك مضطرّ، ليتك تثق بي وحسب! على كلّ لا فرق بين الموقفين فيما يهمّنا الآن نحن الإثنين، ولن تندم.

وفي تلك الليلة علّمها الأغنية الأولى. وظلّت تردّدها غير مصدّقة، حتّى مطلع الفجر. وبقي عدّة أيّام يقيم عندها، ويطارحها (يعلّمها)

الغناء، حتّى حفظت من تلحينه أربع أغان. وقد ردّدت هذه الأغاني عدّة مرّات، قبيل ذهابها للمشاركة في لقاء العزّي الأسبوعي، الذي دُعِيت إليه هذه المرّة.
ردّدتها قبيل ذهابها ليطمئنَّ قلبها.

أرجو أن أعود إليك بالخبر الجميل، قالت له وهي خارجة في صحبة خادم العزّي، تستطيع أن تنتظرني هنا، نَمْ إن شئت وأُوقظك حين عودتي.

لكنّها لم تعد تلك الليلة.
باعها صاحب سيّدها، وهي عبدة لا تملك أن تقول لا، ولا تملك أن تقول نعم.

لقد ذهب مولاها إلى بلاد فارس قاصداً الغزو، وذهب معه كثير من قومه، وخلّفها وحدها في بيت له، تقيم فيه وتهتمّ به إلى حين عودته، إن عاد، لكنّه أوكل أمرها إلى صاحبه العزّي، وقال له، إن أطلتُ بقائي مسافراً، تصرّف بها كأنها جاريتك وملك لك، وإن بعتَها فلا تبعها إلّا بسعر مناسب، ولرجل شريف النسب في قلبه شيء من رحمة. وطال غيابه. ثم جاء الحجاز خبر مقتله!

وكان صاحبها الجديد لا يوليها أيّ أهميّة، وذلك على الأرجح بسبب صيتها الذي كان لا يروق له، فتركها تعيش وحدها ولم يشغل نفسه بها. لكنّه لمّا بلغه أن صاحبه البغداديّ خُزَيمة بن خازم، وهو أحد أشراف بغداد وأحد المقرّبين إلى الخليفة الأمين، يريد زيارته، وكان يعرف أنّه يحبّ الغناء حبّاً لا يوصف، دعا له ما استطاع من الجواري المعروفات بالغناء الحسن، وغنَّيَنَ ظاهرات

بدون ستارة تحجبهنّ عن الضيوف. وكانت هي بين المدعوّات.

مَنْ سيّدكِ؟ سألها خُزَيمة بن خازم، بعدما غنّت أوّل أغنية أُمرتْ بأن تغنّيها، ولم تكن من تلحين معبد، فغنّتها بكلّ ما فيها من إرادة للنجاح، وبشيء من الاضطراب أيضاً، لأنها لم تكن واثقة من صحّة أدائها، كما كانت واثقة من صحّة أدائها لأغاني معبدْ بن رباح، فأجابت: سيّدي ذهب إلى الغزو مع قومه جميعاً، وبقي هناك في البلاد التي مَنَّ اللهُ عليه بفتحها، وولاية أمري صارت من حق العزّي، سيّدي ومولاي، الذي منّ الله عليه بالكثير من العبيد والجواري والغلمان، فأنا وحدي الآن أدير شؤوني برضاه وبسماح منه، فقال للعزّي: بِعْني إيّاها إنّني أحببت غناءها، وكان العزّي لا يمكنه أن يرفض طلباً للضيف البغداديّ، الذي يستشيره الخليفة ويطلب نصيحته في الأمور الخطيرة، وهو الذي له ما له من صلات بكبار رجال الدولة في بغداد، والذي كان والي البصرة في أيّام الرشيد، ووالي الجزيرة في أيّام الأمين، فقال له العزّي: هي لك بما لي من حقّ عليها.

وفي آخر السهرة، قال لها العزّي هات أطربي لنا ضيفنا يا خليدة، فقالت إذا سمح سيّدي فإنّي سأغنّي له أغنية لم يسمعها أحد، وقد أخذتها منذ قليل عن فتى يحبّ الغناء، قال العزّي: غنّها! واندفعت تغنّي «بجماع قلبها» (بكلّ قلبها)، وهي تفكّر بمعبد الذي ينتظرها في بيتها. غنّت:

فلو كان لي قلبان عشتُ بواحدٍ
وخلّفتُ قلباً في هواكِ يُعذَّبُ

فطرب خُزَيمة بن خازم طرباً ذهب بعقله، وقام ولم تنتهِ الأغنية

بعد، ووضع لحيته فوق الشمعة التي كانت تضيء المكان وأحرقها، وراح يصيح: الحريق الحريق يا أولاد الزّنا! فظنّ الناس أنّه سكر، وهو لم يكن كذلك، بل أفقدته هذه الأغنية عقله لشدّة ما طرب. لكنه بعد أن عاد إلى رشده، أمرها بأن تتوقف عن الغناء، وطلب من مضيفه ألا يطلب منها أن تغنّي بعد الآن، فتعجّب الناس من سلوكه وخلوّ هذا السلوك من أي منطق، فكيف يطرب لغنائها إلى هذا الحدّ ويُسكتها عن الغناء في الوقت نفسه؟ لكنّه هو كان يعرف تماماً ما يفعل. خاف أن تعيد الصوت (الأغنية) فيحفظه أحد من الموجودين في الجلسة.

لم يكن يتوقّع، هو الآتي من بغداد، أن يقع على جارية تغنّي أغاني بهذا المستوى الراقي. وقع على كنز وكان عليه الحفاظ عليه!

وبعد أن انتهت السهرة، جاؤوا بمن كتب عقد البيع، ثم شدّ خُزَيمة ابن خازم ومن معه رحالهم ومشوا. ولمّا حاولت خُليدة أن تستمهل مالكها الجديد، لتمرّ ببيتها، ولو لحظة، لتأتي بأشيائها، نهرها قائلاً لها:
أنا سيّدكِ الآن!

خاف أن تفعل شيئاً، خاصّة أنه سمع عنها ما يكفي في هذه السهرة، لتكثر ظنونه فيها. لكنّه وعدها بالحصول على كلّ ما تريد من ثياب وحليّ وزينة وعطور وما إلى ذلك، فور وصولها إلى بغداد.

تلبسين لباس جواري بغداد، قال لها، فما لكِ بهذه الألبسة هنا؟

طبعاً لا يمكن أن تقول له إنّ رجلاً ينتظرها في البيت، خاصّة وأنّه

بات الآن من مصلحتها ألاّ تُظهر، بلا داع، ما كانت عليه، وبات من مصلحتها أن تُلهي صاحبها الجديد عمّا كانت عليه، في انتظار ما ستتكشّف عنه الأيّام.

وهكذا نزحت خليدة والغصّة في قلبها، مع أنّها كانت تحبّ بغداد، وتحبّ الإقامة فيها، بل إنّ هذا ما كانت تحلم به. كانت تحلم أن يشتريها سيّد من هناك، حيث الحياة الراقية والعيش الهيّن، وحيث يفصل الجارية مثلها عن قصر الخليفة أغنية واحدة فقط، يبلغ خبرها الخليفة وتعجبه، لتصير سيّدةَ الغناء، ومقصدَ عشّاق الأغاني، من أرستقراطيّة الأمبراطوريّة الغنيّة الشاسعة الواسعة، التي لا تغيب عن أطرافها الشمس.

ونزحت وفي قلبها معبد بن رباح، لكنها لن تنساه، وسوف يغفر لها خطأً لم تقترفه، وسوف يعرف بلا شكّ كيف جرى ذلك، وأنّ ما جرى ليس غشّاً ولا خيانة (وهذا أمر كان يخاف أن يقع). وسوف تفعل كلّ شيء من أجله. وسوف تغنّي أغانيه بكلّ جوارحها، حتّى يذيع صيته في قصور بغداد كلّها، ويبلغ قصر الخليفة بالذات!

لكنّ سيّدها الجديد كان بخيلاً، على غير ما توقّعت. كان بخيلاً بأغانيها. فلكثرة ما أحبّ هذه الأغاني، كان يخاف أن يطّلع عليها أحد، أو أن يسرقها أحد، فينشرها في المجالس الأخرى في بغداد، أو يدّعيها لنفسه ويتصرّف بها على هذا الأساس. كان لذلك لا يدعو إلى مجلس غنائه، عندما كانت خليدة تغنّي، إلّا خواصّ صحبه ممّن كانوا يحبّون الغناء، دون أن يكون بينهم من يستطيع «أخذ» هذا الغناء وحفظه وترداده.

أحسّت خليدة سريعاً في بغداد بأنها وقعت في الفخّ، خاصّة أنّ صاحبها الجديد استأثر بها بدون أن يُشعل فيها رغبتها. كانت تقدّره وتحترمه، لكنّها لم تستطع أن تحبّه، وكان هو يهواها و«يقع عليها» بعد كلّ غناء، فتكره رائحةَ فمه وتكره أيضاً رخاوة قضيبه. كان يحثّها دائماً على الاهتمام به (أي بقضيبه) حتّى يشتدّ ويقسو، وكان يضربها إذا ما تقاعست. فمرضت وماتت. لكنها علّمت، قبل أن تموت، جواريه الأخريات كلّ الأغاني التي كانت تعرفها، وبشكل خاص بالطبع أغاني معبد بن رباح التي كان يجنّ بها سيّدها.

لكنّ هؤلاء الجواري لم يكنَّ يتمتّعنَ بالموهبة نفسها، فكان سيّدهنّ خُزَيمة بن خازم يحزن ويبكي على فقد خليدة، وكان رغم انشغاله بأمور الخلاف المنذر بحرب طاحنة بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون، يحلم بلقاء معبدْ، ويصرّح بذلك في كلّ المجالس، إلى أن تناهى ذلك إلى مسمع معبد بن رباح ذات يوم، وهو ما زال هناك في الحجاز، يجترّ ألمه لاختفاء خليدة.

لم يصدّق معبد بن رباح ما سمعه من بعض القادمين من بغداد إلى الحجاز، للحجّ أو للتجارة أو للاثنين معاً، وأحسّ أنّ الفرصة سنحت، فجهّز نفسَه سرّاً، ومشى إلى بغداد للقاء خُزَيمة بن خازم وخليدة. لم يخبر أحداً حتّى لا يعرف أسياده. لم يُخبر حتّى زوجته الروميّة أمّ ابنته السوداء. ذهب ليرعى الغنم والجِمال، فترك الغنم والجمال لعبد كان يرافقه، وركب ناقةً انطلق بها واختفى!

ولم يكن معبد بن رباح يدري بالطبع ماذا يجري في بغداد، ولم يكن يتصوّر ما كان ينتظره هناك.

وفي الطريق إلى بغداد اشتدّ عليه الحر والعطش، حتى انتهى إلى خباء (خيمة) فيها عبد أسود، وفيها جرّة مملوءة بالماء المبرّد منذ السّحَر، فطلب من العبد شربة ماء فرفض العبد أن يسقيه، فطلب منه أن يسمح له بدخول الخباء ليحتمي فيه من هذا الحرّ القاتل، فلم يسمح له. فما كان منه عندذاك إلّا أن أناخ ناقته واحتمى بظلّها ما استطاع، ثمّ راح يترنّم بأغنية علّه ينسى عطشه وينسى هذا الحرّ الشديد، فما كان من العبد إلّا أن اقترب منه، وحمله من دون أن يستأذنه إلى الخباء، وقال له أنا عبدك تحت أمرك، ماذا تريد أن تشرب؟ هل تريد شراب اللبن البارد المسحّر؟ قال له معبد: ماذا حلّ بك، تعرض عليّ شرب اللبن، وقد رفضت أن تسقيني شربة ماء؟

وظلّ العبد يسقي معبد من كلّ نوع كان في خبائه حتى ارتوى.

ولمّا جاء وقت الرحيل، قال له العبد إنّ الحرَّ شديد وإنّي أخاف عليك من العطش، فَأْذَنْ لي أن أرافقك ومعي قِربة ماء أعلّقها في عنقي، وأسعى بها معك. وهكذا رافقه العبد، وظلّ يسقيه كلما عطش، وظل معبدْ يغنّيه كلّما شرب، حتى نفد ماء القربة وعاد العبد إلى خبائه!

هذه علامة جيّدة، قال معبد بن رباح في نفسه! فإذا كانت الطريق إلى بغداد تخبّئ هذه المفاجآت، فكيف الأمر إذن في بغداد بالذات! ونهز الناقة وصدح:

القصرُ والنخلُ والجمّاءُ بينهما
أشهى إلى القلب من أبواب جَيْرونِ

وقال إني سأبلغ بغنائي مكانة لم يبلغها ابن سُريج ذاته، ولا معبد العظيم سَمِيِّي، ولا حتّى إبراهيم الموصلي!

وبينما كان الفرح يغمره، والأمل يفتح أمامه الآفاق، جاءته فكرة جميلة هي أن يذهب إلى حيث كان يعيش مجنون ليلى، قيس بن الملوّح العامريّ، الذي أحبّ ابنة عمّه حبّاً ذهب بعقله حتّى مات، وأن يتقفّى أثره وأن يلتقي بالذين عرفوه، علّه يتوفّق بأخبار نادرة عنه، أو يقع على شعر له لم يسمعه أحد بعدُ، فيغنّيه ويُدهش به أهل بغداد عاصمة الأمبراطوريّة، فعاد بعد مسير ساعات يسأل العبدَ في أيّ الفيافي كان قيسْ يهيم بعد أن حُرم من ليلى، فقال له العبد: يمرّ بي مجانين كثيرون، وكلّ واحد منهم مجنون بليلى، ولا أعرف من منهم مجنون ليلى الذي تقصده، على كلّ اذهب في هذا الاتجاه فربما تجد آثارهم هناك.

ثم اهتدى إلى منازل بني عامر، قوم قيسْ، فإذا النِّعم بادية عليهم، وفي منازلهم الخير الكثير، فسأل رجل منهم، تبدو آثار النعمة على وجهه: أتعرف شيئاً عن مجنون ليلى؟ وهل تروي من شعره شيئاً؟ فأنا مغنّ من الحجاز قاصد بغداد، أبحث فيها عن شريف مغرم بأغانيّ، مررت بطريقي إلى هنا أبحث عن أخبار لقيس، وعن أشعار لم يعرفها أحد. فأجابه الرجل العامريّ: وهل انتهينا من رواية شعر العقلاء حتّى نبدأ برواية شعر المجانين؟ فالمجانين كثيرون! فقال معبد بن رباح: لا أقصد هؤلاء بل أقصد مجنون بني عامر الذي قتله العشق! قال الرجل: بنو عامر أغلظ قلوباً من أن يقتلهم العشق، فتّش عن أرقّاء القلوب في قبائل أخرى! ثم قال له أخيراً: رجُلان ما عُرفا في الدنيا وما وُجِدا قطّ إلّا بالاسم، وهما مجنون بني عامر، وابن القِرِّيّة الذي وُصِفَ بأنه أحد بُلغاء الدهر، فقد

وضعهما الرواة واخترعوهما!

ثمّ التقى معبد بن رباح أعرابيّاً من بني عامر بن صعصعة، فسأله عن المجنون العامريّ، فقال له: عن أيّهم تسألني؟ فإنّ فينا كثيرين رُمُوا بالجنون، فعن أيّهم تسأل؟ قال معبد عن الذي تغنّى بليلى، قال كلّهم كان يشبّب بليلى ويتغنّى بها! عُدَّ معي:
مزاحم بن الحارث المجنون:
ألا أيّها القلبُ الذي لجّ هائماً
بليلى...
مُعاذ بن كليب المجنون:
ألا طالما لاعبتُ ليلى..
مهديّ بن الملوّح المجنون.. وآخرون وآخرون.

إسمع! قال الأعرابي العامري: ما ترك الناس شعراً مجهول القائل، قيل في ليلى، إلّا نسبوه إلى المجنون.

لكنّ معبد ابن رباح لم ييأس، فظلّ يسأل حتّى وقع على ما يبغيه، إذ التقى الرجل الذي اعترف بأنّه والد قيس، لا قيس الذي مات، بل قيس آخر يشبهه في كلّ شيء، لأنّ مجانين العشق يتشابهون، حيث إنّهم ضحايا منطق واحد. ثمّ إنّ الناس تجمع أخبارهم وأشعارهم، وتنسبها إلى عاشق واحد!
غريب، قال معبد بن رباح!

ثمّ عرّفه بنفسه، وأخبره عن مقصده، فقال له الوالد ولكنّ الأوضاع في بغداد اليوم صعبة جدّاً حسب ما يردنا من أخبار، والحالة تُنذر بحرب ربما بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون أمير

خراسان، ففوجئ معبد لكون الوضع على هذه الخطورة، لكنّه أجاب بمقطع من أغنية شعبيّة يردّدها الناس في بوادي الشام:

نِمْشي عَلَى ما يْقَدِّرَ الله
والرّايِدُو رَبَّكْ يِصِيرْ
لن يردّ معبد شيئاً عن مبتغاه.

ثمّ حرص الوالد، قبل أن يدلّه على المكان الذي يلجأ إليه ابنه، أن يُخبره بأنّ ابنه ليس مجنوناً ولكنّ به «لَوثة»، فقد ذهب عقله عندما أحبّ «امرأةً من قومه» كانت في الحقيقة لا تطمع في أحد مثله، ولمّا فشا أمرُه وأمرها كره أبوها، «على عادة العرب»، أن يُزوّجها منه، فزوّجها من غيره، فضاع عقله وهام في الفيافي حزناً عليها، «فحبسناه وقيّدناه» قال الوالد، وجعل يعضّ لسانه حتّى «خِفنا» أن يقطعه، و«خِفنا» أن يقطع شفتيه، فخلّينا سبيله، وهو يهيم الآن في هذه الفيافي مع الوحوش، لكنّنا نوصل له كلّ يوم طعاماً يوضع حيث يراه، فيأتي ليأكله عندما نبتعد. ثمّ دلّ الوالدُ معبدْ على شابٍّ من الحيّ كان صديقاً حميماً لقيس، وموضع ثقته المطلقة، وكان هو الذي يأخذ عنه أشعاره ويحفظها ويرويها بأمانة مطلقة، لا يزيد عليها حرفاً ولا يُنقص منها حرفاً، وما من شاعر كان مرافقُه وحافظُ شعره أكثرَ أمانةً من هذا الشاب وأقوى ذاكرةً، منذ امرئ القيس، جدَ الشعراء العرب، وحتّى اليوم. فأتاه معبد وسأله أن يدلّه عليه، فقال له إنّه، أي قيس، لايأنس إلّا به. وقال له: إنْ كنتَ تريد شعره فكلّ شعر قاله حتّى مساء أمس هو معي، لأنني أزوره دائماً، وآخذ عنه كلّما قال شيئاً، ولا يأخذ عنه أحد غيري، وأنا ذاهب إليه غداً، فإن كان قال شيئاً أتيتُك به. فقال معبد بن رباح بل أريد أن تدلّني عليه لأراه بنفسي وأسمعه بأذني. فقال له إن دلّيتك عليه ونفر منك فسينفر منّي ويذهب شعره، لأنّه

يرفض أن يرى أحداً غيري. فألحّ معبد عليه، ورجاه وأبى إلّا أن يدلّه عليه، فدلّه أخيراً بعد كلّ هذا الإلحاح وقال له: اطلبه في هذه الصحاري إلى اليسار، على مسافة نهار أو أقلّ على مطيّتك، فإذا رأيتَه فادنُ منه مستأنِساً، ولا تره أنّك تهابه، فإنّه على كلّ حال سيتهدّدك ويتوعّدك بأنّه سيرميك بحجر يقتلك به، فلا تخَف! بل اجلِسْ قريباً منه صارفاً بصرك عنه، والحَظْهُ أحياناً، فإذا رأيتَه قد سكن وهدأ ولم يعد ينفر منك، أَنشِده شعراً غزلاً وهكذا كان، فمضى معبد بن رباح في طلبه، وظلّ من أوّل الصبح حتى العصر يستدلّ عليه حتى وجده جالساً على رمل، وقد خطّ فيه بإصبعه خطوطاً، فدنا منه بطبيعيّة وبدون أي توتّر، فنفر منه «نفور الوحش من الإنس» وكان إلى جانبه أحجار فقبض على واحد منها وانتظر، فظلّ معبد متمالكاً نفسه ومحافظاً على هدوئه، وبقي قيس قابضاً على الحجر ومستنفراً، كأنه يريد قذفه به أو كأنه يريد الانصراف، إلى أن طال جلوس معبد، وسكن قيس وأقبل من جديد يخطّ بإصبعه في الرمل خطوطاً، ثم يمحيها ويخطّ غيرها، فهمهم معبد عندئذ لكن بصوت مسموع:

وإذا ما عَثَرتْ في مرطِها
نهضتْ باسمِي وقالت يا عُمَرْ

فانتبه قيس فسكت معبد، ثم بعد لحظات من الصمت قال قيس، يصحّ في عمر بن أبي ربيعة ما قاله أبو نواس:

دارتْ على فتيةٍ دانَ الزمانُ لهم
فما يُصيبُهمُ إلّا بما شاؤوا

كأنّ عمر بن أبي ربيعة، أضاف قيس، كان سيّد أيّامه وسيّد دهره، لا يأتيه من الأيّام إلّا ما أراد، فإذا عثرت محبوبته بثوبها الطويل،

ووقعت على الأرض، ذكرت اسمَه لتقوى به وتنهض، أمّا أنا فقد أصابني الدهر بما شاء، ونكبني وكنتُ ما زلتُ فتى أوّل شبابي، وها أنا كما تراني أمضي العمر أتنقّل بين هذه «الإيفاع» المشرفة على هذه السهول (اليفع هو كل مكان مُشرف)، علّ نظري يقع على ليلى، وأقول الشعر لأتداوى به من حزني على فراقها:

وما أُشرِفُ الإيفاعَ إلّا صَبابةً
ولا أُنشِدُ الأشعارَ إلّا تَداوِيَا

ثمّ صمت قليلاً قبل أن يتنفس تنفسَ من يُخلي الأُفق من الهواء وقال:

تناءيتِ عنّي حينَ لا ليَ حيلةٌ
وخلّفتِ ما خلّفتِ بين الجوانحِ
آه يا ليلى كم خلّفت وراءك من ألم بين الضلوع!

وبينما هو كذلك، بدتْ في البعيد ظبية تركض هاربةً من وحش يلحق بها ويريد افتراسها، فوثبَ خلفهَا، وظلّ يركض مبتعداً حتّى صار كنقطة سوداء، ثم اختفى نهائيّاً. وانتظره معبد بن رباح أن يعود لكنه لم يعد، فقام بعد أن يئس من عودته وتبعه ماشياً في إثر خطاه، حتّى وصل إلى واد كثير الحجارة فوجده ميّتاً قرب قبر، ورأى الوحشَ بعيداً عن القبر مبعوجَ البطن، ممزّقاً، ولم يرَ الظبية ولم يقع على أثر لها، فارتاب في الأمر وتساءل عمّا جرى، ثمّ جاءه أن يفتح القبر، ففتحه ووجد فيه قطع الظبية مجموعةً إلى بعضها، ومدفونة فيه بحنان.

رأى قيس الوحشَ يفترس الظبية، فظلّ يصارعه حتّى قتله، ثمّ شقّ بطنه وسحب منه قطع الظبية، وجمعها إلى بعضها ما استطاع،

حتّى بان شكلها، ودفنها في هذا القبر الذي حفره لها.

ونظر معبد بن رباح في يديّ قيس، فرأى عظامهما محطّمةً نتيجة صراعه الضاري مع هذا الوحش.
كانت الظباء تذكّر قيساً بليلى.

ثم أخبر معبد أهله، فجاؤوا إليه وحملوه وغسلوه وكفنوه ودفنوه. وشهد معبد بن رباح بعينه كيف أنّه لم تبقَ فتاة إلّا بكته، ولا فتى، ورأى والد ليلى يبكيه أيضاً، ويقول إنّ الذنب ليس ذنبه، وإنّ هذا ما يريده الناس، ولولا ذاك لما منعها عنه وأعطاها لغيره. وكان من وقت لآخر يصرخ من أعماقه ويقول: لستُ قاتلاً!

وتابع معبد بن رباح طريقه إلى بغداد، متأثّراً بما رأى، وتشغل ذهنَه هذه الأبيات التي سمعها مباشرة من قيس، والتي يحاول أن يجد لها ألحاناً، وينتظر شيطان الغناء أن يجيئه بالألحان المناسبة، ليسحر بها بغداد.

وحين وصل إلى بغداد باع ناقته، ليؤمّن بثمنها تكاليف الأكل والشرب والإقامة.

وكان من الطبيعيّ أن يكون أوّل شيء يسأل عنه في هذه المدينة هو «الفتيان»، فقد سمع عنهم وأُغري بأخبارهم، فهم يدينون بـ«الفتوّة»، و«الفتوّة» مجموعة خصال محبّبة منها الكرم واستضافة الغرباء والاحتفال بهم. فما إن يَروا غريباً حتى يُسرعوا إلى إطعامه وقضاء حوائجه.

وهم يعملون أثناء النهار، ثمّ يشترون بما تجمّع لديهم من مال، النبيذَ والطعام والفواكه، فإذا وردهم مسافر استضافوه، وأطعموه وأشربوه وأنزلوه مكاناً ينام فيه، وإن لم يجئهم أحد أكلوا وحدهم، ورقصوا وسهروا حتى آخر الليل، ثم عادوا إلى أعمالهم في الصباح.

سأل عنهم معبد بن رباح أين يجتمعون فقيل له: عليك بالحمّامات، لكن نحو باب الشام حيث يتواجدون، فقصد أحد هذه الحمّامات ودخله فإذا فيه جماعة منهم، فأنس كثيراً بهم، وانبسط كثيراً، وأخبرهم أنه غريب، فسرّوا به أكثر من سروره بهم، وانبسطوا بشكل لا يوصف، ثمّ بعد أن تحمّموا وارتاحوا وتمتّعوا واسترخوا، خرجوا وهو معهم يحيطون به كأنه كائن نادر، وقصدوا منزل أحدهم، فقعدوا وجاؤوا بالطعام وأكلوا، ثم بعد ذلك غسلوا أيديهم وجاؤوا بالشراب فشربوا. هنا قال لهم معبد ألا تريدون سماع بعض الأغاني؟ قالوا بالتأكيد، لكنّنا لم نستقدم أحداً، وليس بيننا من يجيد الغناء. وأخبروه بالمناسبة أنّ الخليفة الأمين يرسل لهم بعض المغنّين أحياناً، مع تمنيّاته الطيّبة، بل إنّه زارهم يوماً متخفيّاً، وكان معه كبير المغنّين إبراهيم بن ماهان، الذي عَرّبَ اسمَه وصار إبراهيم بن ميمون، وقد نصحته بذلك عصبة الفتيان في الموصل، التي انتسب إليها وصار عضواً فيها. وكان إبراهيم قد هرب من أخواله الذين حاولوا منعه من الغناء، لأنّ الغناء في زعمهم ليس فنّاً شريفاً، وهم من أصل فارسيّ شريف، قد هربوا من فارس إلى الكوفة من جور والٍ أمويّ. وقد هرب إبراهيم من أخواله بعدما قسوا عليه، وقصد الموصل حيث انضمّ إلى الفتيان، ونمى حبّه للغناء بينهم، وصنع ألحاناً خصّيصاً لهم اشتهرت فيما بعد، وهو ما زال يغنّيها لنا هنا في بغداد كلّما زارنا من وقت إلى آخر.

وكان معبد يُنصت بانتباه شديد.

وأخبروه أنّ ثروة إبراهيم بن ميمون الموصليّ كانت هائلة لا تقدّر! فقد باع جاريةً واحدة بأربعة وعشرين ألف دينار. تبني مدينة بعشرة آلاف دينار! إنّ قصر مروان الذي هدمه العبّاسيّون في حرّان كلّفه بناؤه عشرة آلاف درهم فقط فهل تتصوّر مقدار ثروته. فسُرّ معبد كثيراً بهذه الأخبار التي شجّعته على إعلان ما يخبّئه حتى الآن وهو أنّه يغنّي، وأنّ الألحان أكثر ما تجيئه في الليل وهو نائم، فتحمّسوا وصفّقوا وأحضروا له العود فوراً وجلسوا ينصتون.

وقبل أن يبدأ بالغناء، أخبرهم ببراءة الجاهل، أنّه جاء إلى بغداد باحثاً عن خُزَيْمة بن خازم، الذي يعشق غناءه. ولم يكن يعرف شيئاً عن جغرافية الوضع السياسيّ في بغداد، ولا من كان مع الأمين ولا من كان مع أخيه المأمون، فلم يجبه الفتيان بشيء، ولم يدلّوه على منزله، وتصرّفوا كأنهم لم يسمعوا بهذا الاسم. ثم راح معبد يغنّي، وبدأ بـ«هنيّات» معبد الشهير، أبي عبّاد، مولى بني قطن. والـ«هنيّات» هي الأراجيز، وهذا نوع من الغناء مطوّل وممطوط، فكأنّما غنّى للحيطان، فما سُرّوا به على الإطلاق، فقال في نفسه إنهم ربما لا يحبّون عمل معبد، لأنه يثقل عليهم لكثرة صنعته وشدّته وصعوبة مذهبه، فراح يغني للغريض، المغنّي الشهير، الذي كان ينتقد أسلوب معبد الممطوط، ويجعله أسرع، فإذا هو عندهم كلا شيء، ثم راح يغني لابن سريج الذائع الصيت والأشهر من نار علىٍ علم، فلم يُحرّك فيهم شيئاً، فزاد عجب معبد، ثمّ انتقل إلى حَكم فلم ينَل أيّ نتيجة، فقال في نفسه حينذاك، لم يبقَ إلّا أن أغنّي لهم من ألحاني، فربّما كان هذا ما ينتظرون ويتوقّعون على أساس أنني موضوع التكريم اليوم، فغنى من ألحانه شعراً سمعه من

قيس رغم خوفه أن يسرق أحد هذه الألحان وينسبها لنفسه، فظلّوا لا يُبدون أيّ إعجاب وكأنهم تماثيل من خشب، فحار في الأمر، وتضاعفت حيرته حتّى بلغت الذروة، حين انصرفوا عن سماعه بالكامل، وراحوا يقولون فيما بينهم وكأنّه هو غير موجود:
«ليت أبا منبّه قد جاءنا!».

فتساءل عمّن يكون أبو منبّه هذا الذي افتقدوه، بينما هو يحاول أن يغنّي بكلّ ما يملك من طاقة، ليطربهم وينال إعجابهم، ثم توقف عن الغناء وانزوى من الخجل وتمنّى أن تنشقّ الأرض وتبتلعه، وصار قلبه يضرب حين صاح أحدهم وقال جاء أبو منبّه! وقال في نفسه إن أبا منبّه سيفضحه وسيحجّمه! ولعن الساعة التي جاء فيها إلى بغداد، وتذكّر نصيحة والده وإصراره عليه أن يتقن الشعر لا الغناء، لأنّ الغناء مذلّ وأمّا الشرف فهو للشعر، لكنّ شيطان الشعر لم يكن يجيئه، بل كان الذي يجيئه شيطان الغناء، وكان يسمع أصواتاً في الليل وهو نائم لا أشعاراً.

كان أبو منبّه شيخاً، عليه خفّان أحمران، كأنّه جمّال، فوثبوا جميعاً إليه وسلّموا عليه وقالوا له:
«يا أبا منبّه تأخّرتَ علينا!».

وقدّموا له الطعام، وقدّموا له الفواكه، ثم جاؤوه بالماء والصابون وغسل يديه، ثمّ سقَوه عدّة أقداح، ثمّ طلب العود، فوثبوا إلى معبدْ ونتشوا العود من يديه نتشاً، دون استئذان، وأعطوه إيّاه. فناص معبد حتّى بات كأنّه لا شيء، وخاف خوفاً عظيماً أن يكون شيطانه الذي يوحي إليه بالغناء شيطاناً كاذباً، أو أن يكون شيطاناً متوهَّماً لا حقيقةً. فهل يمكن أن تكون أخطأت خليدة؟

وأخطأ العبد الأسود الذي التقاه في الطريق إلى بغداد؟ وهل خبر الشريف البغداديّ المغرم به كاذب؟
ثم راح أبو منبّه يُدَوزِنُ العود واندفع يغني:
طرِب البحرُ فاعبُري يا سفينهْ
لا تشُقّي على رجال المدينهْ

فقام الفتيان يصفّقون ويصيحون ويُفرِغُون كؤوسهم في أحشائهم، ثمّ تابع يغنّي على هذا النحو من الغناء، وعلى هذه الطريقة، وبهذا المستوى المتدني، وبهذا الكلام السخيف، وبهذه الألحان التي بلا صنعة، وبهذا الصوت الهجين، وكان الفتيان يهتاجون هياج الثيران ويحملونه ويقبّلونه، فتساءل معبد عندذاك: أيعقل أن يكون هذا ما يحبّ أن يسمعه أهل بغداد؟

وفي آخر الليل، ومعبد ما زال منزوياً، لا يجرؤ على الحركة حتى لا ينتبه إليه أحد، صاح فتى من الفتيان بصوت عال غطّى على الأصوات كلّها، وأسكت الجميع، قال:
كأس بغداد!

فاهتاجوا هيجاناً لا يوصف، وشربوا جميعاً كأس بغداد، وانفض المجلس. وخرج معبد يملأ رئتيه من الهواء ويتساءل:
ما هذا؟

لم تكن صورة بغداد التي في ذهنه، مطابقة لما يراه هنا في بغداد بالذات، فضاع وأحسّ بأنّ المَعالِم التي كان يهتدي بها تتغيّر، فعاد إلى الفندق لينام علّ الفجرَ الجديد يزفّ إليه بشرى أخرى.

وبينما هو ذات يوم ضائع وحائر لا يدري ما يفعله، وجد نفسه

أمام مدخل حمّام يقصده السُراة (الوجهاء) فدخل.

لم يلفت نظر صاحب الحمّام، الذي كان يهتمّ بأمن المكان، ويسجّل أسماء الداخلين ويدقّق في هويّاتهم، ويتأمّل هيئاتهم بانتباه شديد، لأن الوضع في بغداد كان يزداد توتّراً يوماً عن يوم، وكان يقترب باضطراد من لحظة الانفجار.

دخل معبد بن رباح إذن ولم يلفت نظر أحد، بينما انشغل الجميع برجل تبدو عليه آثار النعمة، ويرافقه غلمان. وقف له صاحب الحمّام وانحنى وقبّل يده ورافقه إلى الداخل، وأفسح له الطريق كلُّ من كان في الطريق في تلك اللحظة، فاغتاظ معبد بن رباح في سرّه، وتذكّر والدَه وتساءل عمّا كان فعله في مثل هذه الحالة، وعن الشعور الذي كان راوده.

كلّ الحفاوة لهذا السيّد وهو، معبد، لا يعرفه أحد في بغداد! فمتى سيُعرف؟ ومتى سيجيء دوره؟ وقال في نفسه: «لئنْ لم أُطلِعْ هذا السيّدَ على بعض ما عندي لأكوننّ بمزجر الكلب!» (في منزلة الكلب)، فظلّ يحتال خفيةً حتى اقترب منه بحيث بات يراه ويسمعه، ثم ترنّم فانتبه إليه الرجل، وأدار نحوه أذناً صاغية، واستمر في الاستماع حتّى التفت فجأةً إلى الغلمان وقال لهم: «قدِّموا إليه جميع ما هاهنا»، فقام أحد الغلمان وحمل ما كان بين يديّ سيّده (عباءة وخاتم من فضّة وبعض الدراهم) إلى معبد بن رباح الذي فرح كثيراً، ليس بما قُدّم إليه وحسب، بل بتقدير هذا الرجل لغنائه.

ثمّ انتبه معبد إلى أنّ وقع الغلام عليه، كان أشدّ من وقع الهدايا

وتقدير الرجل لغنائه!
لقد سحره هذا الغلام!

ثم دعاه الرجل إلى منزله، وقال له: عُد بعد أن تنتهي من الحمّام، إلى حيث تُقيم في الفندق، وانتظرْ حتى أرسل إليك أحداً يُشْخِصُكَ إليّ (يأتي بك لعندي). فخفق قلب معبد لهذه الدعوة، وتقبّلها بفرح عارم، واقترب من الرجل وقبّل يديه عربون شكر.

وفي المساء اتصل به عامل الفندق وقال له إنّ غلاماً يسأل عنه، فاضطرب معبد وقال: قل له أن يصعد.

لم يصدّق معبدْ أن أحد غلمان الرجل الذي التقاه في الحمّام يقرع باب غرفته، فأسرع يفتحه. كان الغلام ملثّماً فحسر عن وجهه فأضاء. كان هو ذاته الذي حمل إليه ما أعطاه الرجل في الحمام.

ـ هل أنت جائع؟ بادره بالسؤال. أتريد أن تأكل شيئاً؟ عندي حلوى من الحجاز.
ـ لا! لستُ جائعةً! أجابه الغلام.
ـ ماذا؟ قال معبد متعجّباً.
ـ لا لستُ جائعاً أجاب الغلام. ثمّ قال: سمعتك تغنّي فأعجبني غناؤك، أتعلّمني الغناء؟

قال معبد: بل أجعلك أَعْرَفَ به من إبراهيم الموصلي، تعال! وتناول العود ودوزن أوتاره وناوله للغلام، فتناوله الغلام تناول العارف به المعتاد عليه، فسأله معبد إن كان يعرف الضرب عليه، أجاب: قليلاً.

لنبدأ! قال معبد. وجلس على كرسيّ وطلب من الغلام أن يجلس في حضنه حتى يتعلّم بسرعة. هذه أسرع طريقة! قال له. فتردّد الغلام قليلاً، لكن معبد شدّه بقميصه، وأجلسه في حضنه، ما بينه وبين العود.

ردِّدْ معي! قال له معبد، وهو ممسك بيد الغلام الماسكة الريشة، وبالأخرى الماسكة الأوتار.

وأحسّ الصبيُّ كأنّه يجلس على وتد، وفهم بلا ريب ما يعني ذلك، لكن معبد كان دائماً يشدّه ليُبقيه جالساً، وكان يحاول في الوقت نفسه إلهاءَه بالنقر على العود، ثمّ قال له وهو يلهث: إنّ أفضل طريقة في الدنيا حتى تتعلّم الغناء، هي أن تمزجه باللذة، فلا تعود تميّز بينهما، تعال أعلّمك الطريقة! لكنّ الصبيّ انتفض انتفاضة من جلس على عقرب، وقال لا! لا تفعل! يقتلك الخليفة!

كان معبد قد تحقق في هذا الوقت من أنّ الغلام ليس له ذَكَر ولا بيضتان، وانتبه إلى أنه ربما كان جارية. ثمّ لاحظ أنّ هذا الغلام، وبعد أن فقد الأمل بالنجاة من بين يديه، راح يقوده إلى أمام.

كان معبد قاصداً بقضيبه مؤخَّرَة الغلام، فلم يشعر إلا وقضيبه ينزلق حتّى بلغ الفجوةَ من أمام، فأدخله فيها بكلّ ما أُوتي من قوّة، حتى أراق (أنزل). ثمّ استرخى وتلاشت قبضته على الغلام، الذي نهض بسرعة، ودخل إلى الحمّام، حيث اغتسل من الدم الذي سال من عذريته الجريحة، ثم خرج من الغرفة ونزل الدرج مهرولاً، وانتظر معبدْ على باب الفندق، وهو يبكي خلف لثامه.

ما دخلُ الخليفة بك؟ سأله معبد على باب الفندق. قال الغلام مستغرباً: أنا ذكرت الخليفة؟

أنكر أنه ذكر الخليفة.
ـ لماذا تتنكّرين بثوب غلام؟ سأله معبد.
أجاب الغلام بحزم الرجال:
ـ والله لو خاطبتني بالمؤنّث مرّة أخرى «لقطعتُ الذي فيه عيناك!» (أي الرأس).

احتار معبد وضاع، لكنه أحسّ بأن في الأمر ما فيه، فآثر الصمت وقرّر التصرف كأنّ شيئاً لم يكن.

كرّمه الرجل في منزله تكريماً لم يعرف مثله في حياته. فقال في نفسه: ها هي الساعة التي أحلم بها من زمان! فانتهز معبد بن رباح هذه المناسبة، وحدّث الرجل عن سبب مجيئه، وسأله عن خُزَيمة بن خازم، فأخبره الرجل بأنّه غادر بغداد منذ وقت قصير إلى البصرة، وقال له إنّه، أي خُزيمة بن خازم، مشهور بالفعل بحب الغناء. وسأله معبد أيضاً عن الأمكنة التي يمكن أن يرتادها شاب مثله، يجيدُ الغناء ويودّ أن يُعرَف كمغنّ، فأجابه بأنّ خير الأمكنة الآن هي الحانات، لأن الأشراف والقوّاد والأغنياء والوزراء والكتّاب مشغولون بالخلاف الخطير بين الخليفة وأخيه المأمون، لذلك فإنّ قصورهم ودورهم اليوم قليلاً ما تشهدُ مجالسَ غناء. ودلّه على عدد من الحانات بينها حانة الشطّ، التي يرتادها النخبة من الناس لا الرعاع والعيّارون والسفهاء.

أحسّ معبد أنّ شيئاً ما في الرجل قد تغيّر، منذ سأله عن خُزَيمة بن

خازم. لم يعد وجهه مضيئاً كما كان من قبل، رغم أنّه لم يغيّر شيئاً من التكريم الذي أحاطه به.

وبعد أن أطعمه الرجل أشهى المآكل وأفخرها، أمر برفع الطاولة ثمّ أمر بالماء لغسل اليدين، ثمّ أمر بوضع النبيذ، وكان نبيذاً معتّقاً لم يذق مثلَه معبد بن رباح يوماً في حياته، فشرب والفرح يغمره، والأمل يبتسم له، حتّى نَسِيَ أصله ونسي ابنَ من هو، ثمّ انطلق في الغناء، وهو يحسَبُ نفسه فتىً من قريش قبيلة النبوّة والخلافة! أوليس يشرب على مذهب الأخطل؟ أوليس الأخطل هو القائل:

إذا ما نديمي علّني، ثم علّني
ثلاثَ زجاجات، لهنّ هديرُ
خرجتُ أجرّ الذيلَ زَهواً كأنني
عليك، أميرَ المؤمنين، أميرُ

غنّى أوّلاً لحنَ معبدْ في شعر أبي قطيفة، وهو اللحن الذي اختاره المغنّون بالإجماع واحداً من أفضل ثلاثة أصوات (أغانٍ) عرفها الزمان! ومطلع هذا الشعر هو:

القصرُ فالنخلُ فالجمّاءُ بينَهما
أشهى إلى القلب من أبواب جَيْرُونِ

اللحن هو من خفيف الثقيل الأوّل. أمّا الشعر فقد قاله أبو قطيفة، حين نفاه ابن الزبير مع بني أميّة من المدينة إلى الشام، حيث كانت عاصمة الأمويين، وكان الخليفة يومذاك يزيد بن معاوية، مؤسِّسِ الدولة الأمويّة، ثمّ أعادهم إلى ديارهم الخليفة يزيد، بعد «وقعة الحرّة» حيث «قَتَلَ أميرُ جيشه ثلاثة آلاف وخمسماية رجل من الموالي، وألفاً وأربعمائة من الأنصار، وألفاً وثلاثمائة من قريش».

وقد قال أبو قطيفة هذا الشعر في منفاه في الشام، وقيل إنّ ابن الزبير لمّا بلغه هذا الشعر رقّ قلبُه له فسمح له بالعودة إلى المدينة فعاد، لكنه مات قبل أن يصل إليها. وكان كثير من الناس يتمثّلون بهذا البيت ويُنشدونه عندما يغلبهم الحنين إلى الحجاز، وكان له تأثير عميق عليهم، ومن ذلك ما يرويه أبو الفرج الأصفهاني، في كتابه الأغاني، وهو أنّ امرأةً من أهل الحجاز تزوّجها رجل من أهل الشام، فخرج بها إلى بلده على كُره منها، فسمعت منشداً يُنشد هذا الشعر، فشهقت شهقة وخرّت على وجهها ميّتةً.

كان معبد بن رباح يعرف لا شكّ، هذه الأخبار، عندما بدأ غناءه بهذا الشعر، وكان يعرف ما يثيره هذا الشعر من حنين في نفوس العرب الذين خرجوا للتوّ من الجزيرة، ليسودوا العالم.

والقصر الذي عناه أبو قطيفة هاهنا، هو قصرُ سعيد بن العاص الأمويّ القرشيّ الصحابيّ وأحد الأمراء الولاة الفاتحين، ولّاه الخليفة عثمان الكوفة، وولّاه معاوية المدينة حتى مات، وهو الذي فتح طبرستان في بلاد فارس، وكان واحداً من الذين كتبوا المصحف لعثمان. والنخل الذي عناه ابن قطيفة، هو نخل كان لسعيد بن العاص أيضاً، وكان مزروعاً في مكان ممتدّ ما بين القصر هذا ومنطقة الجمّاء التي كانت أرضاً له أيضاً. وصارت جميع هذه الأملاك لمعاوية بن أبي سفيان بعد وفاة سعيد بن العاص، بعد أن أعطاها له ابنه عمرو (الشهير هو أيضاً)، مقابل دَين كان لمعاوية على والده.

كان معبد يعرف كلّ هذه الأخبار، لذلك افتتح الغناء بهذا الصوت، ظنّاً منه أنّه يترك بذلك أثراً عميقاً في نفس سامعه.

ثمّ انتبه معبد إلى أنّ هذا الرجل لم يكن ينصت، بل كان يبدو عليه الانزعاج.

غريب! كيف يكون هذا؟ فاحتار فيما يفعله، وصار العرق يتصبب منه، وكاد أن يتوقّف عن الغناء لولا أنه ظلّ حتى اللحظة الأخيرة مصرّاً على نيل إعجابه وآملاً في ذلك، فهذه فرصة لا يمكن تفويتها. وأخيراً صاح الرجل المضيف فجأةً: «يا غلام، شيخَنا شيخَنا!» فخرج الغلام وعاد برفقته شيخ في الستينيات من العمر، فلمّا رآه يدخل «هشّ» إليه وسُرّ وصفّق. كان هذا الشيخ يتصرّف تصرّف المعتاد على البيت، فما إن وصل حتّى تناول العود، واندفع يغني شعراً باللهجة الشاميّة أكثر ممّا هو بالفصحى:

سِلّورُ في القدر وَيْلي عَلُوهْ
جاء القطّ أكلَهْ وَيلي عَلُوهْ

فراح الرجل المضيف، صاحبُ المنزل، يصفّق ويضرب برجليه الأرض، طرباً وسروراً.

ثم غنّاه:

وترميني حبيبةُ بالدُّراقِنْ
وتحسبني حبيبةُ لا أراها

فكاد أن يخرج من جلده طرباً.

أمّا معبد فانسلّ من بين الحاضرين، وانصرف دون أن يدري به أحد، وقصد فوراً دون أن يتردّد حانةَ الشطّ، فوجدها ما زالت فاتحة أبوابها فدخل، وكان فيها مغنّ أعمى يغنّي ألحاناً معروفةً، لكنّه كان يؤدّيها أداء المتمكّن العارف الخبير، فطرِب له، ودنا منه،

وكان كلّما أجاد في قسم من الأغنية يصرّح له بإعجابه، فسُرّ الشيخ الأعمى، وارتاح لأحد في آخر هذا الليل يجيد السماع. ثم انتسبا (أي عرّف كلّ منهما عن نفسه):

ـ معبد بن رباح مولى بني عُذَيب.
ـ أبو زكّار البغدادي الأعمى، كما لاحظتَ!
واتفقا على أن يلتقيا مساء اليوم التالي في المكان نفسه.
ثمّ اشتدت الصداقة بينهما، وصارا يلتقيان دائماً.

أشمّ رائحة الحرب تقترب! قال معبد لأبو زكّار في حانة الشطّ. وسمعتُ أنّ كثيراً من الناس، وخاصّة من الطبقات الميسورة، يرحلون خوفاً من الانفجار الكبير.

قُتل عليّ بن عيسى بن ماهان! قال له أبو زكّار، لم ينتشر الخبر بعد في بغداد، لكنّ الأمين ومعاونيه علموا به قبلي بلا شكّ. وعليّ بن عيسى بن ماهان هذا من خيرة قوّاد الأمين، وهو الذي شجّعه على عزل أخيه المأمون عن ولاية العهد وعن خراسان، وقد جهّزه الأمين بأربعين ألف رجل، وسار بهم لقتال طاهر بن الحسين، الذي أوفده المأمون على رأس جيش أقلّ عدداً بكثير، لكنّه مجهّز بأحدث الأسلحة، والتقى الجيشان في منطقة الريّ، والتحما وانتصر جيش طاهر، وقُتل علي بن عيسى بن ماهان، وجيء برأسه إلى طاهر، ثم جيء له بجثّته وقد شُدّت يداه ورجلاه، كما يُفعل بالدواب إذا ماتت، فأمر بها طاهر فألقيت في بئر، ثم كتب بالخبر إلى خراسان ومما قال في كتابه: «..ورأس عليّ بن عيسى بين يديّ وخاتمه في إصبعي، والحمد لله ربّ العالمين.» وكان إلى جانب المأمون حين وصلته الرسالة، مساعدُه

الأوّل الفضلُ بن سهل الذي سلّم عليه بالخلافة، فسُرّ المأمون سروراً لا يوصف.

وأنا سررتُ كثيراً عندما سمعتُ بالخبر، قال أبو زكّار، وربّما كان سروري أعظم من سرور المأمون. وأنا أسلّم عليه بالخلافة كلَّ صباح وكلّ مساء، في سرّي وقلبي، وإنني أتمنّى ألّا أهلك قبل أن يبلغ بغداد، ويستقرّ في قصر الخلافة، إنني أصنع له منذ الآن لحناً إن متّ بعده فلن أحزن. ثم طفر الدمع في عينيه، وسال على لحيته التي غزاها الشيب، وقال:
العدل!
ما أجمل أن تعدل الحياة!

ولم يكن معبد بن رباح قد تحقّق بعد أن الأوضاع في بغداد على هذا المستوى الكارثيّ من الخطورة، كان يعلم فقط أنّ الأوضاع فيها «خطيرة»، وأنّ هناك خلافات بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون الذي كان حاكم خراسان في فارس، وأنّ الجيش الجرّار الذي أرسله الأمين نحو خراسان، والذي يتحدّث عنه جميع الناس، سيعيد الأمور إلى نصابها بعد أسابيع أو أيّام. لكنّه لم يتصوّر إطلاقاً أنّ الأمور خطيرة إلى حدّ أنّ بغداد مهدّدة بالتدمير الشامل، وبعشرات الألوف من القتلى وأكثر منها بكثير من الجرحى.. وما يستتبع ذلك من أوبئة ومجاعات!

لم يكن على علم بأنّ الأمين أراد خلع أخيه المأمون من ولاية العهد، وتولية ابنه موسى مكانه، وموسى هو ابن زوجته «نظم» التي كان مولعاً بها. ولم يكن يعرف أنّ العداء بين الأمين والمأمون عميق ومتجذّر إلى ما قبل ولادتهما، والفاصل بين الولادتين ستة

أشهر فقط. المأمون يكبر الأمين بستة أشهر. وكانت والدة المأمون فارسيّة، تزوّجها والده هارون الرشيد لأنّ زوجته زبيدة والدة الأمين، العربية الهاشميّة، لم تكن «تعلق» منه (أي لم تكن تحبل منه)، فشاور بعض مجالسيه من الحكماء، فأشار عليه أحدهم بأن يغيّرها، وقد علمت زبيدة أنّ هذا الحكيم الذي أشار عليه بتغييرها، هو يحيى بن خالد بن برمك، الذي كان هارون الرشيد يحبّه ويناديه بـ«يا أبتِ»! عرفاناً منه بالجميل، لأنه وقف إلى جانبه أيام كان أخوه الخليفة الهادي يريد إبعاده عن ولاية العهد، ليوصي بها لابنه القاصر. قال يحيى بن جعفر للرشيد: «إنّ إبراهيم الخليل عليه السلام كانت عنده سارة، فلم تكن تعلق منه، فلمّا وُهبت له هاجر علقت منه بإسماعيل، فغارت سارة عند ذلك، فعلقت بإسحاق». وهكذا اشترى الرشيد أمّ المأمون فاستخلاها، فعلقت منه بالمأمون، فغارت زبيدة أمّ جعفر عند ذلك غيرة لا توصف، فعلقت بمحمّد الأمين بعد ستة أشهر فقط.

لم تغفر زبيدة والدة الأمين، ليحيى بن خالد بن برمك، نصيحته لهارون الرشيد بأن يتزوّج عليها، لأنّها كانت ستحبل على أي حال، وليست الغيرة هي التي جعلتها تحبل، كما ادّعى يحيى بن برمك وبعض الحكماء من مُجالسي الخليفة، فقد رأت في المنام من زمان أنّها ستعلق منه بمحمّد الأمين، وأنّه سيكون ملكاً عظيماً إلّا إذا نكّد عليه أحد حكمه!
إلّا إذا نكّد عليه أحد حكمه!

لم تكن تمرّ عليها ساعة من النهار أو من الليل إلّا وكانت هذه الـ«إلّا...» تجيء على بالها وتنكّد عليها صفو أيّامها. وانتظرت الفرصة أن تحين، إلى أن حانت الفرصة!

م يكن معبد يعرف هذه التفاصيل، ولم يكن يعرف عن «نكبة لبرامكة» شيئاً سوى أنّ جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، قد عبث بالعبّاسة أخت هارون الرشيد، بعد أن «ائتمنه» الرشيد عليها، كنّه الآن أدرك أنّ الأمر ليس بهذه البساطة، بل بات يعرف الآن ن زبيدة أمّ جعفر والدة الأمين، هي التي دبّرت ما يسمّيه الناس هنا، في بغداد، وفي أنحاء الأمبراطوريّة كلّها، «نكبة البرامكة»، وكأنّ مرضاً أصابهم وحدهم وقضى عليهم. إن الرشيد قضى على البرامكة بتدبير من زبيدة والدة الأمين. فقد ظلّت تسعى حتّى أقنعت الخليفة بنصب فخّ للبرامكة جميعاً، وكانت لا شكّ من مهندسي هذا الفخّ.

وكانت حماستها تزداد، وإرادتها في القضاء عليهم تشتدّ كلّما رأت يحيى وأولاده جعفر والفضل، وغيرهما من آل برمك، تزداد أهميّتهم في البلاط، وتتعاظم ثرواتهم، حتّى قيل عنهم: إنّ أيامهم أعراس وسرور دائم لا يزول!.. إلى أن قال الرشيد ذات يوم لجعفر ابن يحيى: «ويحك يا جعفر!» لا أحبّ طلعة رجل في الأرض كما أحبّ طلعتك، ولا آنس برجل في الأرض كما آنس بك، ولا أستمتع برؤية أحد كما أستمتع برؤيتك! فشكره جعفر وقبّل يديه وكاد يبكي من الفرح، ثم تابع الخليفة يقول: وإنّ للعبّاسة أختي منّي موقعاً ليس دون ذلك! فسكت جعفر وحار بما يجيب، لكنّ الخليفة لم يترك له المجال لكثير من الحيرة فقال له: لقد فكّرتُ كثيراً في أمركما، وبالسبب الذي من أجله أحبكما أنتما الاثنين هذا الحبّ، وفكّرتُ طويلاً بما يعني هذا الأمر، وقلت في نفسي يجب أن أجد حلاًّ «تتكاثف لي به اللذة والأنس»! فقال له جعفر: وفّقك الله يا أمير المؤمنين «وعزم لك» على الرشد في أمورك كلّها! فقال الرشيد: قد زوّجتكما تزويجاً أسمح لك فيه بمجالستها فقط،

والنظر إليها فقط، والاجتماع بها في مكان أكون فيه «لا سوى ذلك»! وقال له لا تجبني بشيء، اسمع فقط ما أقوله لك ونفّذ ما آمرك به! وهكذا زوّجه الرشيد من أخته، ولم يكن في استطاعته حتّى أن يحاول التخلّص.

وأخذ الرشيد عليه عهد الله ومواثيقه وغليظ أيمانه أنه لا يخلو بها، ولا يجلس معها ولا يُظلّله وإيّاها سقف بيت إلّا وهو ثالثهما، فحلف له جعفر على ذلك، ورضي وألزم نفسه به.

وهكذا صاروا يجتمعون على هذه الحالة التي أرادها الرشيد، وكان جعفر صارفاً بصره على الدوام عن العبّاسة، تهيّباً واحتراماً لأمير المؤمنين، ووفاء بالمواثيق والعهود التي قطعها على نفسه.

لكنّ العبّاسة أحبّته وتعلّقت به! وصار حبّها يزداد كلّما رأته، إلى أن أضمرت الاحتيال عليه! فكتبت إليه رسالةً، تشرح له فيها حبّها له، وتعلّقها به، وتؤكّد له بالبراهين أنّ الخليفة سيقبل بهما زوجين عاديَّيْنْ كبقية الأزواج، وأنها إذا ما حبلت منه، فلن يكون على الخليفة إلّا القبول، لكنّه لم يقبل أن يتسلّم الرسالة من يد الرسول، وردّه بعد أن شتمه وتهدّده، فكرّرت المحاولة عدّة مرّات، وكان هو يرفض، وقد صفع رسولها مرّة، فعادت وأرسلت له جاريةً، وكانت هذه الجارية «بالصدفة» هديّةً من زبيدة والدة الأمين للعباسة، بمناسبة زواجها، لكنّه رفض. وهو لم يكن على علم بأنّ هذه الجارية هديّة من زبيدة للعبّاسة. ومن أين له أن يعرف ذلك وهو لا يكلّمها إطلاقاً، ولا يسأل عنها أحد ممّن يعرفها لئلّا يبلغ ذلك أخاها الرشيد، وكان كلّ ما يفعله عندما يجتمعان في حضرة أخيها الخليفة، هو أن يميل برأسه عنها احتراماً له.

ولمّا استحكم اليأس بالعبّاسة، شاورت أقرب الناس إليها وأخلصهم صداقة، وقرّرت بعد هذا التشاور، وبعد المزيد من التأمّل، أن تقصد والدة زوجها جعفر، وأن تستعين بها على ولدها، خاصّة وأن هذه الوالدة لم تكن امرأة حازمة، وكانت تُستمال بالهدايا وبشكل خاص بالنفيس منها. وظلّت العباسة على ذلك حتى استمالتها. ولمّا تأكّدت أنها صارت تنقاد لها، وتنفّذ رغباتها، باحت بطرف مما تبغيه، وهو أنها تتمنّى لو أن أحداً يقنع الخليفة بالسماح لهما بالزواج الكامل، وأوضحت لها ما لهذا الزواج من أهميّة لأنه مصاهرة للخليفة. وأي فخر أكثر من هذا؟ وأي شرف أعلى من هذا! وأقنعتها بأنّ هذا الزواج سيكون ضمانة لابنها، ولكلّ أولادها الآخرين بعدم «زوال النعمة» عنهم، وبعدم تدنّي أهميّتهم عند الخليفة. وأوضحت لها ضرورة أن تلتقي بابنها لمناقشة هذا الأمر. فاستجابت الوالدة، ووعدتها بالسعي للجمع بينهما. وكانت الحيلة التي قبلت بتنفيذها الوالدة قد حبكت خيوطها العبّاسة والجارية التي أهدتها إليها زبيدة والدة الأمين.

قالت الوالدة لولدها جعفر بن يحيى البرمكي: يا بنيّ، حدّثوني عن «وصيفة» (جارية) في منتهى الجمال: وجه كالقمر وقدّ كغصن البان، إذا ابتسمت انشقت شفتاها عن بياض لا يوصف، وقالوا إنها تتمتّع، إضافةً إلى ذلك، بخصال حميدة، وقالوا إنها تربّت في بعض القصور عند بعض الملوك، وإنها بلغت من الأدب والظرف والحلاوة ما لم يُرَ مثله، فما رأيك لو اشتريتُها لك و«تسرّيتَ» بها (تمتّعتَ)، فإنّ ظروف حياتك وظروف عملك تتطلّب منك أن تتسرّى، وأن تروّح عن نفسك؟ فاستقبل جعفر كلام أمّه بالقبول والشكر، فقالت: لقد عزمتُ على شرائها وسأتصل بمالكها فوراً، وإن شاء الله ستكون في انتظارك غداً، عندما تعود من عند الخليفة.

وفي اليوم التالي، في آخر المساء، عاد جعفر إلى بيته وقد وعد نفسه بها، فلم يجدها، فاتصل بأمّه ليسألها عن السبب، فاحتجّت له بألف سبب من هذه الأسباب التي يُحتجُّ بها في مثل هذه الحالات، ثم ظلّت تماطله وتسوّفه وتؤجّل الوفاء بوعدها ما استطاعت، وأخبرته مرّةً بأنّها ذهبت ورأتها بنفسها، فوجدتها رائعة بالمعنى الحرفي للكلمة: روميّة البشرة والعينين، وساقان كأنّ فجرين بانا لمّا كشفتْ عنهما. والله لولا السنّ والمقام لوددتُ العبث بهما. فاشتدّ شوقه إليها، واشتدت شهوته، وراح يلحّ عليها بعقد الشراء. ولمّا علمت أنّه بات عاجزاً عن الصبر، وأنّ القلق استبدّ به، عيّنت له ليلةً، ووعدته بأن تكون عنده بلا تأخير، واتصلت بالعبّاسة وأعلمتها بتفاصيل ما جرى معها فتأهّبت العبّاسة كما تتأهّب ابنة ملك عظيم مثلها، وكما تتأهّب أختُ ملك عظيم مثلها، وسارت إليه في تلك الليلة. ولمّا عاد جعفر إلى منزله من عند الرشيد، وكان قد شرب، سأل فوراً عن الجارية، فأخبروه في أي جهة تُقيم، فذهب لعندها، أمّا هي، العبّاسة، فحجبت وجهها بالمنديل عندما سمعته يدخل، ووقفت تنتظره كما تقف جارية تنتظر سيّدها الجديد، وأمّا هو فشمّ رائحة عطر ملوكيّ، اعتاد أن يشمّ مثلها في قصر الرشيد، وفي بيوتات النخبة من أرستقراطيّة بغداد، وأعجبه قدُّها عندما رآها، وأعجبه حجمها وتناسقها، فقال لها فوراً ارفعي هذا الحجاب عن وجهك لأراه، فرفعته بهدوءٍ وسلامٍ من تربّى في بيوت الملوك، ورأى وجهاً شدَّه إليه شدّاً فاندفع نحوه. وكانت العبّاسة تنفّذ كلّ ما يطلبه منها، لكن بدون أن تتلفّظ بكلمة، وكانت إذا ما اضطرّت، تكلّمت باختصار وبدلع الجواري المحبوبات، وبالأخطاء ذاتها التي تقترفها الجواري الروميّات أثناء نطقهنّ بالعربيّة، لأنها خافت أن يفضحها صوتها، فهو يعرف منها صوتها فقط، ولا يعرف منها شيئاً آخر. لم يكن يرى وجهها عند

الخليفة، لأنها كانت بالطبع تخفيه بمنديلها، لتحجبه عنه وعن الحاضرين الآخرين أيضاً.

ولمّا اقترب منها تراجعت إلى «المنصّة» (أي فراشها العالي)، فصعد إليها، وبدأت تكشف عن جسدها، فإذا كلّ عضو منه مزيّن بجوهرة تناسبه. هنا حلقة، وهنا إسوارة، وهنا سلسلة، وهنا عقد.. فدُهش، وذهل عن رغبته، ولم يستطع «النَيْلَ» منها، فنزلت عن المنصّة وخرجت من القاعة، ونادت جاريتها، وغيّرت لباسها، ووضعت ثياباً مصبوغة بألوان منتقاة بمعرفة وخبرة، تثير شهوة الرجل إذا ما رآها ولمسها، وأمرت جاريتها بأن تفرش لهما فراشاً على الأرض، حيث تمدّدت وهي تضع عنها هذه الثياب الجميلة قطعة قطعة، مبقيةً على اليسير الذي يشير أكثر مما يُخفي، فلم يستطع «النيل» منها!

يا إلهي، قالت في نفسها! كلّ شيء سيفسد إذا لم يقدر على ولوجها والإنزال فيها هذه الليلة بالذات، لأنه عليها أن تعود إلى قصر الخليفة حيث تقيم في جناح منه مع خدمها وجواريها، قبل طلوع الفجر وانتشار الضوء. ثم قالت له: لا يهمّك هذا، فإنّ أغلب الرجال كان يصيبهم مثل ما أصابك. ثم «لم تزل» حتّى استطاع الوصول إليها في تلك الليلة، و«النيل» منها، وقد أراق فيها بحراً من مائه، ملأها بشعور من الغبطة والسعادة لا يوصف. وأحسّت بإحساس غريب، بأنّها اكتفت!

وقالت له بعد أن قضى حاجته منها وهمد وكاد أن يغفو: كيف رأيت حِيَل بنات الملوك؟ قال: وأي بنات الملوك تعنين؟ فقالت له: أنا مولاتك العبّاسة بنت الخليفة المهديّ أخت الخليفة

الرشيد! فنهض مذعوراً، وقد زال عنه سكره ورجع إليه عقله، وذهب فوراً عند أمّه التي كانت منتظرة لم تَنَمْ بعد، وقال لها: بعتني بالثمن الرخيص! هذه نهايتنا جميعاً! وانصرفت العبّاسة مشتملة على حمل منه (أي انصرفت وقد حبلت منه) ثم ولدت صبيّاً كلّفت خادماً من خدمها الاهتمام به، وحاضنة تسمّى برّة. لكنها سريعاً ما بدأت تخاف شيوع الخبر وانتشاره، فوجّهت الصبيّ والخادم والحاضنة إلى مكان سرّي في الجزيرة، وأقامتهم هناك.

وكان نجم البرامكة في هذه الأثناء ما زال في صعود.

وفي هذه الأثناء أيضاً، شكت زبيدة إلى الرشيد سوءَ معاملة يحيى البرمكي والد جعفر لها، وكان يحيى مكلّفاً الاهتمام بحرم الرشيد، إضافة إلى مهامّه الأخرى. فدعاه الرشيد وقال له ما بال زبيدة تشكوك يا أبتِ؟ قال له: معقول أن أقصّر في خدمتك؟ لا تقبل شكواها! فقال له الرشيد: خلصْ! لن أفاتحك في هذا الموضوع مرّة أخرى! لكنّ يحيى صار يضيّق عليها أكثر، وصار يأمر بإقفال أبواب الحرم في الليل، وكان يأخذ المفاتيح معه إلى منزله، فبلغ الغضب عند ذاك بزبيدة مبلغاً لا يطاق، ودخلت على الرشيد يوماً وقالت له: إن أنت سمحت بأن توضع زبيدة زوجة الخليفة الرشيد في غير موضعها فزبيدة لا ترضى! فتفهّم الرشيد غضبها لكنه استغرب قولها، لأنه لا يشكّ إطلاقاً في تصرّف يحيى، فقالت له: إن كان فعلاً يخلص لك هذا الإخلاص، لكان منع ابنه جعفر من ارتكاب ما ارتكب، وأخبرَتْه القصّة من ألفها إلى يائها، فطلب الدليل!
الدليل فوراً!

فقالت له وأيّ دليل أدلّ من الولد؟
ثم سألها إن كان يعلم بهذا أحد غيرها؟ فقالت له إنّ كلّ جواري القصر على علم به.

ولمّا أجرى تحقيقاته بالسرّية المطلقة، وتأكّد من الأمر، أضمر السوء للبرامكة، وإزالة النعمة عنهم، وقرّر قتل جعفر، فخرج إلى الأنبار، وقعد ومعه جعفر في مكان هناك يُعرف بالعِمْر، وأقاما معاً نهاراً كاملاً على أحسن حال، فأكلا وشربا، ثم انصرف جعفر، وشيّعه الرشيد حتى ركب فرسه. ومضى جعفر وما زال أثر الخمرة فيه، فدعا بعض خاصّته لمّا وصل إلى منزله، ودعا أبو زكّار المغنّي البغداديّ الأعمى، الذي كان منقطعاً إلى البرامكة بشكل عام، وإلى جعفر بشكل خاص، ومدّ الخدم ستارة جلس جواريه خلفها يضربن ويغنّين. وقد غنّاه أبو زكّار يومها:

ما يريد الناس منّا
ما تنام الناس عنّا
إنّما همّتهم أنْ
يُظهروا ما قد دَفنّا

وفي تلك الأثناء بالذات، وبينما جعفر وصحبه يسمعون هذه الأغنية، وتكاد عين جعفر أن تدمع على غير عادته، كان الرشيد يأمر خادمه ياسر المعروف «ببرخلة» أن يقتل جعفراً وأن يأتيه برأسه على الفور. قال له الرشيد أوّلاً: سآمرك بشيء فحقِّق ظنّي وإيّاك أن تخالف أمري! فأجابه برخلة: لو أمرتني أن أُدخِل السيف في بطني وأخرجه من ظهري بين يديك لفعلت، فمرني بما تشاء. فقال الرشيد: ألست تعرف جعفر بن يحيى البرمكي؟ قال: وهل أعرف سواه؟ قال الخليفة: ألم تَرَ تشييعي إيّاه عند خروجه من عندي؟

قال بلى. قال الخليفة: إمض إليه فوراً وائتني برأسه على أيِّ حال تجده عليها، أكان نائماً أو ساهراً أو سكراناً أو صاحياً، اقطع رأسه فوراً وائتني به! فارتعد ياسر وانعقدَ لسانُه، ووقف حائراً لا يعرف ما يفعل. فقال ياسر: وددتُ لو كنتُ متُّ قبل أن تُقدم يداي على فعل ذلك. فقال له الخليفة: دَعْ عنك هذا وامضِ إلى ما قد أمرتك به! فمضى ياسر حتّى دخل على جعفر، وهو يطلب من أبو زكّار الأعمى أن يعيد مرّة تلو المرّة صوتَ:
ما يريد الناس منّا!

فدخل عليه وطلب الاختلاء به بعدما أخبره أنه آت من قبل الخليفة، وقال له: أمرني الخليفة بقتلك! قال جعفر: بل إنّه يمزح! قال لا بل هو جادّ. قال: إنّه إذن سكران. قال لا بل هو عاقل تام العقل كعادته. وبعد أن تداولا الأمر وقلّباه على جهاته، اتفقا على أن يعودا معاً إلى «مضرب» (مخيّم) الرشيد، وأن يدخل ياسر إلى الخليفة وأن يقول له إنه نفّذ الأمر، بينما يبقى جعفر في الخارج في مكان يستطيع منه أن يسمع كلامهما، واتفقا على أن يخرج ياسر ويقطع رأس جعفر إذا طالبه الخليفة به.

ومضيا إلى مضرب الرشيد، فدخل إليه ياسر فقال: قد أخذتُ رأسه وها هوذا بين يديك فور أن تطلبه. قال الرشيد: ائتني به! فخرج ياسر وقال لجعفر، الذي كان ما يزال ينتظره في المكان المحّدد: أسمِعتَ الكلام؟ قال جعفر: صدقتَ، فافعل الآن ما أمرك به الخليفة. ثم تناول من جيبه منديلاً صغيراً عصب به عينيه، ومدّ رقبته فضربها ياسر، وأدخل رأسه إلى الرشيد، فلمّا رأى الرشيد الرأس بين يديه، أقبل عليه وجعل يذكّره بذنوبه، ثم طلب من ياسر أن ينادي على قائد حرسه ومساعديه، فلمّا أتى بهم قال

لهم: اضربوا عنق ياسر، فإنّي لا أقدر على النظر إلى قاتل جعفر!

يا إلهي، قال معبد بن رباح، لا قرّبني الله من الملوك! فأجابه أبو زكّار، لا والله لو أدركتَ البرامكة لما تمنّيتَ ذلك. أتدري ماذا فعلتُ بعدما قُطع رأس سيّدي جعفر، ذهبتُ إلى دار الخليفة الرشيد، واستأذنتُ في الدخول عليه فمنعوني من ذلك، لكنّ مسرورْ خادمَ الرشيد الشهير، قابلني وسألني عمّا أريد، فقلت له أريد أن تقطع رأسي، فإنّ العيش لا يصلح بعد مقتل سيّدي جعفر، ثم ركعت بين رجليه ورحت أضرع له أن يضرب رأسي، فلم يفعل، بل أخبر الرشيد الذي أمر بسجني فسجنت.

ثم قال أبو زكّار لمعبد: لا تستطيع الهروب طالما أنّ بضاعتك صوتك! ومن لا يغنّي للملوك لا يحظى بشيء. هذا إبراهيم الموصلي الذي قال للمهديّ: «أغنّي للذّتي»، كان يموت من القهر إذا غنّى ولم يُعطَ! لا مكان لمن كانت بضاعته صوتَه إلّا في هذه الدوائر، وإلّا فعليه أن يتنسّك وأن يكون دِينُهُ الغناء!

وصار معبد بن رباح يتردد على حانات قطربل في بغداد، وحانات بساتين باري ومنتزهاتها، وحانات بِنَّى على دجلة قرب بغداد، كلّ يوم يكتشف حانة جديدة، ويعتاش بهذا الشكل. يغني ويعطيه صاحب الحانة وزوّارها ما تيسّر. وصار يلازم أصحاباً هناك، ويلتقيهم ويحادثهم ويغنّي لهم ويغنّون له، وكان الخمّارون يُعجبون بصوته وأدائه، لكنّ الوضع السياسيّ كان شديد التأزم، بحيث إنّهم كانوا يتريّثون في عقد اتفاقات معه، ليغنّي عندهم بشكل دائم، وكان عدد الزبائن الأشراف يتناقص كلّ يوم، ويحل محلّهم العامّة والسوقة وأهل الزراعة والحرف، وبعض المساجين الهاربين من

سجونهم حديثاً.

وذات ليلة ذهب عند خمّار أحبّه وأحسن إليه، كان يعطيه كلّ ليلة بدل أتعابه ما استطاع، فدخل الخمّارة ووقف قرب صديقه الخمّار وقال له ماذا يريدني زوّارك أن أغنّي لهم اليوم، قال غنَ ما شئت، فاندفع يقول:

من ذا يُعيرُك عينَه تبكي بها
أرأيتَ عيناً للبكاء تُعارُ

فبُهت الخمّار ودُهش، وظلّ يستمع ناظراً إليه والنبيذ يجري من الدنّ، حتى امتلأ الإناء وفاض فقال له معبد: ما بك؟ انتبه! فاض كأسك! قال الخمّار قُل لي بالله هل مات لك إنسان، لماذا صوتك حزين إلى هذا الحدّ؟

ومعبد حزين لأنّ شيطان غنائه انقطع عنه، منذ وصوله إلى بغداد حتى عدّة أيّام خَلَتْ، حيث زاره وهو نائم وطارحه (علّمه) هذا اللحن، الذي سُحر به صديقُه الخمّار الذوّاقة العارف بالغناء، ولكنّ الصدمة الكبرى هو أنّه في اليوم التالي لأخذه هذا اللحن عن شيطانه قصد خمّارة في وسط بغداد، فسمع مغنيّاً يغنّيه هو بالذات ويدّعي أنه له، وقد أطرب الزبائن جميعهم، وأعطوه بسخاء، «وأنا واقف مذهول لا أعرف ماذا أقول وماذا أفعل، وكيف أعلن لهم أنه سرق صوتي (أغنيتي) الذي أوحى به شيطاني إليّ قبل أيّام!». فقال له الخمّار ولكنّ الشياطين توحي أحياناً بالصوت ذاته لأكثر من مغنٍّ، إنّ هذا أمر يحدث، خاصّة إذا كان الشيطان ظهر عليك في صورة شيخ أسود اللحية، فقال لا بل أبيض اللحية وجميل الهيئة جدّاً، وقد دخل عليّ في المنزل الذي أقيم فيه مع صاحبته السوداء،

وغلامها الأمرد الفاتح البشرة الأزرق العينين، الذي تقول عنه إنّه ولدها وقد حبلت به «على غير رشدة» (بالزنا) من عابرٍ جميل، لولا أنّه «وقع عليها» بالغصب. وكان هذا الشيخ حليق الرأس تماماً، ويلبس ثياباً ملوّنة، وقلنسوة ملتصقة برأسه، وبيده عكّازة رأسها من فضّة على شكل بيضة، وروائح المسك تفوح منه حتّى ملأت المنزل كلّه، فغضبتُ لمّا رأيته يتجّه فجأة نحوي، وصرختُ بالجارية وابنها الغلام فحضرا، فقلت لهما: أما أمرتكما الليلة بأني أريد أن أبقى وحدي، وبأن لا تأذنا لأحد كائناً من كان بالدخول عليّ، فأجاب هو وقال: لا تغضب يا معبد (خاطبني باسمي!)، فقد دخلتُ بدون استئذان فأنا أعرف البيت. ثمّ سلّم عليّ أجمل السلام، فرددت عليه السلام، وطلبت منه الجلوس فجلس، وقلت له: تريد أن تأكل؟ قال لا! تريد أن تشرب؟ قال إن تكرّمت! وبعد أن شرب رطلاً، وشربت مثله، قال لي ألا تريد أن تكرمني وتغنّي لي من صنعتك (أي تأليفك) شيئاً؟ فقلت وكيف تعرف أنني أغنّي؟ قال غنّني أوّلاً، ثم نتحدّث في الأمور الأخرى فيما بعد. فاغتظت وقلت له، ولكنني لا أغني من صنعتي إطلاقاً إلّا لبشر يحفظون هذا لي، ويكونون شهوداً على ملكيّتي له، أما ترى بغداد تبحث عن أغنية؟ أما ترى الحفّاظ يحفظون الأغنية ما إن يسمعونها، ثم يدّعون أنها لهم، ويبيعونها بأغلى الأثمان، ويبقى صاحبها غريباً عنها؟ قال لا تخف، ثِقْ بشيبة هذا الشيخ الذي أمامك. ثم قلت في نفسي خذ الأمر بهدوء يا رجل وغنّ لحناً! وهكذا تناولت العود وجسسته ثم ضربته وغنّيت فقال: أحسنت يا معبد! قلت: كيف تعرف اسمي! وازددت غضباً لأنه سمّاني للمرة الثانية ولم يكنّني، لم ينادني بـ«أبو رباح»، «لم يُجمِلْ مخاطبتي»! ثم قال بعد أن غنّيتُ الصوت الأوّل: زدنا يا معبد! فامتعضت، لكنني رغم امتعاضي، اندفعتُ أغنّي صوتاً ثانياً من تلحيني أيضاً، وما كدت أنتهي منه حتّى صاح:

أجدتَ يا أبا معبد!
ففوجئتُ بجهله، وقلت له:
اسمُ والدي رباح! فأنا أبو رباح.

فتابع كلامه وكأنّه لم يسمع ما قلت: أكمِلْ حتّى نكافئك، ونغنّيك ألحاناً لم تسمع بمثلها. فأخذتُ العود ورحت أغنّي بكلّ ما أملك من قوّة على التركيز والانصراف، إذ قلت في نفسي إنّ الفرج ربما قد جاء هذه المرّة، لأنني سمعته يقول بوضوح «حتّى نكافئك!»، غنّيت كما أحلم أحياناً أن أغنّي لخليفة، فطرب طرباً شديداً وقال: أحسنت أحسنت يا سيّدي! (يا سيّدي!) ثم قال بعد فترة من الصمت أتأذن لي بالغناء؟ قلت له تفضّل وناولته العود، فتناوله وجسّه و«حبسه»، فوالله لخلته (أي العود) ينطق بلسان عربي، لجمال الذي سمعته وحسنه، ووضوحه وتآلفه. وقد غنّى:
ولي كَبِدٌ مقروحةٌ من يبيعني
بها كبداً ليست بذاتِ قروحِ

فظننت أنّ الحيطان والأبواب وكلّ ما في البيت يُجيبه ويغنّي معه، وخِلتُ أنَّ ثيابي وأعضائي تستجيب له وتغنّي معه، وبقيتُ مبهوتاً مذهولاً مأخوذاً ساعةً، لا أستطيع الكلام ولا الجواب ولا الحركة، ثم اندفع يغنّي من جديد:
وقد زعموا أنّ المحبّ إذا دنا
يَملُّ وأنّ النأيَ يشْفِي من الوجدِ
بكلٍّ تداوينا فلم يشفَ ما بنا
على أنّ قُرْب الدار خيرٌ من البعدِ
فكدت أطير وكاد عقلي يذهب طرباً.

ثم بعد أن انتهى من هذا الصوت قال: يا ابن رباح معبد: هذا اللحن هو خفيف الثقيل الثاني بالوسطى، خُذْهُ وانْحُ نحوَهُ في غنائك، وعلّمه جواريك اللواتي ستملك منهنّ، لكن أنصحك بالحذر الشديد في هذه الأيّام، إيّاك والخطأ، انتبه، تَرَوَّ، فبغداد على بركان. ثم قال أعِد عليّ الأصوات التي غنّيتها لك حتّى أتأكد من أنّك حفظتها جيّداً، فقلت بل حفظتها كلّها، ثم سمعت صوت الجارية تقول، وأنا حفظتها أيضاً، وقال الغلام وأنا حفظتها أيضاً، وكنتُ قد نسيتُ وجودهما معنا، كنت ظننت أنهما خرجا، والتفتُّ لأجد أن الشيخ اختفى فارتعبت ونهضت إلى سيفي فجرّدته وركضت نحو الباب، فوجدته مغلقاً، فقلت للجارية من أين دخل هذا الشيخ؟ ومن أين خرج؟ فقالت والله لم أره يدخل ولم أره يخرج! فرحت أجول في زوايا البيت، فلم أجد شيئاً، وارتعبتِ الجارية أيضاً، وخافت أكثر شيء على ابنها، وراحت تفتّش معي في كلّ أنحاء البيت ومنافذه، وفي الفَرْش القليل الذي كان موجوداً فيه، لكننا لم نجد شيئاً على الإطلاق، ثمّ بعد أن يئسنا سمعتُ صوتَه يقول لي: يا أبا معبد! أنا إبليس الجميل، أنا الذي كنتُ جليسك ونديمك اليوم، فلا تخَف! وإذا كان لا بدّ أن تخاف من شيء، فخف من البشر لا منّي، أما سمعتَ الشاعر العربي ماذا يقول؟

يقول الشاعر العربيّ:

عوى الذئبُ فاستَأْنَسْتُ بالذئبِ إذ عوى

وصَوَّتَ إنسانٌ فكدتُ أَطِيرُ

كاد يطير من الخوف، عندما سمع صوتَ إنسان، وهو تائه في هذه الصحاري، لكنّه أنِس لسماع عواء الذئاب الكاسرة.

ثمّ توقّف الصوت نهائيّاً، وارتميت على الأرض ساعة، مسنداً ظهري إلى الحائط، وأغمضت عينيّ، ثم ناديت على الجارية بعدما استعدت أنفاسي، فجاءت وهي تشدّ غلامها إليها، فقلت لها هل تجيدين الغناء، قالت لا! قلت كيف حفظتِ إذن هذه الأصوات التي غنّاها الشيخ إبليس، فقالت، أحفظ ما أسمع فهذه مهنتي التي أُتقنها، فإذا ما سمعت أحداً يتكلّم مدّة ساعة كاملة بلغة أجهلها، أحفظ كلّ ما قاله حرفاً حرفاً، من دون أن أفهم كلمة مما حفظت.

وغلامكِ؟

إبني نسخة عنّي من هذه الناحية.

هذه مشكلة كبرى يا جارية. قالت لا تخَف، فقد علّمتني الأيّام أن أكون حذرة في هذه المسائل، فقد أرسلني ابن جامع يوماً إلى دار إبراهيم الموصلي فوقفت عند «مستراحه» (حمّامه) أتنصّتُ عليه، وهو يؤلّف لحناً حتّى استقام له بالكامل، فحفظته وجئت به إلى ابن جامع وردَّدْتُه عليه سبعين مرّة، لشدّة ما كان صعباً، حتّى استطاع أخيراً أخْذَه، ثم غنّاه عند الخليفة فأطربه كثيراً، وأعاده إيّاه، وأعطاه، ولمّا عاد من عند الخليفة استدعاني وأعطاني حصّة من الجائزة، وقال لي إنّه مستعدّ أن يدفع لي معاشي ومعاش ابني طوال حياتي، إن بقيتُ أتنصّت له على إبراهيم، وعلى إسحاق ابن إبراهيم.

وردَّدْتُ عليه أيضاً الألحان التي كان يجرّبها إبراهيم، ثم يتركها قبل أن يستقيم له الصوت بشكل نهائيّ.

ومرّة طلب منّي إبراهيم ابن الخليفة المهديّ، أن أحفظ له صوتاً

كان يصنعه الموصليّ، فنقلته له وسجّله على دفتر. سجّل الكلمات واللحن. وأعطاني مالاً وطلب منّي أن أسكت على ذلك وإلّا اقتصّ منّي.

وبهذه الأموال اشتريت هذا البيت، ولولا ذاك لكان من المستحيل عليّ أن أشتريه، فما أنا إلّا عبدة ضجر منّي سيّدي، لأنه كان يطعمني ويُسكنني منزله ولا يستفيد منّي شيئاً، ولمّا أحسّ علي بأنني حبلى، لم يقتصَّ منّي، بل أعتقني، وتركني أسعى وحدي إلى أن منَّ الله عليّ بابن جامع، الذي اكتشفني وأخذني عند ابن الخليفة المهدي إبراهيم.

وكان بين إبراهيم ابن المهدي والموصلي الأب والابن عداء شديد، فإبراهيم الموصلي كان فخوراً بنفسه وبأصله كذلك، وكان أصله من أشراف فارس، وقد نهاه الخليفة المهديّ عن الشرب مرّة فلم ينتهِ، بل كان يجيئه أحياناً وهو منتشٍ بالشراب، وطلب منه أن يغنّيه يوماً فقال له: أغنّي للذّتي! ويقصد بذلك أنّه يغنّي حين يشاء وحين يكون الغناء على باله، ونهاه عن معاشرة ولديه موسى وهارون فلم ينتهِ، فأمر الخليفة بجلده وسجنه، فجُلد ثلاثمائة وستّين سوطاً، ثمّ ضربه الخليفة بالسيف وهو في غمده فشجّ رأسه وسقط مغشيّاً عليه، ثم سُجن وعذّب وكاد أن يموت. وكان يحبّ أن يتعلّم أولاد الأشراف الغناء، ويُقال إنه هو الذي علّم إبراهيم بن المهديّ الغناء، قبل أن تتعمّق العداوة بينهما وتستحكم. ويُقال إن ابن المهديّ كان يرغب في الخلافة أوّلاً، ثمّ تحوّل إلى الغناء شيئاً فشيئاً مع تضاؤل أمله بالخلافة.

ومرّة غنّى ابن جامع للخليفة أغنيةً سرقتُها أنا له من إبراهيم

الموصلي، وكان ذلك بحضور ابنه إسحق وإبراهيم بن المهديّ أخي الخليفة هارون الرشيد، ولمّا انتهى من أدائها سأل الخليفةُ الرشيدُ، وكان ذوّاقة من الدرجة الأولى، وعالماً بأصول الغناء، سأل إسحق عن رأيه في ما سمع، فقال له إسحق بعد صمت وتأمّل: والله يا أمير المؤمنين، إن هذا اللحن من أجمل ما سمعت، وغُنّي بصوت من أجمل الأصوات، وإذا اجتمعت صناعة أبي بصوت يخرج من حنجرة ابن جامع، وفي حضرتك بالذات، يكون في ذلك الكمال، فقال له الرشيد وما دخل أبيك في الموضوع الآن؟ قال إسحق: اللحن لوالدي! وانتفض ابن جامع واستنكر هذا الكلام وقال إنه افتراء محض، واتهم إبراهيم والد إسحق بأنه «يجيء بالغناء فيدسّه في أستاه الصبيان» (أي في مؤخّراتهم) وقال «فإن كان محسناً (أي مبدعاً) فليغنِّه هو!»، (وهذه إشارة إلى أنّ صوت إبراهيم الموصليّ، لم يكن جميلاً كصوت ابن جامع)، وانتفض ابن المهديّ وأنكر ما ادّعاه إسحق وتشارعا، ثم أسكتهما الرشيد وطلب من إسحق أن يغنّي، فغنّى من نظمه:

شربتُ مُدامة وسُقيت أخرى
وراح المنتشون وما انتشيتُ

وما إن انتهى منه حتّى قال له ابن المهديّ: لم يكن أداؤك جيّداً! أخطأتَ في بعض الأجزاء! فجنّ إسحق وقال لابن المهديّ: ما دخلك أنت في هذا الفنّ؟ ثم قام الرشيد ليبول فقال ابن المهديّ لإسحق: تجرؤ عليّ وتتهمني بالجهل يا ابن الزانية! فقال له إسحق: أنت تشتمني وأنا لا أقدر على شتمك، لأنك ابن الخليفة وأخو الخليفة، ولولا أنّك ابن من أنت وأخو من، لكنتُ رددتُ عليك وقلت لك يا ابن الزانية أيضاً! ثمّ انتبه إسحق إلى أنّه يعرّض نفسه كثيراً، فهو في الأخير يهين ابن خليفة، ثمّ تنبّه إلى

ما يجب قوله حتّى يتفادى العاقبة المشؤومة، فقال: أنت تظنّ أنّ الخلافة من حقّك وستصير إليك لا إلى ولد أخيك، لذلك أنت تعاديني، وتعادي جميع أولياء أخيك، حسداً منه ومن ولده، أرجو ألّا يُخرجها الله عن يد الرشيد وولده وأن يقتلك دونها، فإن صارت إليك ــ وبالله العياذ ــ فحرام عليّ العيش يومئذ، لأن الموت أطيب من الحياة معك. ولمّا عاد الرشيد، وثب إليه إبراهيم، وشكى له تهجّم إسحق عليه، فغضب الرشيد واسودّ لونه وقال: معقول؟ يجرؤ على هذا الكلام؟ ثمّ ألهمه الله أن يسأل الخدم، فأخبره مسرور خادمه الشهير، وحُسين خادمه المقرّب، بالخبر كلّه، حتّى انتهيا إلى ذكر الخلافة، فعاد لون وجهه إليه، وبدا عليه الانشراح من جديد، وقال لأخيه: ما عليه ذنب! شتمتَه فعرّفك أنه لا يستطيع شتمك، فالزَم حدّك! ولمّا انقضى المجلس وانصرف الناس، أمر الخليفة إسحق بأن يبقى، ولمّا خرج الجميع قال له: أنت شتمت ابن الخليفة وأخا الخليفة، أتظنّ أنّه لو ضربك كنتُ اقتصصتُ منه؟ لو أمر غلمانه فقتلوك فهل كنت قتلتُه بك؟ إيّاك أن تتجرّأ مرّة أخرى على ما تجرّأت عليه هذه المرّة، وإلّا قطعت أعضاءك، وخلطتها بعضها ببعض. ثمّ صرفه. لكن إسحق رجا الخليفة بأن يعذره قبل أن ينصرف، وقد خاف وأحسّ بجدّية الموضوع وبخطورة ما فعل، وقال له: يا أمير المؤمنين، هذه مهنتي ومهنة أبي، وهي التي قرّبتنا منك «وأوطأتنا بساطك»، فإذا نازعنا أحد عليها وهو جاهل بها، فلا بدّ لنا من أن ندافع عن أنفسنا! فقال له الخليفة إخرس، لا تقل عن أخي إنه جاهل! فانحنى إسحق وقبّل يديه ورجليه والأرض ما بين قدميه، ورجاه وهو يبكي، أن يغفر له وأن يعفو عن ذنبه، ثم رجاه أن يطلب من إبراهيم ألّا ينتقم منه وألّا يؤذيه. وبعد أن انصرف إسحق، أمر الخليفة خدمه بأن يُحضِروا له أخاه فوراً، فأحضروه فقال له:

كيف تستخف بخادمي وصنيعتي ونديمي وابن نديمي وابن خادمي وصنيعتي وصنيعة أبي في مجلسي؟ كيف تهينه بهذا الشكل في حضوري؟ أنسيت أنني أنا الخليفة يا إبراهيم! أنا الخليفة والخلافة لابني محمّد الأمين من بعدي، ومن بعده لابني المأمون، فهل سمعت؟ هذه إرادتي. وقال له: أنت ما لك وللغناء؟ ثمّ كيف تسمح للذّتك بالانتصار على شرف أصلك؟ ثمّ توعّده قائلاً: والله العظيم إذا أصيب إسحق بسوء، أو إذا سقط عليه حجر من السماء، أو سقط من على دابّته، أو سقط عليه سقف أو مات فجأة، سأقتلك! والله والله والله! ثم أمره بالانصراف، فانصرف وهو يكاد يموت من القهر. وبعد مضي فترة على هذه الحادثة عاد الرشيد وصالح بينهما وقال لأخيه: أعلم أنّ محبّتك لإسحق كبيرة، وأعلم أنّك تحبّ أن تأخذ عنه الغناء (أي أن تتعلّم منه)، ثم قال لإسحق: قم إلى مولاك وابن مولاك وقبِّل رأسه وقبّلْ يديه.

وقالت الجارية: أمّا هما فقد تصالحا، على الأقل علناً! ولكنّ القصّة كادت أن «تطلع برأسي» وكدت أن أدفع أنا الثمن، ولولا أن الأقدار شاءت أن يموت الرشيد لكنت الآن لا أعرف ماذا كان حلّ بي، لأن الرشيد، وهو الذوّاقة والعالم بالموسيقى، كان مقتنعاً بأنّ اللحن الذي غنّاه ابن جامع، قد سرقه من إبراهيم الموصلي، وقد تأكّد من ذلك بالملموس عندما طلب من إبراهيم الموصلي أن يغنّيه الصوت فغنّاه كما غنّاه ابن جامع تماماً، ولم يكن قد سمعه من ابن جامع، فسأله كيف استطاع ابن جامع الحصول عليه والادعاء أنّه له، قال: لهم طرُقُهم!

لهم طرقهم! ردّد الرشيد.

لذلك أراد أن يعرف من سرق اللحن، ومن يتجسس لإبراهيم أخيه. أراد أن يعرف كلّ شيء.

أدهشتني هذه الجارية! قال معبد للخمّار. أدهشتني بمعرفتها، فهي على علم حتّى بأمور الخليفة!
هذه بغداد يا معبد! قال له الخمّار.

لكنّ معبد باح للخمّار أنّه في الحقيقة سُرّ بهذه الأخبار لأنها تساعده على حسن التصرّف واتخاذ القرارات المناسبة في هذا الجوّ المشحون، لكنّه ازداد همُّه في الوقت نفسه، وازداد خوفه من أن «تحكي» هذه الجارية أو غلامها الأغاني التي أهداها إليه زائره إبليس، وأن تبيعها إلى أحد، فقال لها: كيف أضمن أنّكِ لن تبيعي هذه الأغاني إلى أحد؟ وأنتِ رأيتِ بعينيك وسمعتِ أنّ إبليس أهداها إليّ؟ قالت أعدك. قال وهل أنت ضامنة لابنك؟ قالت نعم أنا ضامنة له. ثمّ قال لها بعد أن فكّر قليلاً: هل أنت قادرة على النسيان كما أنت قادرة على التذكّر؟ قالت له ماذا تقصد؟ قال أسألكِ إن كنتِ تستطيعين أن تنسَي تلك الأغاني التي حفظتها عن الشيخ؟ فإن كنت تستطيعين فانسَيْ! رجاءً انسيْ ليطمئنّ قلبي. فقالت له الجارية: فليطمئنّ قلبك، لأنني سلّمتك نفسي بهذه الأسرار التي بحت بها إليك، وفضحت أمامك نفسي، وعرّيتها، فلم يبقَ عليها ستر. فقال لها ولكنّ الأحوال تغيّرت هذه الأيّام، وصارت الخلافة بعد الرشيد إلى ابنه الأمين، ومن سيهتمّ بهذه الأسرار إن ذاعت اليوم، والحالة كما ترينها، ومعركة السيطرة على بغداد باتت واقعة لا ريب، كما يقول الناس جميعاً؟ فقالت الجارية: بلى! لا أحد يعرف كيف، والسكوت أمان.

لكنّ الشكّ ظلّ يشغل بال معبد بن رباح، فمَنْ يضمن صدق ما تدّعيه هذه المرأة، ومن يضمن أنّ الغلام يأتمر بأوامرها؟

ولمّا سمع بعد أيّام هذا اللحن ذاته يغنّيه أحد المغنّين المغمورين، في أحدى حانات بغداد، في محلّة الشمّاسية، قرب دار الروم في أعلى المدينة، حيث يقيم كثير من الأشراف، ذُهل وكاد يفقد عقله. ورأى الناس يطربون إلى حدّ لا يوصف، وقام أحد الحاضرين وعلى وجهه ولباسه هيئةُ النعمة والغنى، وأعطاه بسخاء، فأحسّ معبد بالظلم عندذاك، وهو الذي لا يكاد مدخوله أن يكفيه مصاريف الأكل والشرب والمسكن، فأراد أن يصرخ ليعلن أنّ هذا اللحن ملك له، وكذلك الشعر، فجرّه حرّاس الحانة برجليه، وأخرجوه من الحانة، ومنعوه من العودة إليها إطلاقاً.

لم يصدّق أنّه سيصل إلى منزله، لشدّة ما كان غاضباً يريد أن يقبض على عنق الجارية، ويخنقها. ولمّا وصل إلى البيت، توجّه إلى فراشها مباشرة، وشدّ بيديه الاثنتين على عنقها، لكنها استطاعت أن تقول له: لا تندم! لا تندم! ثم لم ينتبه إلّا وقد دقّ الغلام رأسه، ولم يعد يدري أين هو، وبقي يومين يتأرجح بين الحياة والموت، وبين الوعي والضياع، إلى أن استعاد وعيه كاملاً، وكذلك عافيته، وكان يحلم في تلك الأثناء بأحلام لم تكن تعلق في ذاكرته، وكان ينساها على الفور، لكنّ حلماً واحداً علق برأسه، وهو حلم قديم يجيئه من وقت لآخر. فقد رأى جنّياً على شكل هرّة تزوره وتغنّي:

لقد حَثّوا الجمالَ ليهْـ

ربوا منّا فلم يئلوا

(لم يئلوا: لم يستطيعوا)

وقالت له الهرّة، انتبه يا معبد يا ابن رباح، أنا الجنّيّ لَبِسْتُ هرّة، ولستُ هرّة، وقد أكون هرّةً، فإياك أن تغنّي هذا الصوت، أنهاك عن ذلك.

وقد اهتمّت به الجارية طوال تلك الفترة، ورعته حتّى طاب. وأكّدت له أنها لم تعطِ لحنه لأحد. وقالت له: ألا تدري أين أنت؟ أنت في بغداد عاصمة الأمبراطوريّة والدنيا.

ماذا تقصدين؟ قال لها. قالت: أقصد أنّك إذا ردّدْتَ الصوت بفمك، لتُسمِعَه أذنَيك، فقد يسرقه أحد منك!
هذه بغداد يا معبدْ!

لكنّ معبدْ الذي ظنّ أنه بدأ يعتاد على الحياة في بغداد، بمرّها وحلوها، بدأ يتعب في الحقيقة من هذه الحياة الليلية والسهر في الحانات، غير أنه لا مفرّ له من ذلك، في انتظار أن تنجلي الأمور وتتضّح، ويصبح الخروج منها آمناً.

وفي ذات يوم، وقد أفاق كعادته متأخّراً، وكان ضوء النهار قويّاً، والأشياء واضحة شديدة الوضوح، كما هي العادة في بغداد في يوم في أوائل الربيع، أحسّ أنّ شيئاً ما في إيقاع المدينة مختلف عن الأيّام الأخرى. فنادى على الجارية صاحبة البيت، وطلب منها أن تخرج لتسأل عن الخبر، وعمّا إذا كان هناك من جديد، فخرجت لتعود إليه بعد قليل، وتخبره بأنّ عليّ بن عيسى بن ماهان قد قتل، وأنّ الذعر دابٌّ في الناس، وأنّ الكثير من الأشراف يستعدّون للرحيل من بغداد، لأنّ جيش طاهر بن الحسين سيبلغ بغداد، بعد مسيرة أيّام قلائل، وسيحاصرها.

لم يخبر معبد بن رباح الجارية بأنّه كان على علم بالموضوع، بل لبس ثيابه وخرج.
سألته الجارية إن كان يريد أن تحضّر له غداء فلم يجبها.

قصد معبد بن رباح منزل صديقه أبو زكّار البغداديّ الأعمى، فوجد عنده (ظَنٌّ) جارية جعفر بن يحيى البرمكي، وهي التي استدعاها الرشيد بعد أن قتل جعفر، وأمرها بأن تغنّي له فرفضت، فاستعاد منها العقد الذي كان وهبها إيّاه، وكان بقيمة ثلاثين ألف دينار، أي ما يعادل تجهيز جيش عظيم في غزوة كبرى، وكانت خارقة الحسن والجمال، ذات صوت جميل، إذا ما غنّت سحرت. وكانت راويةً للشعر وأخبار العرب وملوك الأعاجم. وقد خاف عليها جعفر من العين، فطلب فيها عيباً فلم يجد، فأمر طبيبه بأن يُحدثَ عيباً في إصبع من أصابع رجليها، حتّى لا تصيبها العين. وكانت تحبّ أن تكتب اسمَ جعفر على خدّيها. ولمّا بلغ خبرها الرشيد اشتهاها، فأحسّ جعفر بذلك، وخاف عليها كثيراً، وكان يعرف أنّ الرشيد في قلبه ينتظر منه أن يهديها إليه، أو أن يبيعها له في أسوأ الأحوال، لكنّه لم يستطع، فما كان منه إلّا أن حبّلها، حتّى يصرف الرشيد النظر عنها، فامتعض الرشيد منه وربّما حقد عليه.

ثمّ استدعاها الرشيد مرّة ثانية وأمرها بأن تغنّي فرفضت، ففقد عقله من شدّة الغضب، وقال لها وهو يصفعها بنفسه، وهل تحلمين بأكثر من أن يطلب منك أمير المؤمنين أن تغنّي له في حضرته، فماذا تطلبين أكثر من ذلك؟ هل تمّنيت مرّة في حياتك أكثر من هذه الأمنية؟ قالت بلى تمّنيت! قال ماذا؟ قالت تمنّيت أن أُقبّل رأس سيّدي ومولاي جعفر عندما حُمل إليك. لم يسمحوا

لي بالدخول إليك لأطلب منك السماح لي بتقبيله، قبل أن تأمر بطمره في مكان لا يدري به أحد! فأمر بحلق شعرها وحبسها، ومنعَها من الاهتمام بجسمها، حتّى يغزو الشعرُ معاريها، وحيث ينبت في جسمها، ومنعَ عنها الماء حتى لا تغتسل. ثمّ طلب إحضارها ذات يوم، وقد صعب عليه النوم، وتذكّر جعفرْ، فجيء بها إليه، فرقّ لها لمّا رآها على هذه الهيئة من الحزن والانكسار، لكنّه فوجئ بجمالها الذي لم يخالطه خلل، فقال لها أريد أن أخطبك، فأجابته أنها لو كان الأمر في يدها رفضت، وأنّ الناس جميعاً يعرفون ذلك، لأنها ناحت على جعفر قائمةً أمام جميع الناس. وكانت العادة إذا ناحت المرأة على زوجها وقوفاً، عُلم أنها لا تريد الزواج بعده.

أين حملك من جعفر؟ قال لها الرشيد مرّة. أجابته بأنها أسقطته ليلة الفاجعة!

كان معبد بن رباح قد سمع بظنٌّ من قبل، في بغداد بالطبع، لكنه لم يكن قد رآها.

وحين دخل معبد لم تتستّر عليه، بل بقيت كما كانت مع أبو زكّار الأعمى، على سجيّتها، سافرة الوجه عارية القدمين واليدين. وما إن دخل معبد حتى عرّفه إليها أبو زكّار، وعرّفها إليه، وقال لمعبد إنه سبق أن حدّثها عنه، ثم قطع حديثه وقال، لندخلْ فوراً في صلب الموضوع: فبعد أيّام سيحاصر طاهر بغداد بجيشه المجهّز أحدث تجهيز، والمدرّب أحسن تدريب، وبعد أشهر سيصبح المأمونُ الخليفةَ وسيدخل بغداد ظافراً!
ما أجمل السماء حين تعدل!

والله لو كنتُ أستطيع القتال إلى جانب المأمون لقاتلت. فبكت ظنٌّ وشهقت بالبكاء، حتى كاد أن يغمى عليها، ثم استطاعت أن تقول: لولا تآمر والدته، وتقصد زبيدة والدة الأمين الهاشميّة، لما كنّا على هذه الحال من البؤس والعازة. وقالت إنّ والدة جعفر مولاها المظلوم، تعيش في الفقر المدقع، وتلبس ما يتكرم به الناس عليها. لقد أتى عليها عيد كان «على رأسها» (أي في خدمتها) أربعمائة وصيفة، وصارت الآن تشتهي اللقمة. وبكت ظنٌّ وهي تحاول أن تخبر أبو زكّار ومعبدٌ كيف أنها زارتها سرّاً قبل أيّام، وأنّها قالت لها: «لقد أتى عليّ هذا العيد وما أتمنّى سوى جلد شاتين أفترش أحدهما وألتحف الآخر». وبكت ظنٌّ بكلّ آلامها وبكلّ أوجاعها، وقالت إنّها لا تحب والدة سيّدها جعفر، ولكنها زارتها عندما سمعت أنها مريضة. ما يقهرني، قالت، هو أنها تدّعي دائماً أنّ السبب في مأساتهم ونكبتهم هو جعفر، وتقول أمامي أنّ ابنها كان «عاقّاً»!

إنّ نصر الله قريب! قال أبو زكّار الأعمى، وقال أيضاً: لنفرح ونستعدّ لاستقبال المأمون، إنّ شيطان الغناء الذي انقطع عنّي من زمان، بدأ يزورني الآن من جديد! لقد قتِل عليّ بن عيسى بن ماهان وغداً الأمين إن شاء الله!

وعليّ بن عيسى بن ماهان هذا، وكما أخبرتك المرّة الماضية، هو أوّل من أجاب الأمين على خلع أخيه المأمون، وهو الذي حرّضه على ذلك، فقرّبه الأمين، وأبعد الذين لم يوافقوه، وكان بينهم خيرة القوّاد المشهورين، الذين قامت الدولة العبّاسية على أكتافهم، أمثال أبي العبّاس خُزَيمة بن خازم التميميّ الذي قال للأمين، حين جمع القوّاد وعرض عليهم خلع المأمون: «يا أمير المؤمنين، لا تُجرّئ

القوّاد على الخلع فيخلعوك، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك!» ثمّ سيّر الأمين عليّ بن عيسى على رأس جيش عظيم من خمسين ألف رجل، ولمّا اقترب من منطقة الريّ ناحية خراسان، بلغه أنّ طاهر بن الحسين، القائد الذي كلّفه المأمون بالتصدّي، أقام مع جيشه هناك، فابتسم ابتسامة سخرية، لأنه كان على ثقة أنّ طاهر لن يستطيع أن يصمد في وجهه، وقال لمن معه من قوّاده: «والله ما طاهر إلّا شوكة من أغصاني، وشرارة من ناري، وما مثل طاهر يؤمَّر على جيش، وما بينه وبين الموت إلّا أن تقع عينه على سوادكم، فإنّ السخال لا تقوى على نطاح الكباش، والثعالب لا تقدر على الأسود!».

(السخال جمع سخلة وهي ولد الخروف أو ولد المعزاة)

وقد بلغ هذا الكلام الخليفة وأعجب به، وطلب من مساعديه وخدّامه وكلّ من كان حوله، أن يحفظوه وينشروه بين الناس، على أساس أنّه منتهى البلاغة. وانتشر بين الناس أيضاً أن الخليفة قال فيه: «علي بن عيسى بابُ هذه الدولة، لا يخالف إمامه، ولا يوهن طاعته!».

وكان الجميع في بغداد، يتوقّعون أن يقضي عليّ بن عيسى على جيش الطاهر بسهولة، لأنّ أهالي بغداد خرجوا يتفرّجون على هذا الجيش الجرّار، ورأوا بأعينهم كيف أنّه لا يمكن لأحد أن يقهره. وكانوا يظنّون أنّه ذاهب في عمليّة تأديب فقط، تأديب أخي الخليفة الذي خرج على سلطته، ولم يرد على بالهم أنّ هناك جيشاً على رأسه قائد محنّك يتربّص به، ويكمن له، ويستعدّ للقضاء عليه. لذلك كانت الصدمةُ كبيرةً جدّاً.

استخف عليّ كثيراً بطاهر! قال أبو زكّار، لحسن حظّنا جميعاً، كان يعتبره لا شيء، وحين حاول ابنه، ابن علي بن ماهان، أن ينصحه وأشار عليه بأن يبعث بطلائع، ليرصدوا جيش الطاهر حيث يعسكر، وبأن ينتقي هو مكاناً مناسباً يعسكر فيه، أجابه: ليس مثل طاهر يُستعدُّ له بالمكايد! استخف به استخفافاً غير معقول، أعميَ قلبه (الحمد لله! يقول زكّار. الحمد لله! تكرّر بعده ظنٌّ)، وتوقّف دماغه عن العمل، وكان رأيه واضحاً جدّاً وبسيطاً جدّاً، ومفاده أن طاهر أمام خيارين، فإمّا أن يتحصّن في منطقة الريّ، ويبقى فيها، لأنّه بطبيعة الحال لا يستطيع أن يتقدّم، نظراً لأهميّة جيشنا وضعف جيشه، وفي هذه الحال فإنّ الناس هناك ستثور عليه، لأنّ عسكره لن يُبقي محصولاً إلا سيأتي عليه، ولن يُبقي ثمرة أو شجرة أو نبتة إلّا سيأتي عليها. وإمّا أن ينسحب عندما يرى خيولنا تقترب منه. لكنّ ابن عليّ لم يبدُ عليه أنّه اقتنع برأي والده فقال له: «إنّ الشرارة ربّما صارت ضراماً!» (الضرام هو النار الملتهبة) فأجابه والده على الفور: «اسكت! إنّ طاهراً ليس قرناً في هذا الموضع (القرن هو النظير والمِثْل والمساوي)، وإنّما تحترس الرجال من أقرانها!» فسكت ابنه على مضض، ولم يكن في يده ما يستطيع أن يبدّل به مجرى الأشياء نحو الكارثة (والحمد لله! كان يردّد أبو زكّار. الحمد لله! كانت تكرّر بعده ظنّ). وهكذا أصرّ عليّ على رأيه، وسار في جيشه نحو الريّ، حتّى اقترب من معسكر طاهر بن الحسين، فأوقف مسيرة جيشه هناك ليستطلع الأمر، ففوجئ بأنّ طاهر جادّ شديد الجدّيّة، وأنّه جهّز نفسه تجهيزاً جيّداً، وأنه متأهّب للقتال في أي لحظة، فعدل إلى رستاق من رساتيق منطقة الريّ لكي (يتياسر) عن الطريق، ونزل به وانبسطت عساكره هناك.

وكان طاهر على رأس جيش من أربعة آلاف فارس، فتقدّم حتّى أشرف على جيش علي بن عيسى، فاستطلع وتأمّل فوجده كثير العدد لكنّ تجهيزه بدائيّ، فجمع قوّاده وتداول معهم، ثم قرّ رأيه على أن لا يجابههم مباشرة، بل أن يقسّم خيله إلى كراديس (أي كتائب) وأن يظل خارج جيش عليّ بن عيسى، وألّا يلتحم به بحيث يُضطرّ إلى الاختلاط به اختلاطاً شاملاً، وكان هو على رأس كتيبة من سبعمائة فارس، جميعهم من الخوارزميّة ومن فرسان خراسان، فتقدّم بكتيبته نحو نقطة في القلب من جيش علي بن عيسى، فخرج إليه العبّاس بن الليث (وكان مولى للمهديّ ثم صار إلى الأمين)، وكان فارساً من أعظم الفرسان يركب فرساً أسود، فقصده طاهر، واقترب منه حتّى استطاع الإمساك به بيديه الإثنتين، وشدّ عليه شدّاً لوى على أثره العبّاسُ وانثنى، واستطاع طاهر أن يقضي عليه. ثمّ استطاع أحد قوّاد طاهر (وكان معروفاً باسم داود سياه)، أن يبلغ مع فرقته عليّ بن عيسى وأن يشتبك معه، واستطاع أن يضربه ضربة قضت عليه فوقع عن فرسه، وانكب عليه الرجال يتابعون ضربه، وتسابقوا في قطع رأسه، وكذلك في قطع إصبعه التي فيها خاتمه. واقتلع أحدهم خصلة من شعر لحيته. أمّا الرجل الذي ذبحه فكان يعرف بطاهر بن الراجي. ثم سُلّم الرأس إلى أحد وجوه القوّاد، وهو أحمد بن هشام، وكان قد ظُنَّ أنّه قتل في المعركة، فحمله إلى طاهر، وقال له حين وصل إليه: البشرى! البشرى! جئتك برأس عليّ وهو مع غلامي في المخلاة، ثم طرحه أمامه، ثم أتى بجثّته وقد شُدّت يداه ورجلاه كما يفعل بالدواب إذا ماتت، فنظر طاهر في الرأس فابتسم، لكنّه ارتاب قليلاً لأنّ الرأس كان مشوّهاً، بسبب الضرب عليه قبل قطعه، فاستدعى طاهر من يعرف علي بن عيسى جيّداً، حتى اطمأنّ نهائيّاً إلى أنّه رأسه بالذات، فأمر حينذاك بإلقاء الجثّة في بئر، وكتب إلى كبير

مساعدي المأمون وكان وقتذاك الفضل بن سهل، كتب إليه يقول: «أطال الله بقاءك، وكبّت الله أعداءك، كتابي إليك ورأس عليّ بن عيسى بين يديّ، وخاتمه في إصبعي، والحمد لله ربّ العالمين». فنقل الفضل الخبر فوراً إلى المأمون فسُرّ كثيراً. وسلّم عليه الفضل بالخلافة في تلك اللحظة.

نعم بالخلافة!
وكانت تلك أوّل مرّة يسلّم عليه بالخلافة.
وأنا أسلّم عليه بالخلافة كلّ يوم، أضاف أبو زكّار، في قلبي وفي سرّي، وفي العلن قريباً إن شاء الله.

ولمّا بلغ الأمين خبر مقتل قائده عليّ بن عيسى بن ماهان، فهم فوراً أنّ المعركة المقبلة ستكون معركة بغداد، لأنّ هذا النصر سيُغري، بلا أدنى شكّ، أخاه المأمون بالمزيد وسيأمر طاهر بالتقدّم، وهذه بالتأكيد رغبة طاهر، فهل أعظم شرفاً بالنسبة إلى قائد عسكريّ، من أن يخلع خليفة ويولّي آخر. لن يبقى طاهر إذن في الريّ طويلاً، سيتقدّم نحو بغداد ما إن ينهي الاستعدادات اللازمة. لذلك كان عليه، أي الأمين، أن يتخّذ قرارات خطيرة لمعالجة الوضع الخطير، بدون إبطاء. وكان قراره الأوّل هو تسليح العيّارين وشحنهم ضد الجيش القادم من خراسان. ثمّ فتح السجون لكلّ من أراد القتال أو العمل في القطاع اللوجستي، وأجرى تشكيلات في قيادة جيشه، فعيّن كثيراً من الشباب ومن الرتب الدنيا مكان الذين كانوا في الواجهة، وباع ذهباً كثيراً وأحجاراً كريمةً، وأراد أخيراً أن يُطمئن الناس، حتى لا تفرغ بغداد من سكّانها، فأغدق بشكل لافت على المغنّين وعلى «الممثّلين» الذين كانوا يلعبون في شوارع بغداد وساحاتها العامة. وأقام مجلس غناء بعد مقتل علي

ابن عيسى بمدّة قليلة. وربّما أنه حزن لمقتله واستشعر الهزيمة، فأراد أن يغنّي، فبعث إلى المغنّين يأمرهم بالحضور. وبعث إلى إسحق بن إبراهيم بن ميمون الموصلي، لكن إسحق كان اختفى، واختفت عائلته معه. يبدو أنّه هرب من بغداد خوفاً من الحرب المقبلة، فالأخبار كانت تتواتر عن تقدّم طاهر، ثمّ إنّ الوضع بالنسبة إلى إسحق كان أكثر تعقيداً، وحسابات إسحق كانت غير حسابات الآخرين، فجميع الناس يعرفون أنّ إسحق هو آفة إبراهيم بن المهديّ. كان إبراهيم هذا يكرهه حتّى الموت، وهذا أمر معروف، وكان يكره أباه أيضاً إبراهيم بن ميمون الموصلي، وابن المهديّ ملازم في هذه المرحلة لابن أخيه الأمين، وهو يعتقد أنّ ما يجري ليس سوى قلاقل واضطرابات تمرّ بها الخلافة، وستنتهي بانتصار الخليفة لا شكّ. لكن الأخطر من ذلك، هو ما بلغ إسحق عن ابن المهديّ، أنّه يتهيّأ حتّى يعلن نفسه خليفة، كحلّ وسط لوقف سفك الدماء، إذا ما عجز واحد من الأخوين عن خلع الآخر.

لم يكن إسحق على ثقة بأنّ المأمون سينتصر ويعزل أخاه، لكنه كان يرجّح هذا الاحتمال. وإذا أراد الإنسان، في مثل هذه الحالات، أن يربح كثيراً، عليه أن يخاطر، فقرّر أن يلعب ورقة المأمون، وهرب خارج بغداد حتى لا يُحسب على الأمين، وحتّى يستطيع بيع هذا الموقف فيما بعد، إذا ما ربحت ورقته.

ثمّ إنّ الرشيد عندما أراد تعيين وليّ عهده، احتار ما بين ولديه محمّد·الأمين وعبدالله المأمون، فبنو هاشم، أي الأرستقراطية العربية التي منها الخليفة الرشيد، تريد الأمين، والسبب، على ما قيل، أنّ والدته زبيدة هاشميّة أيضاً، لكنّ الرشيد كان يرى أنّ ابنه محمّد الأمين ينقاد لهواه، ويترك النساء يشاركنه في الرأي، وكان مبذراً

لما بين يديه. أمّا عبد الله المأمون، وكانت والدته فارسيّة اشتراها الرشيد وتزوّجها، فكان حادّ الذكاء، سديد الرأي، يعرف أوزان الأشياء، وكان الرشيد ميّالاً إليه، وكذلك كان كبير مستشاريه ومساعديه يحيى بن خالد بن برمك، لكنّه لم يكن ليستطيع مقاومة إرادة بني هاشم، وهو لا يريد ذلك لأنّه يُجلّهم، وقد اشتهر عنه ما قاله لمؤدّب ابنه الأمين: «أقرئه القرآن وعرّفه الآثار وروّه الأشعار... وخُذْهُ بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه».

كان الرشيد يريد إقناع بني هاشم بعبد الله المأمون، فلم يستطع.

ثمّ كتب أخيراً وصيّته بهذا الخصوص، بعد دراسة متأنيّة، وتداولٍ طويلٍ وشاقّ مع مساعده يحيى البرمكي، وقد نصّت الوصيّة على أن تكون الخلافة بعد موته لابنه الأمين، ثمّ لأخيه المأمون من بعده، وفي الليلة ذاتها التي تمّ فيها اتخاذ هذا القرار، تمّ اتخاذ قرار آخر هو تولية الأمين على العراق، وتولية المأمون على خراسان. ودخلت أمّ جعفر في تلك الليلة على الرشيد وقالت له: ما أنصفتَ ابنك محمداً حيث ولّيته العراق وعرّيته (أي أبعدته وأخذت منه) عن العدد والقوّاد (أي الجيش المدرّب)، وصيّرتَ ذلك إلى عبد الله دونه! فردّ عليها الرشيد يومها بقوله: ما لكِ وللسياسة التي هي من اختصاص الرجال؟ إنّي ولّيتُ ابنكِ السِّلمَ، وولّيت عبد الله الحرب، وصاحب الحرب أحوج إلى الرجال من المسالم، ورغم ذلك نحن نتخوّف على عبد الله من ابنك، ولا نتخوّف على ابنك إطلاقاً من عبد الله!

وكان من بين الشهود على هذه الوصيّة التي سُمّيت كتاب العهد يومذاك، أخو الرشيد إبراهيم بن المهديّ، وقد علّقت في الكعبة

بالذات، حتى لا يبقى أحد في الأرض ليس على علم بها، وقد ظنّ الرشيد أن هذا التدبير قد يشكّل نوعاً من ضابط أدبي، يدفع الاثنين إلى الالتزام الدائم بها.

لكنّ زبيدة لن تنسى كيف استوقف جعفر بن يحيى ابنَها الأمين، وهو يريد الخروج من الكعبة وإلى جانبه عمّه إبراهيم بن المهديّ، وقال له: إنْ غدرتَ بأخيك خذلك الله! وأجبره على القسم بذلك ثلاث مرّات، ولم تمضِ بعدُ دقائق على قسَمِه الواضح الصريح أمام والده الرشيد بأنّه سيحترم العهد وسيعمل بالوصيّة!

ورغم كلّ تلك الأيمان الغليظة، والشهود، وإشهاد الملأ، فإنّ ابن المهديّ لم يرفع صوته بشيء عندما اتخذ الأمين قراره بخلع أخيه المأمون. لم يعترض ولم يحذّر ولم يلُم ولم يحرد ولم ينصح ولم ولا شيء، وكأنّ قرار الأمين هذا أمر طبيعيّ متوقّع.

ولمّا علم الأمين بهرب إسحق، سأل عمّه ابن المهديّ عن الأمر، ففوجئ بالسؤال لأنّه لم يكن على علم بذلك. وكان إسحق قد هرب سرّاً مع أولاده وزوجاته وأمّه، وخدمه وجواريه وغلمانه، وأعواده، والآلات الموسيقيّة الأخرى التي كان يضرب عليها ويحبّها، وأخذ معه أكياساً عظيمة من الدنانير والدراهم والذهب والأحجار الكريمة الأخرى، والكتب التي ألّفها في الموسيقى، وكذلك لائحة بأسماء الأغاني التي لحّنها والده، وكلماتها وطريقة تلحينها، ولم يستطع الأمين شيئاً، سوى أن أهدى بيوته التي أخلاها، إلى وجهاء العيّارين، وفقراء بغداد وعامّتها، ليقيموا فيها.

وبالعودة إلى رغبة الخليفة في إقامة مجلس غناء، فقد انتبه إبراهيم

ابن المهديّ، الذيّ كلّفه الخليفة بدعوة المغنّين، إلى أنّ المغنّي بسخنّر قد اختفى أيضاً، وكذلك ومالك وآخرون من الطبقة الأولى، وكثيرون من مغنّي الدرجة الثانية، فاستدعى على الفور معبد بن رباح، وكان قد سمع به، فامتحنه بحضور أخته عُليّة بنت المهديّ، فأعجب به، وأجازه (أعطاه) بضع مئات من الدراهم، وأعجبت به أيضاً عُليّة، وطارحته لحناً من صنعها، ومن كلماتها، فأدّاه أحسن تأدية، ووعدته بأن تدعوه إلى عندها بعد أن تهدأ الأحوال، قريباً إن شاء الله، لتعلّمه أصواتاً تريد أن يغنّيها بصوته إلى الخليفة، وأجازته بضع مئات من الدراهم.

وهكذا نصح إبراهيم بن المهديّ الخليفة الأمين بدعوة مغنّ شاب، ليس معروفاً بعدُ في الأوساط الفنّية في بغداد، ولا يلتزم بيت أحد من الأشراف، واسمه معبد بن رباح، وقد وصل إلى بغداد حديثاً، ولم يمضِ على وصوله بعد وقت طويل، «وسيعجبك لا شكّ، وسيكون بين المفضّلين لديك».

لم يصدّق معبد بن رباح ما جرى له فجأةً في هذه الأيّام الأخيرة. فهل هو في حلم أم أنّها الحقيقة الواقعة الملموسة؟

ففي بضعة أيّام فقط، امتحنه ابن المهديّ وأخته عُليّة ودعاه الخليفة بالذات إلى مجلسه!
يا إلهي!
عندما تريد الحياة أن تعطي!

يحبّ معبد صديقه أبو زكّار، ويتعاطف معه من كلّ قلبه، وقد بكى للظلم الذي لحق به، وسالت دموعه حتّى بللت لحيته، وهو

يستمع إلى ظنٌّ تحدّث عن مأساتها، لكنّه في الوقت نفسه لا يمكنه أن يرفض دعوة من الخليفة! هذا حلم سماويّ يتحقّق. هذه هدّية ربّانيّة لا يستطيع أن يرفضها. هذه معجزة إلهيّة فكيف يمنع حدوثها! وقع اختيار العناية الإلهيّة عليه، هو الذي لم يحظَ حتّى الآن بأمير أو شريف يدعوه ليغنّي له في بيته؟

يحبّ معبد بن رباح صديقه أبو زكّار، ويحبّ جارية جعفر البرمكيّ المظلوم ظَنٌّ، لكن فرصة العمر الآن سنحت، فمن العبث تفويتها. وكان الحلّ المثالي لهذا التناقض بين الصداقة والمصلحة، هو زيارة أبو زكّار وإطلاعه على أمر الدعوة والتحادث معه. وهكذا كان. سُرّ أبو زكّار كثيراً لصاحبه، لكنّه حذره في الوقت نفسه من أنّ أيّام الأمين باتت معدودة، وأنّ كلّ من هو حوله الآن، وكلّ من يدور في فلكه، سيكون مرذولاً ومضطهداً فيما بعد. وأخبره بهرب إسحق بن إبراهيم الموصليّ، فخاف معبد واضطرب، لكنه في الأخير قال: آخذ المكافأة التي سيعطيني إيّاها الخليفة، وأهرب بها إلى أقاصي الأرض، مع ابنتي وزوجتي اللتين تنتظراني في الحجاز، أو أهرب بها معهما إلى اليمن، كما هرب الغريض المغنّي إليها، خوفاً من نافع بن علقمة والي الخليفة الوليد على مكة، وبقي فيها حتّى مات.

لكنّ الغريض لم يمت ميتةً طبيعيّة إن كنتَ لا تعلم! قال له أبو زكّار.

ففوجئ معبد بهذا الخبر، وقال له: كيف مات إذن، قال إسمع:

بعدما ألحّ نافع بن علقمة، والي مكّة، في طلب الغريض، هرب سرّاً إلى اليمن، وأحسّ فيها بالأمان، وقرّر أن يُقيم فيها طَوال

حياته، رغم أنّه لم يكن يرتزق فيها شيئاً بغنائه، فقد كان هذا الفنّ في اليمن في تلك الأيّام لا يُربح شيئاً. وذات يوم، استدلّ عليه أصحاب له تجّار يعشقون غناءه، وقصدوه إلى حيث يقيم، فوجدوه في منطقة بعيدة لم تبلغها حضارة بعد. ولمّا رآهم بكى، فقالوا له ما الذي يبكيك، قال: «وكيف يطيب لي أن أعيش بين قوم يَرونني أحمل عودي فيقولون لي: يا هِناه! أتبيع آخرة الرَّحل!» (ظنّوا أنّ العود هو المقعد الذي يوضع آخرَ ظهر المطيّة) ثم قال: أحنّ إلى بلادي، والعمل هنا كمغنٍ لا يدرُّ عليّ شيئاً. ثم طلبوا منه أن يغنّي لهم فرفض، لكنهم ألحّوا عليه، وقالوا له إنهم قصدوه من بعيد حتى يسمعوا منه شيئاً، فاستجاب لهم أخيراً، فقاموا عندئذ وذبحوا شاة، وخرطوا من مصرانها أوتاراً، شدّها على عوده، واندفع يغنّي:

هُمُ رَكبٌ لقوا ركباً
كما قد تجمع السبُلُ

فطربوا وسرّوا سروراً لا يوصف، وعادوا وكرّروا محاولتهم لإقناعه بالعودة معهم إلى الحجاز، «فكلّ بها يشتاقك»! قالوا له. وظلّوا يُرغِبونه، ويَعِدونه بالتوسّط لدى نافع بن علقمة، حتى اقتنع معهم، ثم مضوا لينهوا أعمالهم، على أن يعودوا بعد أيّام، ويأخذوه معهم، ولمّا عادوا وجدوه مريضاً، فسألوه عمّا جرى، فأخبرهم أنّ «قوماً» دخلوا منزله في الليل دون استئذان، وطلبوا منه أن يغنّي لهم، فتطيّر منهم وخاف، لكنه لم يكن يستطيع التهرّب، فغنّى لهم بعض الأغاني، ثم طلبوا منه أن يغنّيهم:

لقد حثّوا الجمالَ ليهْـ
ـربوا منّا فلم يئلوا

فغنّاها، لكنه قبل أن ينتهي منها قام واحد منهم «أَزَبُّ» (أي كثير الشعر) وقال: «أحسنتَ والله!» وضربه على رأسه، فسقط فاقداً وعيه، لا يدري أين هو. «ولا أراني إلّا سأموت» قال الغريض لأصحابه. ثم أقام عنده أصحابه وأسعفوه لكن عبثاً. كانت الضربة قاضيةً، فمات منها، ودفنوه وانصرفوا!
هكذا مات الغريض يا معبد!

فقال له معبد: لم أكن أعرف هذه الرواية. كنت أعرف روايتين فقط عن وفاته، الرواية الأولى أنّه مات بعد أن غنّى هذا الصوت بالذات:

لقد حثّوا الجمالَ ليهـ
ربوا منّا فلم يئلوا

لأنّ الجنّ علّمه إيّاه، ونهاه عن غنائه، إلّا في المكان المناسب، ولكنه لم يقل له أين ومتى يكون المكان المناسب. والرواية الثانية هو أنه مات ميتة طبيعيّة، بعد أن أقعدته الشيخوخة، وهو متخفٍّ في اليمن.

قال أبو زكّار، أعرف هاتين الروايتين، وأعرف روايات أخرى أيضاً، لكنني رويت لك هذه فقط، لأنّ في ذلك مصلحتك.
ــ فهمت؟

أجابه معبد بلا تردّد: فهمت بالتأكيد! لكن ما العمل في رأيك؟ قال أبو زكّار: لا شكّ أنّه لا يمكنك أن تتهرّب من الذهاب لعنده. لكن ماذا ستغنّي له؟ قال معبد: بتُّ ليلة وأنا في الطريق إلى بغداد قرب دير، فسمعت الرهبان في الليل يغنّون لحناً رائعاً،

فأخذته وغنّيت فيه هذا الشعر:

يا أمّ بكرٍ حبّكِ البادي
لا تصرِميني إنني غادي

فقال أبو زكّار: انتبه! هذا الشعر لسعيد الأنصاري، وهو شاعر من شعراء الدولة الأمويّة، التي دفع العبّاسيّون الدماء لقلبها، وهو لا يُعدّ من فحول الشعراء، وقد قصد خلفاء بني أميّة فمدحهم وأعطوه، وخصوصاً الوليد بن يزيد. سيهزأ منك ومن جهلك ومن اختيارك جميع الحاضرين، ولن تكون بالنسبة إليك فاتحة جميلة، بل بالعكس، سينتشر صيتك بين الناس على أنّك بلا فطنة ولا ذوق. إنّ سعيد بن عبد الرحمن هذا أنشد الوليد شعراً ذات مرّة فأبكاه. وأراد مؤدبّ الوليد مرّة، وكان لوطيّاً زنديقاً، أن يلوطه، (هكذا يقول العبّاسيّون الآن)، فذهب وأخبر الخليفة هشام بن عبد الملك عمَّ الوليد (وكان يكره الوليدَ ويريد خلعه عن ولاية العهد) وقال له:

فقال له هشام ولماذا؟ قال:

إنّه واللهِ لولا أنت لم
ينجُ منّي سالماً عبد الصمدْ
إنّه قد رام منّي خطّةً
لم يرُمْها قبله منّي أحدْ

قال هشام وما هي؟ قال

رام جهلاً بي وجهلاً بأبي
يُدخِل الأفعى إلى خيسِ الأسدْ

(الخيس هو مخبأ الأسد، والكناية واضحة لا تخفى)

سيضحكون عليك إذن وعلى الأمويين جميعاً، وربّما ظنّوا أنّك من

مناصريهم، رغم أنّ أيّام الأمويين انقضت من زمان، منذ عشرات السنين، وقد هُدمت قصورهم وقُتلوا. ومن لم يقتل منهم نفى نفسه إلى أقاصي الأرض، وادّعَى اسماً آخر، وعمل كما يعمل الناس العاديون حتّى يستطيع العيش. وقد نبشت قبورهم التي فيها دفنوا منذ عشرات السنين، وأُخرج ما تبقّي منهم فيها إلى النور، فأُهين وأحرق، وذُرَّ رماده في الهواء وماء الأنهر حتى لا يبقى منهم أثر.

وكم كانت تكبر فرحة الباحثين عن بقايا الأمويّين عندما كانوا يقعون على هيكل عظمي ما زال متكاملاً، فيعمدون إلى صلبه وجلده، قبل أن يحرقوه ليحوّلوه إلى ذرّات زائلة من غبار كونيّ.

انتبه! قال أبو زكّار. وقال: أما تعلم ما قاله أبو جعفر المنصور (الخليفة العباسيّ الثاني بعد العبّاس السفّاح)، قال في خطبة له بعد أن قَتل أحد العاصين عليه: «أيها الناس، لا تخرجوا عن أنس الطاعة إلى وحشة المعصية!» فانتبهْ! وقالت له ظَنٌّ إطلِ حاجبيك بدهن أبي أيّوب، فقال لها وما دهن أبي أيوب؟ قالت هو الدهن الذي كان يطلي به حاجبيه أبو أيّوب وزير المنصور، وكان المنصور قد عزم على قتله لأنّه اتهمه «باحتجان الأموال» (أي بالبخل بها على الناس ومنعها عنهم) واتهمه أيضاً بسوء النيّة، وكان الوزير على علم بذلك، فاستطاع الحصول على دهن فيه شيء من السحر كان يطلي به حاجبيه، قبل الدخول على المنصور، فصارت له شهرة في الخاصة والعامة من الناس.

وهل عفا عنه المنصور؟ قال معبد. لا لم يعف عنه قالت ظَنٌّ، بل قتله أخيراً بعد أن تمكّن منه. وما نَفعَه هذا الدهن إذن؟ قال معبد.

نفَعه في أنّه أخّر تنفيذ رغبة المنصور أشهراً بل ربما أكثر. وما ضرره؟ قالت ظَنّْ.

وهكذا قرّر معبد بن رباح أن يحصل على هذا الدهن الذي ليس منه أي ضرر، وإن لم تكن له فائدة.

وقرّر بعد تفكير طويل، أنْ يغنّي الخليفة لحناً في شعر أبي نواس، الذي يقول فيه:

وإن جَرَت الألفاظُ منّا بمدحةٍ
لغيركَ إنساناً فأنت الذي نَعني

وقرّر أن يغنّي أيضاً لحناً في شعر أبي العتاهية، الذي يذكّر فيه الخليفةَ الرشيد بوعده بتزويجه من الجارية عتبة:

ولربّما استيأستُ ثمّ أقولُ لا
إنّ الذي ضمنَ النجاحَ كريمُ

وهما لحنان معروفان في أوساط الخاصّة، ومختلف في هويّة مؤلّفهما. فبارك أبو زكّار اختيارَه هذا، وإن لم يكن مقتنعاً به في أعماق قلبه، وتمنّى له النجاح، وكرّر عليه نصيحته بألّا يورّط نفسه أكثر من اللزوم، لأنّ الأمين لا بدّ سيُخلع قريباً وسيحلّ محلّه المأمون.

حافظ على خطّ الرجعة! هذا ما أنصحك به باختصار. قال له أبو زكّار عشيّة اليوم الموعود.

ودخل معبد إلى قصر الخليفة، في صحبة إبراهيم بن المهديّ، لكن

وراءه بالطبع. ثم تركه إبراهيم للخدم ليجلسوه في المكان المخصّص له، وذهب ليسلّم على ابن أخيه الخليفة وراء ستارته.

لم يكن معبد يعرف أحداً من الحاضرين، لكنّه استطاع تمييز المغنّين من لباسهم، فكلّ واحد منهم كان على هيئة مختلفة اختارها لنفسه. لم يكن إسحق بن إبراهيم الموصلي بينهم بالتأكيد، لأن معبدْ كان يعرف أنه هرب من بغداد.

وكان عدد الحاضرين قليلاً جدّاً، اختارهم الخليفة من بين أخلص ندمائه وأقرب الناس إليه، وهؤلاء كانوا إلى جهة أخرى من القاعة، غير الجهة التي كان فيها المغنّون، وكان كلّ واحد منهم جالساً على مقعد حسب مرتبته وقربه من نفس الخليفة.

ثم جيء بالطعام، فأكلوا، وأكل معبد بانتباه وحذر، فالنّهَم في حضرة الخليفة غير مقبول، فعلى طاولة الملك يجب أن يأكل الإنسان على مهل وباعتدال. عليه ألاّ يعطي الانطباع بأنّ هذه مناسبة سانحة يجب استغلالها. الخليفة لا يحبّ ذلك.

ثم بعد الطعام جاء الخدم بالماء فاغتسلوا وتَمَسْوَكوا (نظّفوا أسنانهم بعيدان من المسواك)، ثمّ جاء دور النبيذ!

هذه هي القاعدة الفضلى في قصور الخلفاء والأمراء والأشراف، وعند كلّ من أحب الشرب وأتقن طقوسه، الطعام أولاً ثم الاغتسال، ثم مرحلة الشرب التي تمتدّ إلى ما شاء الله.

ثمّ سمع معبد بن رباح صوتاً يعلن قدوم الخليفة، ورغبتَة هذه الليلة

بإزالة الستارة ما بينه وبين المدعوّين، فخفق قلبه، ثمّ أزيلت الستارة، وأطلّ الخليفة بذاته وبكلّ بهائه، كينونةً مختلفةً، فوقف الجميع احتراماً، الكبير والصغير والمغنّي والقائد والأمير والكاتب والوزير، وصفّقوا وهتفوا بحياته، وبنصر الله له على أعدائه.

انتبه معبد بن رباح إلى أنه يلهث بشدّة، كأنّه يركض من دهر، وأن صدره يؤلمه، ثم أغمي عليه، لكنّه استعاد وعيه بعد لحظة، على الفور، لحسن حظّه، وشكر العناية على استدراكها إيّاه.

كيف يمكن لأبو زكّار ألّا يحبّ الخليفة؟ قال في نفسه. بل كيف يمكن لأحد، كائناً من كان، ألّا يحبّ الخليفة؟ وأحسّ بسائل يبرد بين فخذيه. لقد استمنى بدون أن ينتبه؟ أو بال؟ أو ربما الاثنان معاً؟

الآنَ الآنَ فهم معبد بن رباح، لماذا ليس بين الحضور نساء! ولماذا لا يُسمَح للنساء بمنادمة الخليفة، والله لو كان بين الحضور امرأة، لشهقت شهقتها الأخيرة!

والله لو كنتُ امرأة لحبلتُ من طلّته هذه! قال معبد في نفسه.

غنّت إحدى جواري الخليفة المفضّلات أوّلاً، «ضَعف»، لحسن حظّه، لأنه يستحيل عليه الآن أن يستعيد أنفاسه، وأن يسيطر على نفسه ليستطيع التركيز والإجادة.

وضعت ضعف العود في حجرها واندفعت تغنّي:

كُلَيْبٌ لَعمْري كان أكثر ناصراً

وأكثرَ حزماً منكَ ضُرِّج بالدّمِ

فتطيّرَ الأمين من هذه الأغنية، وعبق لونه فوراً، وقال لها «اسكتي قبّحكِ الله!».

لأنّ كُليباً قُتل! وكان سيّد بني تغلب، القبيلة الشهيرة في الجاهليّة والإسلام، وهو من الشجعان الأبطال، الذين كانوا كالملوك من حيث أهميّة سلطانهم، كانت «منازله» (أماكن تجواله وإقامته مع قومه) في نجد وأطراف نجد، وبلغ من هيبته أنه كان يحمي «مواقع السَحاب» فيقول مثلاً: ما تظلّله هذه السحابة هو في حِمَاي! فلا يعود أحد يجرؤ على أن يرعى قطيعه في أي مكان من الأمكنة التي تظلّلها هذه السحابة. حتّى ذهب سلطانه مثلاً، فكان يُقال لمن كان آمناً: «هو في حمى كُليب»، وقتله جسّاس بن مرّة البكريّ (أخو زوجته!) واشتعلت على أثر مقتله حرب البسوس، بين قبيلتي تغلب وبكر، وكانت أطول حرب في الجاهليّة، ودامت أربعين سنة.

وإيّاه عنى النابغة الجعديّ بقوله:

كُلَيْبٌ لعمري كان أكثر ناصراً
وأكثر حزماً منك ضُرّج بالدمِ

«اسكتي قبّحك الله!» قال لها الأمين، لأنّ المعنى واضح، فكُليب الذي كان ملكاً أو كالملك، والذي كان مثالاً في القوّة والشجاعة، قُتل و«ضُرِّج بالدم». وقطّب الخليفة حاجبيه، وانغلق على نفسه، فاقترب عظماء الحاضرين منه، وراحوا يحدّثونه ويخففون عنه، ويطمئنونه، إلى أن عادت إليه ابتسامته، ثم أمرها بالغناء من جديد.

وضعف كانت في الحقيقة من خواصّ جواريه، وكانت في غاية الهمّ والخوف على الأمين من أخيه المأمون، وكانت خائفة على

مولاها الخليفة ومضطربة، ولم تكن بالتأكيد تظنّ أنّ أيّاماً فقط، أو أسابيع، تفصل الخليفة عن نهايته المأساويّة.

أمرها إذن أن تغنّي من جديد فغنّتْ:

هُم قتلوه كي يكونوا مكانَهُ
كما غدرتْ يوماً بكسرى مرازبُهْ

(المرازب جمع مرزبان، والمرزبان هو القائد أو الرئيس)

المعنى واضح، وهي في الحقيقة تقول خوفها وهواجسها لا رغبتها، فنهرها وأسكتها من جديد وسبّها، ثم قال لها غنّيني شيئاً آخر، فغنّته:

كأنْ لم يكن بين الحَجُون إلى الصفا
أنيسٌ ولم يسمُرْ بمكّةَ سامرُ

وهو صوت معروف، ويحبّه الأمين ويطلبه دائماً عندما يكون في عزّ نشوته وطربه. لكن يبدو أنّ المعاني كثيراً ما توجدها الظروف، وبلغ غضب الخليفة أقصاه، لأنّ قائل هذا الشعر هو مُضاض الجُرهُمي (أي من قبيلة جُرهُم). وكان اسم جدّه أيضاً مضاض، وجدّه هذا هو الذي تزوّج ابنتَه إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن، وأنجب منها «نابت» الذي تولّى شؤون البيت الحرام بعد وفاة أبيه إسماعيل. لكن نابت مات باكراً، وتولّى شؤون البيت بعده جدُّه لأمّه مُضاض بالذات.

ومنشأ قبيلة جرهم بلاد اليمن، وعندما وصلت في ترحالها إلى مكّة، رأت بلداً طيّباً، وماء وشجراً، فأقامت فيها مع ملكها مُضاض.

وكانت العادة أن تخرج القبيلة من اليمن، وعلى رأسها ملك يملّكونه عليهم.

ويقول الرواة إنّ قبيلةً أخرى، اسمها قَطُوراء، على رأسها السُمَيدَع، جاءت أيضاً من اليمن، وأقامت في مكّة، لمّا رأت فيها بلداً طيّباً وماء وشجراً.

وقد أقامت جرهم في أعلى مكّة، وأقامت قَطوراء في أسفل مكّة، وقَبِلَ كلّ واحد بالآخر، فكان مضاض «يعشِر» من جاء مكّة من أعلاها (أي يأخذ عشر المال)، وكان السُميدع يَعشِر من جاءها من أسفلها، إلى أن اقتتلوا ذات يوم، وسُفكت الدماء، ثمّ «اصطلحوا» بعد أن تسلّم مُضاض أسفل مكّة أيضاً، «فنحر» للناس، وذبح لهم الذبائح.

ويقول الرواة، إن سيلاً جاء فدخل البيت فانهدم، فأعادت جرهم بناءه.

ومع مرور الأيّام، بدأ الجرهميّون يستخفون بحقّ البيت، وراحوا يرتكبون فيه أموراً عظاماً، ويحدثون فيه أحداثاً قبيحةً. ولمّا كثر بغيُهم، قال لهم مضاض الشاعر الحفيد: «احذَروا البَغْيَ فإنّه لا بقاء لأهله، وقد رأيتم من كان قبلكم من العماليق، استخفّوا بالحرم، ولم يعظّموه، وتنازعوا بينهم واختلفوا، حتّى سلّطكم الله عليهم، فاجتحتموهم فتفرّقوا في البلاد، فلا تستخفّوا بحق الحرم وحرمة بيت الله، ولا تظلموا من دخله وجاءه معظّماً لحرماته أو خائفاً، أو رغب في جواره، فإنكم إن فعلتم ذلكم، تخوّفتُ أن تخرجوا منه خروج ذُلّ وصَغار، حتى لا يقدر أحد منكم أن يصل إلى الحرم،

ولا إلى زيارة البيت، الذي هو لكم حرز وأمن، والطير تأمن فيه!».

ولكنّهم لم يقتنعوا، على ما يبدو، بنصيحة مضاض الحفيد الشاعر، لأنهم كانوا مقتنعين بأنهم من القوّة بحيث إنّ أحداً لا يستطيع إخراجهم، فكانوا، كلّما حاول نصحهم، يردّون عليه بالقول: ومن الذي يُخرجنا منه؟ ألسنا أعزَّ العرب، وأكثرهم مالاً وسلاحاً؟

ودامت الحال هكذا، إلى أن هربت القبائل من مأرب في اليمن، خوفاً من سيل العرِم، وانتهى المسير بقبيلة خُزاعة إلى مكّة، واقتتلت مع جُرهُم التي رفضت أن يجاورها أحد، وانتصرت خزاعة، وصار أمر مكّة إليها، وتفرّقت جرهم، وقُتِل منها الكثير، ولم ينجُ برأسه إلّا من هرب. وكان مضاض من بين الذين هربوا، لكنه أرسل إلى بني خزاعة، بعد مدّة من الوقت، يستأذنهم بالعودة، فرفضوا رفضاً قاطعاً، بل تشدّدوا بعد ذلك، في منع أيّ جرهميّ من الاقتراب من مكّة، وقد قال لهم سيّدهم: من رأى منكم جرهمياً قد قارب الحرم فدم هذا الجرهميّ مهدور! وفي تلك الأثناء «نزعت» إبلٌ لمضاض إلى مكّة، وكانت في قَنَوْنَى أوّل اليمن، فسار مضاض في طلبها، حتى أطلّ من مكان مشرف على مكّة، فرأى رجالاً من خزاعة تذبح إبِلَه وتأكلها، فخاف وعاد دون أن يفعل شيئاً. وفي هذه المناسبة قال قصيدته الشهيرة:

كأنْ لم يكنْ بينَ الحَجُون إلى الصَفا
أنيسٌ، ولم يسمُر بمكّةَ سامرُ
بلى! نحن كنّا أهلَها فأبادنا
صروفُ الليالي والجدودُ العواثرُ

(الحَجون، كما ورد في كتاب معجم البلدان، جبل بأعلى مكّة

عند مدافن أهلها، ومنهم من يقول إنه الجبل المشرف على شِعب الجزّارين قرب مسجد البيعة.

الصفا، مكان مرتفع من جبل أبي قبيس في مكّة.
صروف الليالي، تبدّل الأيام وتقلّبها.
الجدود العواثر، الحظوظ السيئة).

فكيف بعد هذا لا يضطرب الخليفة الأمين ولا يغضب. لذلك كان على المغنّي أن يكون شديد الثقافة حتّى يستطيع النجاح، وحتى يستطيع أن يضمن دوام هذا النجاح. صار معبد بن رباح أمام مشهد الخليفة الغاضب، يراجع معرفته بأخبار العرب وأشعارها، ويقول في نفسه إنّه عليه أن يعرف منها الكثير، فإسحق بن إبراهيم الموصلي كان عالماً علاّمة، راويةً للأخبار وحافظاً للشعر، وكان شاعراً أيضاً، وكان في الوقت نفسه عالماً بالموسيقى ومنظّراً وملحّناً ومغنّياً، ولولا ذلك لما استطاع بلوغ هذه المرتبة في أعين الخلفاء.

اضطرب الأمين إذن وغضب غضباً لا يوصف، لأنه تطيّر من هذه الأشعار وأحسّ أنها منذرة إيّاه بدنوّ أجله، فقال عندذاك لجاريته ضعف، التي كانت واحدة من المفضّلات لديه: قومي عنّي يا زانية وبنت الزانية! ولم يترك كلمة نابية إلّا وصفها بها، فنهضت مذعورة لتنسحب، فعثرت بالكأس التي كانت بين يديه، فكسرته وسال النبيذ في كلّ اتجاه، وكانت هذه الكأس عزيزة على الأمين وقد سمّاها!
سمّاها باسمه: محمّد!

وقصة هذه الكأس أنه دخل يوماً على أبيه الرشيد في عزّ مجده،

وهو شديد الانشراح في مجلس شراب، فرآه يشرب من هذه الكأس فأحبّ مرآه على هذه الحال، فطلبها منه فأعطاه إيّاها. كانت تسع عدّة أرطال.

وهكذا لم يتسنَّ لمعبد بن رباح أن يُغنّي في تلك الليلة. لكنّه تعلّم. تعلّم ماذا عليه أن يغنّي في حضرة الخليفة. وفهم معنى أن يؤلّف المغنّون كلمات أغانيهم، وأن يتأنّوا في اختيار الكلمات من بين الموجود.

وبعد حوالى أسبوع، أرسل إبراهيم بن المهديّ في إحضاره إليه، وأخبره بأنّه استأذن الخليفة في اصطحابه لحضور مجلسه مرّة ثانيةً، وطلب إليه أن يستعدّ.

وكانت بغداد بدأت تستشعر الحصار الآتي لا بدّ بعد قليل، بعد أيّام أو أسابيع على الأكثر. وكان الخليفة يضاعف جهوده باتجاه أن تبقى الحياة طبيعيّة في بغداد، في جميع المجالات، وكان يعنيه أكثر ما يعنيه الأغنياء، الذين كان يراقبهم حتّى لا يهربوا بما لديهم من أموال، كالذهب وما شابه من أحجار كريمة ومعادن، لأنّه كان يعرف أنه سيحتاج إلى هذه الأموال قريباً جدّاً. وكانت الأخبار بدأت تروج رويداً رويداً، عن انتشار العيّارين في كلّ مكان، وعن تحكّمهم بأمور الناس، وعن تعدّياتهم على الممتلكات وأحياناً على الأعراض. وكان الشيء الأكيد أنّ هؤلاء العيّارين كانوا يضايقون الأشراف والأغنياء كثيراً في تحرّكاتهم، خصوصاً في الشوارع المؤدّية إلى أبواب بغداد العديدة، كباب الشام وباب الأنبار وباب خراسان وغيرها.

وخاف معبد بن رباح من هذا الجوّ المسيطر، وشغلت باله الأيّام المقبلة، فكيف سيأكل وكيف سيشرب إذا ما حوصرت بغداد ونشبت الحرب وطالت بين الجانبين. أمور تشغل البال يجب أن يحلّها بالبدء فوراً بتخزين ما استطاع من المواد الغذائيّة التي لا تفسد بسرعة. ولكن الآن، وفي هذه اللحظات بالذات، يجب أن يجد «الأصوات» المناسبة، التي سيغنّيها مساء الغد في حضرة الخليفة، إذا طلب منه ذلك. يجب أن يغنّي للخليفة لحناً لم يسمع بمثله أحد. يجب أن يطربه كما لم يطربه أحد. واستلقى على فراشه، وهو يفكّر بلحن يكون له، من صنعته، وبكلمات لا تستدعي الحَرَج أو الإهانة. ففكّر بأن يغنيه ما اتفق عليه مع أبو زكّار المرّة السابقة، ثم قال في نفسه إنه سيغنّيه الأغاني الثلاث التي اختارها المغنّون لأبيه الرشيد، فقد أمر الرشيد المغنّين يوماً، وعلى رأسهم إبراهيم الموصليّ، أن يختاروا له ثلاثة أصوات من جميع الغناء إطلاقاً، قديماً وحديثاً، فأجمعوا على ثلاثة أصوات، هي لحن معبد نابغة الغناء في شعر أبي قطيفة:

القصر فالنخل فالجمّاء بينهما
أشهى إلى القلب من أبواب جيرونِ

ولحن ابن سريج في شعر عمر بن أبي ربيعة:

تشكّى الكُمَيت الجريَ لمّا جهدتُه
وبيّنَ لو يستطيع أن يتكلّما

ولحنُ ابن محرز في شعر نُصَيب:

أهاج هواكَ المنزلُ المتقادمُ؟
نَعَمْ! وبه ممّن شجَاك مَعَالِمُ

وهذه كلّها أصوات غُنّيَت لأبيه، وطرب لها، واختيرت على أنها أجمل أغاني الزمان، فلا خوف إذن من غنائها.

وهذه أصواتٌ يستطيع معبد بن رباح أن يؤدّيها أجمل أداء، وهو لم يؤدّها في مكان ما في بغداد إلّا صفقوا له وطربوا. وإذا كان صحيحاً أنّه لم يغنّها بعد في حضرة الذوّاقة من الأشراف والأغنياء (إلّا عندما امتحنه إبراهيم بن المهديّ) أو في حضرة الخليفة وندمانه، فإنه على ثقة تامّة بأنّ أداءه لها سيلقى إعجاباً.

لكنّه قال إنّ شيئاً واحداً في لحن سَمِيِّهِ، المغنّي الشهير معبد أبي عبّاد، يجب أن يعدّل تعديلاً طفيفاً وهو الكثرة والإطالة والمطّ، فقد أكثر معبد أبو عبّاد من الأبيات في الأغنية الواحدة، ومطّ كثيراً في غنائه، فمن الأفضل إذن أن يختصر المطّ والإطالة، وأن يقلّل من عدد الأبيات، خاصّةً وأنّ هذا الصوت المختار هو من خفيف الثقيل، ومزاج الخليفة اليوم ليس معتدلاً، ولا بدّ أن يكون مزاجُه مؤاتياً لما هو أكثر خفّةً.

ولكنّ معبد بن رباح لم يختر بعدُ لحناً من تلحينه هو، ليغنّيه للخليفة في حال طلب منه الخليفة ذلك!
غنّني صوتاً من تلحينك يا معبد!

فماذا يقول لو سأله الخليفة ذلك؟ أيقول له ليس عندي شيء من تلحيني؟

وما لحّنه معبد بن رباح في الحقيقة من أغانٍ حتّى اليوم ليس كثيراً، وهذه الأغاني التي لحّنها هي إمّا مسموعة غنّاها أمام أحد، أو علّمها لأحد، وإمّا سرقت منه، أمّا الأصوات القليلة الأخرى، التي لم يغنّها لأحد، والتي يحفظها في قلبه، كما يحفظ سرّاً عن كنز نادر، فهل تصلح للمقام؟

هل يصلح الآن شعر قيس مجنون ليلى الذي شهد موته؟

فاضطرب وأحسّ بأن شيطانه ينساه، فناداه في قلبه. وبينما هو على هذه الحال دخلت عليه الجارية التي يسكن عندها، ومعها الغلام التي تقول إنه ابنها، وهو ما يزال يشكّ في الأمر، فقالت له إنني خائفة عليّ وعلى ابني من هذه الأيّام المقبلة، وأسمع الناس يقولون إنها ستكون أيّاماً صعبة جدّاً، وإنّ ضحايا كثيرة ستقع. وقالت إنها تخاف أن تنام وحدها مع ابنها، وهي تسمع العيّارين في الخارج يروحون ويجيئون، في حركة لا تهدأ، وسألته أن يسمح لها بأن تنام في زاوية من الغرفة معه، فاستجاب لها، وأراد أن يخبرها بأنه سيذهب غداً في صحبة إبراهيم بن المهديّ، ليغنّي في حضرة الخليفة، لكنه خاف أن يكشف عن نفسه في زمن دقيق وحذِر.

فمن يدري؟

فقد يطمع أحد في الجائزة التي سينالها من الأمين، أو قد يحسده الحاسدون، أو قد ينتصر المأمون. الحكمة تقضي بالحذر والتزام الصمت.

وبينما هو كذلك غفا، فحلم أنّ يدين تنشدّان على عنقه وتخنقانه، فأفاق مذعوراً ونهض وجلس يتأمّل في الغرفة في هذه العتمة، ونظر حيث تنام الجارية ومن تدّعي أنّه ابنها، ثم انتبه إلى أن هرّتين تدخلان من طاقة في أعلى الحائط تحت السقف، وتنزلان على الحائط كأنّهما حشرتان زاحفتان، كانت واحدة منهما بيضاء والثانية سوداء، فعاد واستلقى وأغمض عينيه وحاكى

كأنّه نائم، ولمّا وصلتا إلى الأرض وقفتا وتطلّعتا يميناً ويساراً ورأتا الجارية وابنها، فقالت السوداء للبيضاء: يجب ألّا تسمع الجارية شيئاً، فقالت البيضاء: ولا الغلام. ثم اندفعت السوداء فغنت بأحسن صوت شعراً للأحوص، وهو شاعر غضب عليه الخليفة الوليد ونفاه إلى جزيرة «دَهلك» النائية الواقعة ما بين اليمن والحبشة:

عَفا مُزْجٍ إلى لَصَقٍ
إلى الهضَبات من هَكِرٍ
(العَفا: مكان خالٍ لا يملكه أحد. مزج: اسم منطقة فيها غدير. لصق: مكان. هَكِر: مكان.)

سحرتْ معبد هذه الأغنية فتمنّى أن يسمعها من جديد، فغنّتها البيضاء من جديد، وكرّرت الاثنتان غناءَها عدّة مرّات، حتى «أخذها» عنهما وحفظها. كان يشعر وهو يسمعها كأنّ حيطان الغرفة التي هو فيها تموج، وكأنّ السطح سيرتفع عنها، ثم فتح عينيه ورفع رأسه ليستطيع رؤيتهما، فرآهما تخرجان من حيث دخلتا وتقول إحداهما للأخرى: والله لا يُسمِع هذه الأغنيةَ أحداً إلّا جُنّ أو مات! وما إن خرجتا حتّى نهض وأيقظ الجارية فأفاقت مذعورة ظانّة أنّ العيّارين أحدثوا شرّاً، فقال لها ليس هذا ولكن هل سمعت شيئاً؟ فقالت لا! لم أسمع شيئاً إطلاقاً، بل كنت في نوم عميق! قال لها ألم تسمعي غناءً جميلاً؟ قالت لا! قال ألم تسمعي هرّتين غنّتا هنا بعد أن دخلتا من الطاقة تحت السطح؟ قالت لا! ليتني سمعتهما! قال والغلام؟ قالت له إن الغلام لا يوقظه شيء متى أغمض عينيه وغفا. فقال ألا تريدين أن أغنّيه لك؟ قالت الجارية فوراً: لا! هذا صوت إنْ غنّيتَه لأحد جُنّ أو

مات إلّا شخص واحد. قال من؟ قالت لا أدري. لكنها أضافت: أَخبِرْ صديقكَ أبو زكّار فهو يعرف أكثر منّي بهذه الأشياء! بأيّ أشياء؟ قال لها معبد. فلم تجب.

غريب أمر هذه الجارية فهي دائماً حاسرة عن وجهها في حضوره، وعارية اليدين، وحافية القدمين، كأنّه من محارمها.

لكنّ الجارية قالت الحقيقة رغم ما ادّعاه معبد، فأبو زكّار لا يعرف أكثر من الجارية فقط، بل يعرف الكثير. يعرف كلّ شيء. ولمّا أخبره معبد في اليوم التالي بما جرى له في الأمس، طمأنه وفسّر له معنى قول الهرّتين: «لا يُسمعها لأحد إلّا جُنّ أو مات»، فقال له هذا صحيح إلّا إذا غنّيتَها «عاري النيّة» برفقة مغنّية جارية فإنّه لن يصيب أحدٌ شيئاً، لذلك كُنْ حذراً إذا لم يكن هذا الشرط متوفّراً، وأخبره كذلك أنّ إبراهيم الموصلي أبو إسحق حدث له الشيء ذاته، فقد ذهب يقضي يوماً مع جاريته ضياء، وكان قرّر بيعها بعدما عُرض عليه سعر مناسب، وذلك في بيت له جميل قربه عين ماء، وكانت هذه عادته، أن يُمضي نهاراً ويبيت ليلة في هذا البيت، مع كلّ جارية يشتريها ثمّ يبيعها بعد أن يعلّمها الغناء. وكان تعليم الجارية الغناء يستغرق من الوقت، بالنسبة إلى إبراهيم، ما بين ستة أشهر إلى سنة، ينتظر بعدها أن يجيء شاريها. لكنّ ضياء هذه كان يحبّها وكان يكره أن يبيعها، لذلك كان يتهرّب من بيعها كلّما جاءه شارٍ بأن يرفع سعرها. لكنّ حاكم أرمينية من قِبل الخليفة (وكان يسمّى «صاحب أرمينية»)، الذي كان في بغداد لمقابلة الخليفة، وتأدية ما عليه من ضرائب، ومبادلة «محبّة» الموظّفين الكبار بعشرات الألوف من الدراهم والدنانير، كان يبحث عن جارية تتقن الغناء لأنّه هو نفسه عالم بالغناء وذوّاقة، وقد نصحه وزير الخليفة بإبراهيم الموصليّ،

فاستدلّ عليه وبعث رسوله إليه وعرض عليه مبلغاً لم يستطع أن يرفضه: عشرون ألف دينار! لم يتردّد إبراهيم قبل أن يقول نعم! فوافق فوراً. بل أكثر من ذلك، فقد خاف أن يحدث للجارية مكروه قبل أن يتسلّمها رسول حاكم أرمينية.

وعند العصر، في البيت المذكور، وكان الطقس جميلاً والشمس لم تغب بعد لكنّها مالت نحو الغياب، «واقع» إبراهيم جاريته (ضاجعها) وتمتّع بها بشكل غير معتاد، فسألته عن سبب هذا الشغف غير المعتاد، وعمّا يُرغبه فيها هذه المرّة بهذه القوّة، إذ أحسّت وهو يريق فيها أنّ ماءه ينحدر هادراً من جميع نواحيه، فأجابها، ولم يكن قد أعلمها بعد (لم يكن هذا الإعلام من شروط الملكيّة)، بأنّه باعها لـ«صاحب أرمينية»، فحزنت كثيراً، فمن يترك بغداد الرشيد! وأيّ بلاد تساويها! ولكنها لا تملك أن تقول لا! ولا تملك أن تقول نعم! وما عليها سوى أن تطيع، وتألّمت لأنّها كانت تشعر أنّ إبراهيم يحبّها وأنها تميل إليه. فلم تحسّ برجل ملكَها كما أحسّت به. كانت تفرح عندما كان يجامعها بخلاف أغلب الآخرين الذين ملكوها، وقد أكلتْ ثوماً عندما أرسل أحد مالكيها إليها يوماً لتتهيّأ له، فضربها.

ثمّ ارتاح إبراهيم بعد المضاجعة ملقياً رأسَه على فخذها. وبينما هو كذلك رأى سنّورتين تنزلان على الدرج، واحدة بيضاء وواحدة سوداء، فقالت إحداهما: أتراه نائماً؟ فقالت السوداء: هو نائم. ثمّ غنّتا، فجُنّ إبراهيم من الفرح، فقد أعجبته هذه الأغنية بشكل لا يوصف، وقال في نفسه: يا ليتهما أعادتاه! فأعادتاه مراراً لأنهما فهِمتا ما يريد، حتّى أخذه، ثمّ بعد ذلك تحرّك فانسحبت السنّورتان، وسمع إحداهما تقول للأخرى وهما تنسحبان: «والله

لا طرحه على أحد إلا جُنّ!».

ولمّا اختفت السنّورتان نهض إبراهيم وسأل الجارية إن كانت سمعت أو رأت شيئاً، فأجابت بالنفي، ثمّ قال لها أريد أن أُسمعك لحناً أخذتُه عن الجنّ منذ لحظات، فقالت له لماذا تريد أن تسمعني إيّاه، ألا تخاف أن آخذه عنك و«أطرحه» على أسيادي الجدد، قال بل إنّه لحن صعب لن تستطيعي أخذه من المرّة الأولى، فأسمعها إيّاه فجُنّت من ساعتها، وماتت. وخسرها إبراهيم الموصلي وخسر عشرين ألف دينار.

لكن هذا الخبر أقلق معبد أكثر مما طمأنه، فما معنى أن يغنّي هذه الأغنية «عاري النيّة» برفقة جارية؟

أبو زكّار قال له هذا كلّ ما أعرفه!
فهل بخل أبو زكّار بمعرفته عليه أم هذه فعلاً حدود معرفته؟

ثم سأل معبد أبو زكّار إن كان شعر الأحوص يليق بمقام الخليفة، فقال له لا شكّ، لأن الأحوص نفاه الوليد، الخليفة الأموي، وحبسه وكان يحبّ أن يلوط بغلمان الوليد وأن يلوط به غلمان الوليد، ثمّ إنّك إذا غنّيت بهذا الشعر فلن يؤخذ عليك مأخذ. غنَ الآن شعراً لا معنى له. هذا وقته.

وتساءل معبد بن رباح إن كان أبو زكّار يريد منه أن يغنّي هذه الأغنية، التي تعلّمها من الهرّتين، للأمين، ليجنّ من ساعته، وليموت كما ماتت جارية الموصليّ؟ وتذكّر ما قال له مؤخّراً: سأعبد اليد التي ستقطع رأس الأمين!

تذكّر معبد كلّ هذا وهو يتنزّه في حديقة قصر الخليفة الواقع على دجلة وراء إبراهيم بن المهديّ، وخاف!

خاف أن يكون أحد يدري بأنّه يزور مغنّي البرامكة أبو زكّار البغداديّ الأعمى، وأنّ صداقةً تجمعهما، وخاف أن يكون أحد يتنصّت على أحاديثهما، لكنّه سلّى نفسه عن هذه الأفكار السوداء بما كان يرى في حديقة القصر ويندهش له. وكان في وسط القصر بركة كبيرة، يخرج منها الماء إلى دجلة، في قناة عبر حاجز من حديد مشبّك، وكان في البركة سمكة اصطيدت للأمين عندما كانت صغيرة، فأحبّها وعلّق في خياشيمها حلقتين من ذهب، فيهما حبّتان ظنّهما معبدْ من دُرّ، في كلّ جانب حلقة. قال له إبراهيم بن المهديّ: إنهما حبّتا ياقوت! فخجل.

كاد معبد أن يقع في الماء وهو ينظر إلى هذه السمكة بدهشة وذهول. وأحبّ سلوك الخليفة ورهافة إحساسه وعلاقته بالأشياء، يسمّي كأسه باسمٍ كأنّها بشر، ويُزيّن السمكة بحلقتين كأنها فتاة.

الأمين يناسب عقليتَه! وسينتصر إن شاء الله. وسيعمل معبد كلّ ما في وسعه حتّى يسمح الخليفة لأبو زكّار بأن يغنّي في مجلسه.
وفي تلك الليلة غنّى معبد بن رباح للخليفة!

وأعجب الخليفة بغنائه إعجاباً لا مثيل له، فأعاده عدّة مرّات. ولمّا أمره أن يغنّي من تلحينه غنّى شعر الأحوص:
عَفا مُزْجٍ إلى لَصَقٍ
إلى الهضَبات من هَكِرِ

غنّاها كما سمعها من الهرّتين، أغمض عينيه على حلمه الذي لم يكن يحلم به وغنّى. لم يكن يريد أن يجنّ من يسمعها، ولا أن يجنّ بالأخصّ الأمين، فهو يشعر في أعماقه حبّاً له، ولكنّه اندفع يغنّيها، لأنّها سحرته وأراد أن يسحر به الخليفة، وطرب بها الجميع، واستعاده إيّاها الخليفة مراراً، وأعطاه.

أعطاه خمسمئة دينار. وهذا المبلغ ليس كبيراً بالنسبة لخليفة أطربه مغنٍّ، لكنه كثير كبداية بالنسبة إلى معبد بن رباح. هذه أوّل خطوة في رحاب الجنّة. ولولا أنّ الخليفة بحاجة إلى أموال يؤمّن بها تكاليف الحرب لكان أعطاه أكثر بكثير.

وفي طريق عودته إلى البيت، رأى معبد حركةً ليليّةً غير معتادة. رأى العيارين في حركة عصبيّة شديدة، كانوا يتنقّلون بسرعة، وكانوا ينقلون الحجارةَ والعصيّ وقضبان الحديد والمكانس والجرابات، فتساءل عن كلّ هذا.

وفي اليوم التالي قصد معبد أبو زكّار فأخبره ما جرى، فسُرّ له أبو زكّار وتمنّى له الاستمرار في الصعود. قال له إنها بداية جميلة وواعدة، لكنه نصحه بألّا يتورّط كثيراً. ولمّا سأله معبد ما معنى التورّط «كثيراً»، لم يجبه أبو زكّار، لكنّه أخبره على الفور أنّ جيش طاهر صار قرب بغداد وأنّه غداً لا شكّ سيبدأ بمحاصرة العاصمة، فاضطرب معبد وقال لكنّني لا أستطيع أن أرفض حين يُرسل الخليفة في طلبي! قال صحيح لكن لا تتورّط كثيراً!

ثم قدّم له قسماً من الدنانير التي حصل عليها من الأمين فرفض، لم يقبل منها ديناراً واحداً. لكنّه في المقابل باح له بسرّ خطير،

أخبره أنّه صنع لحناً للمأمون، وسيعلّمه لجارية، وسيرسلها إليه لتغنّيه له!
وهل تجرؤ؟

لم يعد عندي ما أخسره بعد مقتل جعفر! تآمرت زبيدة، والدة الأمين، فقتل الرشيد جعفرْ، حتى تكون الخلافة للأمين، لأنّها كانت تعرف أنّ جعفر يريد الخلافة للمأمون، إذ إنّ والده يحيى هو الذي اشترى أمَّ المأمون للرشيد وعلقت منه فوراً بالمأمون. فاضطرب معبد لهذا الكلام، وأحسّ بخطورة الأشياء، وهو في الأخير لا يهمّه من كلّ هذا، إلّا أن يُعترف به كمغنّ، وأن يجمع مالاً يتنعّم به ويتفرّغ للغناء. لكنّه أدرك أنّ الأمور ليست بهذه البساطة، وأنّ عليه أن يختار، وأن يكون له رأي في ما يجري.

طبعاً لو قُطِع رأسُه فلن يخون أبو زكّار ولن يُفشي سرّه، ولكنّ الناس يعرفون أنّه صديق لأبو زكّار، فإذا ما انكشف أمرُ أبو زكّار، فهل سينكشف أمره هو أيضاً، وهل سيُقتصّ منه لأنه أخفى عمليّة تآمر على الخليفة؟

لن يخون أبو زكّار. هذا بالنسبة إليه أمر مفروغ منه.

وبلغت كتائب جيش طاهر أطراف بغداد، وبدأت تنتشر حولها. وأيقنت قلوب الناس بغلبة طاهر، وبأنّ الخلافة آيلةٌ عاجلاً إلى المأمون، فراحوا يخبّئون أموالهم أو يهربون بها سرّاً إلى الأمكنة الآمنة خارج بغداد، أو يهربون إلى المناطق التي باتت في حمى المأمون، فأراد الأمين والحالة ما هي عليه، أن ينظّم الدفاع عن بغداد، وأن يمنع تهريبَ الأموال، التي تزداد حاجتُه إليها كلّ يوم،

فأمر وزيره الفضل بن الربيع، أن يجري تقديراً للأموال الموجودة في بغداد، من دراهم ودنانير وذهب وأحجار كريمة متنوّعة، وكل ما يُباع أو يشترى به. وكان الفضل بن الربيع من أقرب المقرّبين إليه، بحيث إنّه، أي الخليفة، عندما سمّى ابنَه موسى بـ«الناطق بالحقّ»، أمره بأن يعلن ذلك على الناس.

وكان الفضل أيضاً موضع ثقة الخليفة الذي أمره بأن يُقنع مشايخ بني هاشم وكبار رجالات الدولة، بأن يبايعوا «الناطق بالحقّ» وهو يومئذ «طفل لا ينطق بأمر، ولا يعرف حسَناً ولا يعقل قبيحاً، ولا يخلو من الحاجة إلى من يخدمه، في ليله ونهاره، ويقظته ومنامه، وقيامه وقعوده».

وقد أيّد قرار المبايعة هذا يومذاك على الفور عليّ بن عيسى بن ماهان.

وفي تلك المناسبة قال رجل أعمى، من أنصار المأمون، من أهالي بغداد، يُعرف بعليّ الأعمى:

أضاعَ الخلافةَ غشُّ الوزير
وفسقُ الإمام ورأيُ المشير
فِعالُ الخليفة أعجوبةٌ
وأعجب منه فعالُ الوزير
وأعجبُ من ذا وذا أنّنا
نبايع للطفل فينا الصغيرِ

في الأمر وما تحتاج له الخلافة، في كلّ الميادين، حتّى تستطيع الصمود، وقبل أن ينتهي الاجتماع فاجأ الجميع بأن طلب منهم إحضار ما يملكون من مال للدفاع عن بغداد، وقال لهم: تمثّلوا بأغنياء خراسان (المقاطعة التي يتولاّها أخوه عبدالله المأمون) فقد أعطوه كلّ ما يملكون، وهو في الوقت نفسه المعتدي، وهو الذي يملك جنود الخلافة المدرّبين، وخيرة القوّاد المجرّبين، وخبراء الحروب، «فهاتوا اليوم ما عندكم»! لكنّ القلوب كانت بدأت تنشدّ إلى طاهر، فأمر عند ذاك بعفو عام عن المساجين جميعاً، وأعطى العيّارين ما طلبوا وما استطاع، وعيّن قوّاداً جدداً في أعلى المراتب، وأعطاهم ما استطاع من المال والصلاحيّات، دون أن يعطي القواد القدماء شيئاً، فاستغلّ طاهر هذا الوضع، واستمال من قدر على استمالته، ونجح في حثّهم على الانتفاضة عليه، أي على الأمين، لكن الأمين قضى عليهم.

وبلغ طاهر منطقة الياسريّة، في أطراف بغداد، وانتقل منها فنزل في باب الأنبار، في الجهة الغربيّة، قريباً من المنطقة التي كان يسكن فيها معبد بن رباح وأبو زكّار ومعه الجارية ظَنٌّ. وأمر طاهر أحدَ قوّاده المساعدين، وهو هرثمة بن أعين، بأن يتسلم المنطقة الشرقية، وكلّف هرثمة مساعدَه زهير بن المسيّب الضبّي بالعمليّات الميدانيّة، وأمره بأن يأخذ العشر من حمولة البواخر التجاريّة الآتية من البصرة وواسط. ونصب زهير على بغداد المنجنيقات، فتأذّى الناس منه وعانوا، لكنّ العيّارين وإلى جانبهم المساجين والعامّة الآخرون، صمدوا في وجهه بشكل لا يوصف، ودافعوا عن بغداد دفاعاً لم تشهده مدينة محاصرة، وكانو يقاتلون شبه عراة يسترون أوساطهم بالميازر، وقد لبسوا على رؤوسهم خُوَذاً من ورق النخل، حاكوه بأنفسهم حتى صار يشبه الخُوَذ، وسمّوه خُوَذاً، وصنعوا من ورق

النخل والقصب تروساً، حشوها بالحصى والرمل حتّى تردّ عنهم، وسمّوها تروساً. وكان على كلّ عشرة من هؤلاء العيّارين شبه العراة عريفٌ، وكان هذا العريف يركب على نَفَر من هؤلاء العشرة، وكان هذا النفر يُحوَّلُ إلى فرس بعد أن يكون أُلبس ما يجعله شبيهاً بالفرس: كانت تُعلّق في رقبته مخلاة، وتُربط إلى مؤخّرته عصا في آخرها مكنسة ليكون له ذنب ، ويُلقى على كتفيه صوف أحمر وأصفر على عادة الناس تلك الأيّام في تزيين الأحصنة المقاتلة، وكان يُعلّق في عنقه جرس، ويُقتاد بلجام.

وكان على كلَ عشرة عرفاء نقيب، وعلى كلّ عشرة نقباء قائد، وعلى رأس القوّاد أمير.

كان ينقص جيش الأمين الأحصنة، والدروع والخوذ والمنجنيقات، والسيوف القاطعة والرماح، وكلّ أدوات الحرب وآلتها، بينما كان جيش أخيه المأمون، يملك كلّ شيء، ولا ينقصه شيء يحتاج له جيش محارب. كانت لديه الخيول الفرهة النشيطة، والدروع والتروس والسيوف والرماح. ورغم ذلك انهزم زهير أمام العراة، في أوّل معركة خاضها ضدّهم. وقد فرح «النظّارة» (أي المتفرّجون) لانتصار العراة. وكانت النظّارة تتفرج من النوافذ والشرفات والسطوح، على المعارك الدائرة في شوارع مدينتهم.

وبمناسبة ذلك اليوم، الذي تراجع فيه زهير أمام العراة، أقام الأمين مجلس غناء، ودعا مِنْ قوّاده وبطانته مَنْ كان خارج المعارك، وقال لإبراهيم بن المهديّ أن يأتي بمعبد، الذي طرب لغنائه المرّة السابقة طرباً شديداً، وفوجئ معبد برسول المهديّ يقرع بابه، واحتار فيما يغنّيه والقلب في هذه الساعات ليس للغناء.

كان معبد وراء ابن المهديّ، عندما رأى الخليفة يتطلّع، مأخوذاً ومضطرباً، إلى دجلة، من شرفة في قصره، قرب البركة التي فيها السمكة، والخدمَ والغلمان منتشرين يفتّشون الماء بقعة بقعة، ولمّا سلّم ابن المهديّ عليه لم يردّ السلام، وهذا لم يكن من عادته، فكرّر التحية فالتفت الأمين إليه كالواله وقال له: سمكتي «ذهبت» في دجلة!

كان الأمين يحبّ سمكته حبّاً لا يتصوّر معه أنها يمكن أن تهرب، فلذلك قال «ذهبت» فقط!

وسمع معبد إبراهيم بن المهديّ يتمتم: يجنّ لفقدان سمكة والخلافة كلّها تهتزّ! لو كان يرتدع لكان ارتدع الآن! حالة ميؤوس منها!

كانت الحفلة سريعة مقتضبةً، وكان الخليفةُ شارد الذهن غالباً، لكنّه أنصت إلى معبد عندما غنّاه:

ما يريد الناس منّا
ما تنام الناس عنّا

وهو الشعر الذي غنّاه أبو زكّار لسيّده جعفر بن يحيى البرمكيّ قبيل مقتله، فسأله الخليفة لمن هذا الشعر، فاضطرب معبد لكنه أجاب فوراً: لي!
واللحن؟
لي أيضاً!

فهزّ الخليفة رأسه إعجاباً بقدرته على النظم واللحن معاً، وهو بطبيعة الحال لم يسمع من قبل هذا اللحن، ولا هذا الشعر، لأنّه لم يُغنَّ إلّا في مجلس جعفر قبيل وفاته.

وقد قام معبد بهذه المخاطرة، لأنّ هذه الأغنية كانت مناسبة جدّاً لهذه الحال، وهو لم يجد غيرَها حين طلب منه الخليفة أن يغنّي من تلحينه، وحضرت إلى ذهنه واستولت عليه، ثم إنّه كان متأكّداً من أنّ أحداً بين الحاضرين لم يسمعها من قبل، وقد أخبره أبو زكّار بذاته، أنّه لم يُغنّها إلّا مرّة واحدة، قبيل مقتل سيّده جعفر ابن يحيى البرمكيّ بلحظات.

لكنّ الأمر الأهمّ أنّه غنّاها في الحقيقة من كلّ قلبه!

وبعد انتهاء الجلسة أمر الخليفة بإعطاء معبد ثلاثمائة دينار، لكنه قال له صراحة وأمام جميع الحاضرين: تستحقّ أكثر! لكنْ للظروف أحكام! ووعده بالتعويض عليه قريباً بعد أن تنجلي هذه الغيمة المخيّمة على بغداد.

أرجو أن تكون غيمة صيف! قال معبد مخاطباً الخليفة مباشرة وبالذات، بعد أن خاطبه الخليفة مباشرة وبالذات!
قال ذلك معبد من كلّ قلبه.

وبعد أن انفض المجلس اقترب منه خادم الخليفة، وطلب منه أن يستعدّ ليكون بعد يومين في صحبة الخليفة في مهمّة.
في مهمّة؟

قال له الخادم: إن كرَّرتَ هذه العبارة لنفسك «قطعتُ الذي فيه عيناك»، (أي قطعتُ رأسك، وهذه عبارة كانت تستعمل كثيراً).

تَردّد معبد كثيراً قبل أن يُخبر أبو زكّار بما أمره به خادم الخليفة

الأمين، لأنّه كان يشعر أنّه في حال أخبره، يكون في موقع من يفشي السرّ، ومن يخون من وثق به وائتمنه. لكنه كان يعتبر في الوقت نفسه أنّه إذا لم يُخبر أبو زكّار يكون في موقع من يخون الصداقة، لأنّ أبو زكّار هو أقرب صديق إليه، وقد رعاه طوال هذه المدّة المثقلة بالأحداث، ونصحه وأطعمه، وأفاده الكثير وعلّمه الكثير، فالوفاء يقضي بأن يخبره، خاصّة أنّه يثق به ثقة لم يرقَ إليها شكّ في يوم من الأيّام، فأخبره وكانت ظَنٌّ حاضرة، وهذا ما أزعجه، لأنّه كان يفضّل أن يبوح له وحده بهذا السرّ! وقد هدّده خادم الأمين بقطع رأسه إن هو باح به لنفسه! والمثل يقول: كلّ سرّ جاوز الاثنين شاع.

فكّر أبو زكّار طويلاً قبل أن يقول: وما هي هذه المهمّة؟ ما الذي ينوي ابن زبيدةَ القيام به؟ أَستشعرُ الشرَّ! أعتقد أنها مناورة يريد بها الإيقاع بالمأمون. انتبه يا معبد! إيّاك أن تتورّط أكثر من ذلك! فقال له معبد ولكن كيف تريدني أن أرفض أمراً من الخليفة؟ فإن رفضت يقتلني. أما ترى؟ عشرات الألوف من أهل بغداد يموتون من أجله. ثم إنّني أريد أن أبوح لك بأنني أحبّه، فقد رفعني إلى مقامه، وأجلسني في مجلسه بين قوّاده وأقرب الناس إليه، وبدأ صيتي يذيع في بغداد في الأوساط الفنّية، وفي أوساط الطبقة العليا. حلم بدأ يتحقّق لم أكن أحلم به.

لم يخبره بأنّه غنّى للخليفة:
ما يريد الناس منّا
بلحنه! (أي بلحن أبو زكّار).

لم يبدُ لي منه إلّا كلّ خير يا أبو زكّار، فالوفاء يقضي بأن أخلص

له، فقال له أبو زكّار: هذا صحيح، ولكن إيّاك أن تتورّط كثيراً! حبّاً بك أقول هذا الكلام، لأنّك أوّلاً صديق، وثانياً حتّى لا تضيع موهبتك في الغناء، فأنا أحببتك حين تغنّي، وأحببت غناءك، وأحببت أن يحبّ غناءك الخليفة والأشراف، فحبّهم لغنائك هو حبّ للغناء، وحبّ الغناء يزيد في شرفنا نحن المغنّين وأبناء الموالي والعبيد! وكانت ظنٌّ طوال هذا الوقت تبكي بدون أن تقول شيئاً.

وخرج معبد من عند أبو زكّار شديد الانزعاج، ممزّقاً بين تعاطفه مع صديقه أبو زكّار، الذي ينوء من ألم الكارثة التي حلّت به، وبين حبّه المتعاظم للخليفة الأمين، وقد بدأ هذا الحبّ يتجلّى في حماسته، عندما كانت تبلغه أخبار انتصارات العيّارين العراة، وصدّهم لجيش الطاهر وقوّاده، وقد امتلأ قلبه غبطةً عندما شاهد قبيل معركة دار الرقيق، قائداً من قوّاد خراسان يتقدّم من بعيد نحو شارع دار الرقيق، فانبرى عيّار من العيّارين العراة يحمل مخلاة فيها حجارة، ودرعاً من جلد، وعلى رأسه خوذة من ورق النخل والقصب، ويخفي عورته بميزر، وتقدّم نحو القائد الذي كان على حصانه العفيّ النشيط، فراح هذا القائد يرميه بالسهام التي كانت تعلق بدرعه، بدون أن تنفذ إلى جسمه، وكان العيّار يرميه بالحجارة التي كانت في مخلاته، إلى أن فنيت سهام القائد وظنّ أنَّ العريان نفدت حجارته أيضاً، فاقترب منه بحصانه ليقضي عليه بضربة من سيفه، فرماه العريان بحجر بقيت في المخلاة فأصاب عينه، وثنّاه بحجر آخر، فكاد أن يصرعه ويرميه عن فرسه، ووقعت خوذته عن رأسه، وكرَّ راجعاً ذليلاً وهو يقول: ليس هؤلاء بناس، هؤلاء شياطين! والأطرف من ذلك، أنّ هذا القائد الخراسانيّ هو الذي رجا بنفسه قائده طاهر، أن يسلّمه هذا القطاع من الجبهة، يوماً واحداً فقط، فاستجاب له طاهر، فخرج مستخفّاً بالعراة

محقّراً لهم. وكان يقول عنهم: من هؤلاء لنعطيهم هذه الأهمّية، ولا سلاح معهم، ونحن ذوو «البأس والنجدة والسلاح والعدّة»؟

وقد فرح معبد فرحاً لا يوصف بما رأى، وأيقن أنّ النصر سيكون للأمين بعد الذي شهده من استبسال العراة عن مدينتهم، وتصوّر نفسه، والأمين قد انتصر، ينعم بالجاه والمال، وقرّر أن يصنع لحناً في شعر عن هذه المناسبة، وكان قد بلغه قول الشاعر حسين الخليع، وهو حسين بن الضحّاك الخليع، الذي يكنّى أبا عليّ والذي كان صاحباً لأبي نواس ونديماً له:

لنا النصر بعون اللـ
ـه والكَرّةُ لا الفرّة
أمين الله ثِقْ باللـ
ـه تُعْطَ الصبرَ والنصرَه

وأمضى عدّة ليال لا ينام، وهو يلحّنها على ضجيج تنقّلات المقاتلين، وأخبار المعارك.

لكنّ المعارك كانت تتوالى، الواحدة بعد الأخرى، وعلى كلّ الجبهات، في الغرب من ناحية طاهر، وفي الشرق من ناحية هرثمة. وكانت معركةُ دار الرقيق! وكانت معركةً عظيمة هلك فيها خلق كثير، وكثر القتل في الطرق والشوارع والأزقة، هذا ينادي بالأمين والآخر ينادي بالمأمون، ويقتل بعضهم بعضاً بدون رحمة، وانتُهبت الدور والمحالّ التجاريّة والمستودعات، وكان الفوز لمن نجا بنفسه بما استطاع أن يحمل.. إلى معسكر طاهر، حيث كان يأمن على نفسه وماله.

لقد بدأت شوارع بغداد بالذات تتحوّل إلى ساحة المعركة الأساسيّة.

واستدعاه الأمين أخيراً، بعد أيّام من انتهاء معركة دار الرقيق، وكان معبد يأمل في هذا الاستدعاء، لكنّه لم يكن يتوقّعه. واستدعاه الأمين مباشرة، بدون واسطة إبراهيم بن المهديّ. لكنّ القتال عاد واشتدّ على كلّ الجبهات، ولم يأت رسول الخليفة ليأخذه إلى القصر في الوقت المحدّد، فأمضى الليل ينتظر، وجاء الصباح والمعارك لم تهدأ، فقصد أبو زكّار في بيته ليزوره ويطمئنّ عليه فلم يجده، ولم يجد ظَنّْ جارية جعفر بن يحيى، ففوجئ وراح يسأل عنهما الجيران، فقالوا إنهم رأوهما يخرجان على دابّتيهما ولم يعودا بعد، وكان الوقت صار عند الظهر فانتظرهما على عتبة الباب ساعة من الزمن ثم عاد إلى بيته.

وفي اليوم التالي عاد وذهب إلى بيت أبو زكّار فلم يجده، وأخبره من تبقّى هناك من الجيران أنّه لم يعد منذ غادر يوم أمس!

وكان طاهر بدأ يقتطع الشارع بعد الشارع، فيتحوّل أهل الشارع الذي صار تحت سيطرته مناصرين ومساعدين له في حربه. وبدأ يهدم البيوت التي لم تكن في حيّزه، والتي كان يحتمي فيها العيّارون العراة، ثم راح يحفر الخنادق بينه وبين منازل أصحاب الأمين وقصورهم التي كان يدافع عنها فرسان أشدّاء مجرّبون، فيمنعهم بذلك من إيقاع الخسائر بجيشه المتقدّم. كانوا يدافعون عن مواقعهم باستماتة منقطعة النظير. وكان طاهر عندما يستولي على قصر من هذه القصور يسوّيه بالأرض فوراً، وينثر على بقاياه جثث أصحابه والمدافعين عنه.

ودبّت الفوضى، فكان أنصار طاهر ينهبون كلّ ما يحتلونه قبل أن يدمّروه، بينما كان العراة ينهبون البيوت المهجورة، ويأخذون خشبها إذا كانت مبنيّةً من خشب، أو يأخذون قماشها إذا كانت من قماش.

وأخيراً، وقد نفد صبر طاهر بسبب مقاومة أنصار الأمين المستمرّة، وصمودهم الدائم، وهم العيّارون والمساجين العراة الذين يقاتلون بمخالي الحجارة والآجر وخُوَذ من ورق النخل والقصب ودروع من حُصُر القصب ورماح من أعواد القصب، وأبواق من قرون البقر والقصب، وهو من هو، على رأس جيش لا مثيل له في العالم أجمع، فاتّخذ قراراً بقطع المواد الغذائيّة عن بغداد، وبخاصّة تلك التي كانت تجيء عن طريق البصرة وواسط. حتى صار رطل الخبز الواحد بدرهم، بينما كان الساكن في منطقة سيطرة طاهر يستطيع أن يشتري بهذا الدرهم ذاته عشرين رطلاً.

كان معبد بن رباح يستطيع أن يصمد أسابيع طويلةً، بما يملك من دراهم، وبما خبّأ من مونة، لكنّه راح يتساءل عمّا إذا كان عليه بالفعل أن يصمد، أو أن يرحل كما فعل كلّ من استطاع.

لكنه بات محسوباً على الأمين. وهو في الحقيقة يحبّه.

ولمّا ضاق الأمر بالأمين إلى هذا الحدّ واشتدّ الحصار عليه، باع ما في خزائنه سرّاً، وفرّقه على من معه، فطلبوا المزيد وألحّوا عليه إلى أن قال لأحد المقرّبين إليه: «وددتُ أنّ الله قتل الفريقين جميعاً، فما منهم إلّا عدوّ، مَنْ معي ومَنْ علَيّ، أما هؤلاء فيريدون مالي، وأما أولئك فيريدون نفسي».

ثمّ أمر واحداً من قوّاده، واسمه ذريح، أن يتتبّع الناس الهاربين من مناطق سيطرته إلى المناطق الأخرى، وأن يستولي على أموالهم وعلى كلّ ما يحملونه معهم، حتّى الموادّ الغذائيّة المخزّنة، كالحبوب والزبيب وما إلى ذلك، وأمره بأن يستولي على ما ينقلون من ثياب أيضاً، وعلى الجواري الصبايا إذا لم يكنَّ حبالى، وعلى العبيد القادرين على العمل والقتال. ووضع معه بإمرته قائداً آخر هو الهرش، فلم يتركا عابراً ظنّا به هارباً إلّا وفتّشاه وأخذا منه ما يملك. وكانا يدخلان بيوت الأغنياء المشكوك في ولائهم للأمين، ويستوليان على ممتلكاتهم. حتّى جمعا أموالاً كثيرة جدّاً.

هنا، في هذه المرحلة من القتال، بدأ معبد بن رباح يشعر أنّ بعض الناس، خصوصاً إذا كانوا من وسط التجار، يتحاشونه، فاحتار في الأمر، لكنه سرعان ما علم أن التجّار عقدوا اجتماعاً لهم في الكرخ سرّاً، وقرّروا أن يكتبوا لطاهر بأنهم ممنوعون من الانتقال إليه، وأنهم يعانون وضعاً قاتلاً، بسبب التعديّات على الأشخاص والأملاك، وبسبب وضع اليد على كلّ مال لهم منقول. وأبلغوه أن آفة الآفات هي هؤلاء العيّارون العراة، ومن التحق بهم من جنسهم.

وقد كتب التجار إليه بذلك، رغم أنهم كانوا يعرفون الخطر الذي يتهدّدهم، إذا ما علم الأمين بالأمر، خاصّة وأنّ الأمين كان في ذلك الوقت يستعدّ لشنّ هجوم مضادّ على الجبهات الرئيسيّة، بعدما جمع له ما استطاع من أموال.

وفي فجر ذات يوم اثنين، وكانت الشمس لم تطلَّ بعد على بغداد، نفخ العراة في أبواق القصب وفي قرون البقر ومعهم من

تبقّى من جيش الخلافة ومن مؤيّدي الخليفة، وزحفوا من مواضع عديدة نحو أماكن تمركز المأمونيّة، أنصار المأمون، واشتدّ القتال وكثر القتل، وملأت الجثث الشوارع وكلّ مكان جرى فيه اشتباك بين الفريقين، وكان العراة يحقّقون النصر تلو النصر، وكانت أخبار الانتصارات هذه تبلغ معبد فيفرح كثيراً وينتعش أمله، ويبدأ بالبحث عن ألحان جميلة لكلمات جميلة.. يغنّيها ما إن يجيئه الخبر بالنصر النهائي.

لكنّ الأمور تبدّلت ابتداء من ظهر ذلك الاثنين، وبدأت المعركة تميل لصالح المأمونيّة، لأن طاهر أمدّ الجبهات بقوّاد جُدُد، على رأس فرق مرتاحة ونشيطة. ودار القتل، فغرق من غرق وقتل من قتل وأحرق من أحرق، و خسر العراة عشرة آلاف قتيل في ساعات معدودة!

وفي المساء جاء رسول الأمين إلى معبد بن رباح، وأمره بمرافقته فوراً إلى دار الخلافة، لأنّ الخليفة سيخرق الجبهة بسبعة آلاف فارس، فامتثل معبد وذهب مع الرسول بما عليه من الثياب فقط، وكيس من الدنانير التي كانت كلّ ثروته، وعددها بضع مئات.

وفي دار الخلافة كان يجري تنظيم هرب الخليفة!
يا للصدمة!
كان الخليفة قد غيّر رأيه في الساعات الأخيرة. فماذا جرى إذن؟

عندما جمع الأمين من بقي معه ليشاورهم في مسألة النجاة بنفسه، توزّعت الآراء ولم تُجمع، فقد نصحه البعض بأن يسلّم نفسه لطاهر بن الحسين، الذي كان متمركزاً في الجانب الغربي من

بغداد، لكن الأمين رفض رفضاً قاطعاً أن يعمل بهذه النصيحة، لأنّ طاهر كان في رأيه أكثر مأمونيةً من المأمون نفسه. ورأي الأمين هذا في طاهر لم يكن نابعاً من فراغ، بل من تجربة، فقد سبق له أن حاول استمالتَه سراً مرّات عديدة، وقد كاتبه وراسله وعرض عليه ما شاء من أموال، فلم ينفع معه كلّ ذلك، حتّى بات الأمين مقتنعاً بأن طاهر يريد رأسه، ليس فقط لأنه مكلّف من قبل المأمون بذلك، بل لأنّه خليفة! طاهر يطلب العزّ لنفسه، وهو يرى العزّ في قتل خليفة! فهل من عزّ يفوق هذا؟ وقد قال الأمين لمن نصحه بالاستسلام إلى طاهر: «لقد دسستُ وفحصتُ عن رأيه، فما رأيتُه يطلب إلّا تأثيل المكارم (تأصيلها وترسيخها) وبُعدَ الصيت، فكيف أطمع في استذلاله بالأموال؟» وهل يتسنّى لقائد هذه أخلاقه ومقاصده أن ينتصر على خليفة ويقطع رأسه ويرفض؟ هل يرفض من له مزايا طاهر أن يخلع خليفة؟

لقد كتب الأمين إلى طاهر، وعرض عليه الاستسلام له، وقبوله بانتقال الخلافة إلى أخيه المأمون، شرط أن يعطيه الأمان، وقد قال الأمين في رسالته: أمّا بعد، فإنك عبد مأمور.. حاربتَ فانتصرت (..) وقد رأيت الصلاح في معاونة أخي (..) فأعطني الأمان على نفسي وولديَّ وأمّي وجدّتي وخدمي وحاشيتي وأنصاري وأعواني حتى أخرج إليك، وأتبرأ من هذا الأمر إلى أخي، فإن رأى الوفاء لي بأمانك وإلّا كان أولى وأحق».

لقد عرض عليه أن يتخلّى عن الخلافة، وأن يوقف القتال، وأن يسلّم نفسه له، وأن يبقى في حماه حتى يبلّغ أخاه المأمون باستسلامه ليقرّر مصيره بنفسه! لكنّه رفض.

رفض طاهر عرض الأمين هذا، لأنه لا يريد أن يفوّت عليه فرصة قطع رأس خليفة!

وهذه كانت قناعة المأمون فيما بعد، عندما علم بتفاصيل الأمور.

لذلك إذن رفض الأمين العمل بنصيحة من نصحه بالاستسلام إلى طاهر.

لكنّه اقتنع بنصيحة من نصحه بالاستسلام إلى هرثمة، الذي كان يسيطر على الجانب الشرقي من بغداد، وعمل بها، خاصّة وأن هذه كانت فكرةً بدأت تختمر في رأسه من قبل، فتراسلا، وأبلغ هرثمة شروطه، فوعده هرثمة بكلّ ما أحبّ، وأقسم له بأن يحميه من كلّ من أراد قتله بمن فيهم طاهر. وتمّ الاتفاق بينهما على كلّ شيء، واتفقا على ليلة خروج الأمين («ليلة الخميس، لخمس ليالٍ بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة») من دار الخلافة إلى الحرّاقة (الباخرة الحربيّة) التي ستكون في انتظاره وعليها هرثمة بالذات، على شاطئ دجلة في منطقة المَشرَعة في باب خراسان.

وكانت هذه المراسلات تبلغ طاهر أوّلاً بأوّل، لأنّه كان له في قلب دار الأمين، غلمان وخدم من خاصّة الأمين، يبعثون إليه بالأخبار ساعة فساعة.

وقبل ليلة أو ليلتين من تنفيذ الاتفاق وخروج الأمين، دخل على الأمين فجأة وفد من القادة والأشراف الشباب وقالوا له: لم ينصحك أحد ممن شاورتهم بالنصيحة الصائبة، ورأيُنا نحن هو التالي: نحن سبعة آلاف رجل مقاتل، وفي إصطبلك سبعة آلاف

فرس، فيركب كلٌّ منّا فرساً، ونخرج بلا إبطاء، في هذه الليلة بالذات، ونفتح باباً من أبواب المدينة، ونتابع سيرنا حتّى نبلغ الجزيرة، وديار ربيعة، فنجمع الأموال والرجال، ونذهب إلى مصر عبر الشام، فنبقى هناك إلى أن نُتمَّ إعادة تنظيم أمورنا. فاقتنع الخليفة بهذا الرأي الذي لم يخطر على باله من قبل. اقتنع فوراً. وقال للوفد: هذا هو الرأي المصيب، استعدّوا لتنفيذه. لقد اكتملت الخطّة الآن!

وكان الأمين يريد أن يجعل خروجَه من بغداد خطوةً لاستعادتها. فقرّر الخروج على رأس السبعة آلاف رجل، وقرّر أن يكون ولداه وأمه وجدّته وخدمه وحاشيته، وفيها جواريه وغلمانه والمغنّون، ومعبد بن رباح على رأسهم بالتأكيد، في الثلث الأخير من جيشه.

لكنّ قرار الأمين هذا، بالعدول عن الاستسلام إلى هرثمة، وخرق الجبهة بسبعة آلاف فارس، بلغ طاهر فوراً، فخاف أن تنجح محاولته، خاصّة إذا اختار المواضع السهلة غير الحصينة من الجبهة، ونفّذ قراره فوراً، قبل أن يستعدّ طاهر لذلك، فبعث إلى عدّة وجهاء من أنصار الأمين، وكان يقيم مع بعضهم، كابن سليمان والسِّندي، علاقة خاصّة منذ بدء الحصار على بغداد، وهدّدهم إن لم «يُزيلوه عن رأيه» فإنّه سيخرّب ديارهم وممتلكاتهم، وسيحرمهم من كلّ نعمة ينعمون بها، ثمّ إنّه سيقتلهم، فخافوا منه وأدركوا أنّ تهديده غاية في الجدّ، خاصّة وأنّ كلّ شيء يدلّ على أنه على بعد أيّام من النصر النهائيّ. فمضى ابن سليمان والسندي إلى الأمين فوراً، ودخلا عليه وهو منشغل بتدبير انسحابه الفوري، وأخبراه أن طاهر على علم بخطّته بالنفاذ بسبعة آلاف رجل إلى الجزيرة، وأنّه أعدّ له ليضرب جيشه وليقبض عليه، فصدّقهما

لأنّهما لم يكونا من الجماعة التي شاركت في اتخاذ القرار، أو التي رسمت الخطط للتنفيذ، أي أنهما لم يكونا على علم بشيء، فغيّر رأيَه وعاد إلى قراره بالهرب إلى هرثمة.

وفي ليلة الخميس، وعند منتصف الليل، دعا الأمين بفرسه الذي كان يسمّيه الزهيري، وكان أغرَّ محجّلاً أدهم محذوفاً (أغرّ: في وجهه بياض. محجّل: في قوائمه بياض. أدهم: أسود. محذوف: مقطوع طرف الذنب)، ثمّ دعا بابنيه موسى وعبدالله فعانقهما، وشمّهما حتى امتلأت رئتاه منهما، وبكى وهو يقول لهما: الله خليفتي عليكما، فلست أدري أألتقي معكما بعدها أو لا! ومضى نحو باب خراسان إلى المشرعة، وعليه ثياب بيض وطيلسان (كساء بدون بطانة، كالعباية) وقدّامه شمعة، ولمّا بلغ الحرّاقة نزل عن حصانه ودخل فيها، وكان هرثمة في استقباله، كما هو متّفق عليه، فقام الأمين وقبّل هرثمة بين عينيه. وتحرّكت الباخرة.

في اليوم التالي بدأ خبر هرب الخليفة ينتشر في القصر شيئا فشيئاً، حتّى بلغ معبدْ، الذي لم ينم تلك الليلة، لأنه كان في انتظار الرحيل مع جيش الفرسان، فخاف كثيراً، واحتار في ما يفعله، وتذكّر نصيحة صديقه أبو زكّار.

وبينما هو في هذه الحالة جاءه خادم وسلّمه رسالة واختفى قبل أن يسمح له بسؤال! ففتحها وقرأ: انجُ بنفسك!

يا إلهي! من يهتمّ بأمري هنا في هذا القصر إلى هذا الحدّ؟

ثمّ استغلّ انشغال الناس في القصر بخبر اختفاء الخليفة وذهابه ليلاً

إلى جهة مجهولة (ليعيد تنظيم قوّاته بالتأكيد)، وانسلّ إلى الخارج دون أن يلفت انتباه أحد، وقصد بيته، وكان عليه ليبلغ بيته أن يمرّ قرب قصر إبراهيم بن المهديّ، الذي كان يعجّ بالناس وحوله آلاف من المسلّحين.

حين بلغ إبراهيم بن المهديّ خبر هروب ابن أخيه الخليفة الأمين، أو خبر اختفائه لإعادة تنظيم جيشه، أعلن نفسه خليفةً كحلّ وسط بين ابني أخيه المتصارعين، حقناً لدماء الناس، والتف حوله جميع المعادين للمأمون المستعدّين للموت من أجل أن يمنعوه من احتلال مقعد الخلافة مكان أخيه، وكان معظمهم من العيّارين والمساجين الذين تورّطوا كثيراً في قتال جيش طاهر وهرثمة، وكان بينهم أيضاً بعض من مشايخ بني هاشم، الذين كانوا لا يريدون خليفةً أمُّه جارية فارسية، اشتراها أبوه الرشيد وأعتقها.

لم يتوقّف معبد بن رباح طويلاً هناك، ولم يحاول حتى أن «يبيع» ابن المهديّ موقفاً من نوع أن يبلّغه أنّه هنا بين يديه، وأنّه حاضر للاستجابة عند الطلب، بل تابع طريقه إلى بيته. لكنّ بيته كان صار في الجهة الأخرى، في جهة طاهر، لأنّ الأمور كانت تتطوّر بسرعة وبشكل غير متوقّع، فسعى إلى أن يبيت في مكان، وكانت الفنادق التي لم تهدم بعد أو لم تحتلّ غير آمنة إطلاقاً، وكانت دنانيره التي يحملها معه أينما ذهب تشكّل خطراً أكيداً عليه، فتمنّى لو يستطيع ابتلاعها. ثم خبّأها في مواضع مختلفة من ثيابه، ووضع قسماً منها في صرّة على رأسه تحت قبّعته. ثم انتهى به التطواف أخيراً إلى منزل صديقه أبو زكّار الأعمى، فلم يجده، ولم يكن يتوقّع أن يجده، فكسر القفلَ ودفعَ الباب برجله فدحاه (صيّره على الأرض منبسطاً مثلها) ودخل. لم يعترض عليه أحد

من الجيران أو ممن بقي منهم هناك، لأنّ الناس لم يكونوا يطلبون إلّا أمنَهم الشخصي، فلا يعترضون إلّا إذا كان الأمر يمسّ شخصهم بالذات، وما عدا ذلك لا يعنيهم إطلاقاً.

استغرب معبد بن رباح أنّ البيت لم يهدمه أحد، ولم ينهبه أحد. فكيف يكون ذلك؟ فهل هي الرحمة التي تُظهِر عن نفسها بهذا الشكل، عن طريق مراعاة العميان؟ وتذكّر قولاً، يشبه إلى حدّ بعيد، عبارة كتبت بعد ذلك التاريخ بألف سنة أو يزيد: «تجد دائماً بين الأشياء حبّة حنطة!»، فتفاءل.

لكنّ التفاؤل لا يكفي، خصوصاً في هذه الظروف البالغة الصعوبة والخطورة، فالحرب ما زالت مشتعلة، والقتلى بالمئات إن لم تكن بالألوف كلّ يوم، لأنّ المحمّدية (أنصار الخليفة محمّد الأمين) ما زالوا يقاتلون حيثما استطاعوا الصمود والقتال، وهم ما زالوا يعتقدون في غالبيتهم الغالبة أنّ الأمين عائد لا شكّ وأنه لم يهرب، بل سيعود قريباً بجيش قادر على أن يهزم الجنّ. وكان القادة الذين كانوا على قناعة بأنّهم مائتون في كلّ حال، يقاتلون بضراوة لا مثيل لها. وكان إبراهيم بن المهديّ بدأ يحاول السيطرة على الوضع، والإمساك بزمام الأمور، وبدأ ينظّم الدفاع عن بغداد أو ما تبقّى منها، ويحاول تأخير جيش طاهر عن احتلالها ما استطاع، حتى يوهم المأمون بأن الحرب لم تنتهِ بهروب الأمين، بل أنها ستطول، وذلك حتى يرضى به كحلّ وسط يحقن الدماء ويوقف الخراب والدمار. لكنّ الزمن لا يعود إلى الوراء، وطاهر أدهى من أن تنطلي عليه هذه الحيلة، فقد نشر خبر مقتل الأمين قبل أن يتسلّم رأسه! وقبل أن يرى بعينه ويتأكّد بنفسه!

كان طاهر على علم بأنّ الأمين سلّم نفسه لهرثمة في الحرّاقة، وهي السفينة الحربية التي تقذف النيران. كانت تبلغه الأخبار دقيقة بدقيقة.

وكان هرثمة لا يبلّغ طاهر شيئاً عن مفاوضاته مع الأمين، وهو لم يبلّغه باستسلامه له، بل أبقى كلّ ما يتعلّق بهذا الموضوع سرّاً، حتى يكون له السبق عند المأمون. وكان هرثمة يريد أن يتفادى قطع رأس الخليفة بيده، أو بأمر منه، حتّى لا يأخذ عليه المأمون ذلك فيما بعد في المستقبل. لم تلعب برأسه الرغبة في العزّ كما لعبت في رأس طاهر. أراد أن يكون القرار والخِيار للمأمون بالذات.

أمّا طاهر فكان يريد أن يقطع رأس الأمين بنفسه، وكان يحرص حرصاً شديداً على أن يتصرّف بسرعة فائقة، قبل أنّ يبلّغ هرثمة المأمون بأنّه قبض على أخيه الأمين، لذلك بعث بزوارقه سرّاً إلى الحرّاقة لإغراقها بمن فيها. وكان على هذه الزوارق رجال من الهَرَويّة المعروفين بالسباحة والصيد البحريّ والملاحة، وكان معهم سبّاحون محترفون، فبلغوا الحرّاقة ولم تكن ابتعدت بعد كثيراً نحو مقصدها، وقلبوها بمن فيها، ولم يكن مع هرثمة بحّارة كثيرون ليدافعوا عنها. ولم يكن على هرثمة إلّا أن ينجو بنفسه، خوفاً من أن يغرق، أو خوفاً من أن يقتله رجال طاهر، وهم لا يعرفونه، وربما لا يعرفون من هو ولا سمعوا باسمه، فتعلّق بزورق وصعد إليه ومضى إلى عسكره في الجانب الشرقيّ.

أمّا الأمين فتحرّر من ثيابه، وسبح على غير هدى في هذه العتمة، فوصل إلى السراة حيث يعسكر بجنوده قرين الديراني، غلام

طاهر، فوقع في يده، فشكّ فيه عندما شمّ منه رائحة المسك والطيب، التي لا تفوح من أيٍّ كان من الناس، فكبّله وأُرسل يخبر طاهر ويستأذنه في أي شيء يفعله.

وفي انتظار أن يجيء ردّ طاهر، أُدخِلَ الأمين بيتاً مظلماً من قماش وخشب، وعليه من الثياب ما يستر عورته فقط. وكان قد سبقه إلى هذا البيت أحمد بن سلام الذي كان معه في الحرّاقة، وقد استطاع الخلاص من القتل بعد أن أغرى الذين قبضوا عليه بعشرة آلاف درهم، وعدهم بأن يحملها إليهم صباح اليوم التالي، وكان مكبّل اليدين والرجلين، مرميّاً على الأرض ينوء من البرد والخوف ولا يستطيع حراكاً.

أحمد بن سلام هو الذي أخبر زبيدة كيف قُتل ابنها الخليفة، قال: عند جهجهة الضوء أُدخل عليّ رجل عريان، عليه سرواله الداخلي وعمامة تلثّم بها، وعلى كتفيه خرقة من قماش، ودُفع نحوي فجلس صامتاً لا يُسمع منه سوى صوت تنَفسِه، ثمّ بعد قليل، حسر العمامة عن وجهه فإذا هو محمّد الأمين! فاضطربتُ، ثم راح ينظر إليّ، ثم قال: من أنت؟ قلت: مولاك يا سيّدي. قال: وأيّ الموالي أنت؟ قلت: أحمد بن سلام. قال:

ـ يا أحمد.

قلت: لبّيك يا سيّدي. قال: ادنُ منّي وضمّني إليك فإنّي أشعر بوحشة قاتلة!

فاحتلت على قيودي حتّى تحرّرتُ منها، واقتربتُ منه فضممتُه إليّ، فإذا جسدُه وما عليه ما زال مبلّلاً بالماء، وقلبه يخفق خفقاناً

شديداً. ثمّ قال: أخبرني عن أخي المأمون ابن أبي هارون الرشيد، أحيّ هو أم ميت؟ قلت: وكلّ هذا القتال الذي تخوضه ضدّ من إذن؟ قال: أخبروني أنّه مات! قلت: قبّح الله وزراءك فهم أوردوك هذا المورد.

ـ يا أحمد! قال لي، ليس هذا موضع عتاب، فلا تقُلْ في وزرائي إلّا خيراً، فما لهم ذنب، ولستُ أوّل من طلب أمراً فلم يقدر عليه.

ثم بدأ يرتجف، فخلعت ثوبي عنّي وقلت له: البس إزاري هذا، وارمِ عنك هذه الخرقة التي عليك. قال: من كان حاله مثل حالي فهذه له بكثير.

ثم صمت برهة، ثم قال:
ـ يا أحمد! لا شكّ أنهم سيحملونني إلى أخي، أتعتقد أنّه سيقتلني؟ قلتُ: كلاّ، إنّ الرحم ستجعله يعطف عليك. فقال: هيهات! الملك عقيمٌ لا رحِم له.

قلتُ: ولكنّ هرثمة أعطاك الأمان، وأمان هرثمة هو أمان أخيك.

فلم يجب بعد هذا بشيء، مع أنني توقّعت أن يأتي على ذكر طاهر، لأنه يعرف أنّه الآن بين يديّ طاهر وفي رحمته، وأن طاهر يختلف عن هرثمة، لكنه التزم الصمت وطال صمتُه، وكان يرتجف. فاستأذنتُه بعد هذا أن ألقّنه الاستغفار وذكر الله، إلى أن فُتح باب البيت، ودخل علينا رجل يحمل سلاحاً، فاقترب من الأمين ونظر في وجهه مليّاً، ولمّا تثبّت من أنّه هو، خرج وأغلق

الباب وراءه. كان هذا الرجل محمّد الطاهريّ، وهو من رجال طاهر المخلصين القساة الأشداء، نظرت إليه وهو يتشبّث من وجه محمد الأمين، وعرفته. وعندذاك قلت في نفسي إنّه مقتول لا ريب قريباً، بين لحظة وأخرى. وكان بقي عليّ من صلاتي الوتر، فخفت أن أقتل ولم أوتر فقمت لأوتر، فقال لي:

ـ يا أحمد، لا تبتعدْ عنّي. صلِّ بقربي. إنّي أشعر بوحشة قاتلة.

فاقتربت منه، ثمّ بعد قليل سمعنا حركة خيل في الخارج، وكلاماً في لغة هجينة تذكّر بالعربية وليست عربيّة، ثمّ دخل قوم من العجم بأيديهم السيوف مصلتة، فنهض محمّد في حركة تلقائيّة غريزيّة للدفاع عن نفسه وهو يقول: أما من حيلة؟ أما من مُغيث؟ وكان بعضهم يدفع بعضاً، وكان بعضهم يقول لبعض تقدّم، فتناول محمّد بيده وِسَادةً وراح يصرخ: أنا ابن عمّ رسول الله، أنا ابن هارون الرشيد، أنا أخو المأمون، الله الله في دمي! فتقدّم نحوه رجل منهم مولى لطاهر، وضربه بالسيف على مقدّمة رأسه، فرماه محمّد بالوسادة التي كانت بيده على وجهه، واندبّ عليه يحاول أخذ سيفه، فصاح المهاجم بالفارسية: قتلني الرجل! فأسرع نحوه واحد منهم وغرز سيفه في خاصرة محمّد، فسقط على وجهه، وتكاثروا عليه وذبحوه من قفاه، وأخذوا رأسه ومضَوا به إلى طاهر، فأمر بنصب رأسه على باب من أبواب بغداد يعرف بباب الحديد، باتجاه قطرُبل في الجانب الغربيّ، وانتشر الخبر في كلّ أنحاء بغداد، وجاءت جموع غفيرة من المناطق التي يسيطر عليها جيش طاهر، لرؤية رأس محمّد الأمين معلّقاً على خازوق في باب الحديد. أمّا في المنطقة التي كانت ما زالت تقاوم، فكان منهم المصدّق وكان منهم المشكّك. وأمّا إبراهيم بن المهديّ الذي أعلن نفسه خليفةً،

فكان بين المشكّكين غير المصدّقين. أمّا معبد بن رباح فصدّق الخبر، ومسح حاجبيه بهذا الدهان السحريّ، الذي استعان به أوّل مرة ذهب عند الخليفة، وانسلّ خفيةً إلى منطقة باب الحديد، فرأى بعينه رأس الخليفة الذي كرّمه، وأجلسه مجلسه، وأحبّ غناءه، صوتاً وأداء وتلحيناً، فخاف أن يبكي بين الجموع فينكشف أمره، فقهر نفسه وحبس دمعه، إلى أن بلغ النهارُ الظهرَ، فجاء الجند وأنزلوا الرأس ووضعوه في منديل، وأحاطوه بالقطن وأنواع مختلفة من الأطلية الحافظة، ومضوا به إلى خراسان، ليراه المأمون بعينه، ويطمئنّ قلبه.

والجثّة؟ تساءل معبد بن رباح.
أمّا الجثّة فدُفنت في بعض تلك البساتين هناك.
واحتار معبد بن رباح.

احتار حيرةً لم يعرف مثلها من قبل في حياته كلّها، ولم يتوقّع أن يعيش مثلها ذات يوم: أيهرب إلى البصرة ويبحث هناك عن خُزَيمة ابن خازم، المغرم بغنائه؟ أم يعود إلى عائلته وأهله في الحجاز؟ ماذا سيقول لأنصار طاهر والمأمون إن قبضوا عليه؟ وهل سيتركون له الوقت ليقول لهم شيئاً؟ أم يبحث عن صديقه أبو زكّار الأعمى الذي صحّ ما توقّع، وتحقّق ما حلم به؟

وخاف معبد أن يرسل إبراهيم بن المهديّ في طلبه، فهو لا يستطيع أن يرفض، ولا يمكن أن يقبل في حال من الأحوال، فما العمل؟

ومعبد بن رباح لم يكن في الحقيقة ضدَّ المأمون، ولم يكن منحازاً للأمين لسبب سياسيّ، أو دينيّ أو طائفيّ أو مذهبيّ أو إيديولوجيّ،

بل كان يحبّه لأنّه الخليفة، وقد رفعه إلى مجلسه وأحبّ غناءه، وهو الذي كان أقصى حلمه أن يدخل بيت أحد الأغنياء أو الأشراف ليغنّي فيه، ويعتاش بكرامة من ذلك الغناء. لكنّ أحداً من المعنيين بهذه المعركة لن يستطيع أن يرى هذه الفروق في المواقف، فالناس عادةً، والمحازبون بشكل خاص، يتطلّبون من الإنسان أن يكون إمّا مع وإمّا ضد، ولا مكان لأي موقف خارج هذين الموقفين.

وقرّر أخيراً أن ينتقل إلى البصرة وقد أصبحت الطريق إليها آمنةً، علّه يلتقي هناك خُزيمة بن خازم المغرم بغنائه، ويحظى عنده بما يبغيه، وما يبغيه الآن ليس أكثر من الستر والحماية، ثم بعد ذلك بكثير تأتي مسألة الاعتراف بقيمته الفنيّة وما يستتبعها من هدايا ومال. ثمّ، وهذا هو الأهمّ، ينتظر هناك حتّى يستقرّ الوضع في بغداد على شيء ما، فيصبح بإمكانه الاتصال بصديقه أبو زكّار الأعمى، ويسأله رأيه إن كان في استطاعته العودة إليها، أو إذا كان النظام الجديد سيلاحقه لأنّه من أنصار العهد البائد، فاستقلّ أوّلَ سفينة وذهب فيها إلى البصرة.

وفي البصرة نزل من السفينة وهو حائر، لا يعرف أين يتّجه، وكان يتحاشى الإكثار من طرح الأسئلة، حتّى لا يُثير حشرية أحد فيتعرّض لأسئلة محرجة. لكنّ فتىً كان هناك قرب مراسي السفن يتأمّل القادمين، رآه وانتبه إلى حَيرته، فتقدّم منه وقال له: تسأل عن مكان تبيتُ فيه؟ أجابه: نعم! كيف حزرت؟ قال له: اتبعني. فتبعه حتّى أوصله إلى أحد البيوت وقال له: دقّ على هذا الباب. واختفى.

استقبلته امرأة حاسرة عن وجهها وقالت له: تفضّل! كأنّه ضيف تنتظره وقد حان وقت مجيئه. ثمّ دنا منها وهي تتأهّل به، صبيّتان حاسرتان أيضاً، «كأنّهما ظبيتان»، ووقفتا قربها. قالت له المرأة: اصعد إلى الغرفة فوق وابقَ فيها، ولا تنزل إلّا إذا سمحتُ لك بالنزول. فصعد معبد بن رباح، وقعد في هذه الغرفة عاماً كاملاً! وكانت المرأة في هذه الأثناء، ترسل له مع عبدة لها كلّ ما يحتاج له، وكلّ شيء في موعده، وكانت تزوره في الصباح، وتسأله عمّا يحتاج إليه، وكذلك عند الغروب.

وكانت ملاحقة المحمّديّة، أنصار محمّد الأمين، تتزايد يوماً عن يوم، في بغداد وفي كلّ مكان هربوا إليه، على امتداد الأمبراطوريّة بكاملها، وكان المنادون يردّدون كلّ ساعة وكلّ يوم أنّ من يُخفي أحداً من أنصار محمّد المخلوع، هو بريء من ذمّة الخليفة الجديد، عبد الله المأمون بن هارون الرشيد.

وكانت المرأة تطمئنه حين يبدي خوفه من نداء المنادين، وتقول له هذا نداء شائع ويوميّ، فإن أردتَ البقاء فلا يزعجك شيء أبداً، وإن أردتَ الانصراف، أعلمني لأتدبّر أمرك، ولكنْ إيّاك أن تختفي بدون علمي.

وبعد أن استقرّ الأمر بمعبد بن رباح عند هذه المرأة، وبعدما شعر بنوع من الأمان في ضيافتها، طلب منها عوداً، فقالتْ له ليست هذه المرحلة مرحلة غناء. فقال لها إنّه لا يريد أن يغنّي ولكنّه يريد فقط ألّا ينسى الغناء، فقدّمت له عدّة أعواد ليختار واحداً منها، وطلبت منه الانتباه حتّى لا يسمعه أحد فينفضح أمره.

تعجّب معبد من أنّ هذه المرأة لم تفاجأ إطلاقاً بطلبه عوداً، بل تصرّفت وكأنّ طلبه كان أمراً طبيعيّاً جدّاً! تصرّفت تصرّف من يعرف أنّه مغنٍّ. وفوجئ أيضاً بأنّها قدّمت له عدّة أعواد ليختار ما يناسبه منها. فما معنى كلّ ذلك؟

والأكثر إثارةً للدهشة من ذلك كلّه، هو أنّ معبد أقام عندها عاماً كاملاً وهي لا تسأله عن اسمه، ولا عن سبب طلبه الاحتماء عندها، وهو كذلك لم يجرؤ على سؤالها عن اسمها ولا عن اسم زوجها أو ابنتيها.

وبعد مضيّ عام على إقامته عندها، باح لها بأنه تعب من الإقامة «هنا»، وأنّه لا بدّ له من الرحيل. فسألته إلى أين؟ أجابها إلى بغداد.
إلى بغداد! قالت بدهشة!

هنا كان لا بدّ لها من أن تسأله عن السبب الذي يدعوه للعودة إلى بغداد! فأجابها: أينما ذهبتُ في هذه الخلافة التي لا تغيب عنها الشمس، سأبقى هارباً ملعوناً منبوذاً، لذلك عليّ العودة إلى بغداد حتّى أسوّي أموري، فإن استطعتُ كان به، وإلّا يكون هذا هو المكتوب الذي لا مفرّ منه. لي صديق هناك، مغنٍّ أعمى، اسمه أبو زكّار البغدادي، لن يتركني أجابه وحدي ما عليّ مجابهته، بل سيساعدني ما استطاع. إنّي أفضّل هذا الحلّ على البقاء هكذا بلا مبادرة أو خطّة أو أُفق.
أبو زكّار صديقي، وقد اشتقتُ إليه.
ما رأيكِ؟ سألها!
فوجئتْ بالسؤال وأجابته بعد حيرة: لا شيء!

لكنّها أخبرته أنّ بغداد ما زالت غارقة في الفوضى، وأنّ إبراهيم بن المهديّ ما يزال يعلن نفسه خليفة، ويؤمّ الناس في المساجد، وأنّ كثيراً من أنصار الأمين يناصرونه، ولكنّ المأمون في الطريق إلى بغداد، وسيقتصّ منه لا شكّ قصاصاً رهيباً، فبعد هذا الدم الذي دفعه وهذه المعارك التي خاضها ضدّ أخيه، فكيف سيسمح لعمّه إبراهيم بادّعاء الخلافة لنفسه بحجّة حقن الدماء؟ وأيّ دماء سيحقن بعد الآن، وقد جرى ما جرى، ورأس الأمين عُلّق في فارس بعد بغداد؟

كان معبد بن رباح يخاف كثيراً أن يبوح لها بأنه جاء إلى البصرة باحثاً عن الرجل الذي يعشق أغانيه، فهو يظنُّ أنها آوته لأنها محمّديّة الهوى، فهمت دون أن تسأله، أنه هارب من المأمونيّة أنصار المأمون، وهو يظنّ أيضاً أنّها أرادت أن يبقى كلّ شيء مضمراً، خوفاً من عواقب التصريح. فإذا باح لها بأنّه اختار الهروب إلى البصرة، لأنه يريد البحث عن خزيمة بن خازم، أحد مناصري المأمون الذي هرب من بغداد، عندما قرّر الأمين خلع أخيه المأمون من ولاية العهد، فقد تسيء الظنّ به. لكن إذا كانت هذه حالة بغداد كما ذكرتْها له، فلا بدّ إذن من أن يصارحها بالأمر، وقد آوته عاماً كاملاً حتّى الآن، وهي ما زالت مستعدة لتؤويه ما يشاء. تستطيع إذن تفهّمَ وضعه.

كان عليه أن يحسم أمره أخيراً وأن يقرّر، فاستقرّ رأيه على أن يخبرها كلّ شيء، لأنه ليس عنده في نهاية الأمر شيء يخفيه أو يخجل منه. فأخبرها من هو ولماذا جاء إلى بغداد، وكيف استطاع أن يغنّي في مجلس الأمين، وما جرى له أثناء الحرب وكيف قرّر هجر بغداد بعد أن رأى رأس الأمين معلّقاً على خشبة في باب

الحدّادين في بغداد. وأخبرها عن صديقه أبو زكّار البغداديّ الأعمى، وأنّه قد يشفع له عند المأمون وأنصار المأمون. وأخبرها أنّ خزيمة بن خازم هو أيضاً من أنصار المأمون، وقد هرب من بغداد بعدما نصحَ الأمين بألّا يتّخذ قراراً بخلع أخيه، وتعيين ابنه القاصر وليّاً للعهد، فغضب عليه الأمين. قال خزيمة بن خازم للأمين: «لا تُجرئ القوّاد على الخلع فيخلعوك، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك»! لكنّ هذه النصيحة لم ترض الأمين، فاضطرّ خزيمة بن خازم إلى الابتعاد عنه فترة، ثم لمَّا شعر أن الإعداد الفعلي للحرب قد بدأ، ترك بغداد سرّاً وقصد مكاناً مجهولاً.

وأخبرها معبد أنّه علم فيما بعد، أنّ خُزيمة استقرّ في البصرة بعدما قُتل عليّ بن ماهان، وبعدما استشعر أنّ حصار بغداد واقع لا محالة.

وقال لها أيضاً: أنا في الأخير لا يهمّني من هو الخليفة، ولكن الأمين كرّمني تكريماً لم أكن أحلم به، وأجلسني مجلسه، فإنني أحببته حبّاً لم أعرف مثله من قبل، وقد أُعجب بغنائي وأعادني عدّة مرّات، وكان محاصراً. لم يُنْسِه من المغنّين الحصارَ سواي! ولم يُنسِهِ دنوّ أجله غيري، فكيف لا أحبّه، هذا كلّ شيء، لكنّني في الوقت نفسه لا أكره المأمون.

أمّا المرأة فبكت، وقالت له أنت قلت ما في قلبك، لكنني لا أستطيع أن أقول ما في قلبي. قال لها لماذا؟ وألحّ عليها إلحاحاً شديداً فلم تبح. هنا ورد في خاطره أن يسألها عن البنتين، فقال لها: وهاتان البنتان؟ لماذا ليستا متزوّجتين، وهما على هذا القدر

الخطير من الجمال؟ فسكتت. لم تجب بشيء على الإطلاق. ثمّ لمّا ألحّ عليها قالت: الدنيا نصيب!

أتزوّجيني واحدة منهما؟
قالت: لا!
قال: اسأليهما قبل أن تجيبي بهذه السرعة. قالت: لا!

ثمّ صارت شيئاً فشيئاً تتبنّى جميع مشاكله، وصارت تتعامل مع هذه المشاكل وكأنّها مشاكلها الخاصّة بالذات، وصارت تساعده بالنصح والمشورة والعمل أحياناً كثيرة.

لكنّ الحقيقة التي كان يجهلها معبد بن رباح، هو أنّ هذه المرأة استدلّت على منزل خزيمة بن خازم قبل أن يطلب منها ذلك. ولم يكن من السهل الاستدلال عليه أو على أحد يعرفه، خصوصاً في هذه الأيّام الحذِرة، حيث يخاف الناس البوح بما يملكون من معلومات، مهما كانت عاديّة، ومهما كانت تافهة، إذ إنّ الأوضاع لم تستقرّ بعد، والناس يعيشون مرحلة انتقال قلقة جدّاً، فالأمين قُتل منذ وقت قليل، وكثير من الناس لم يصدّق مقتله حتّى الآن، والمأمون لم يبلغ بعد بغداد ليستقرّ فيها، وعمّه إبراهيم بن المهديّ أعلن نفسه خليفة، وما زال هدم البيوت مستمرّاً، وكذلك التصفيات، ووضع اليد على أموال الناس المنقولة وغير المنقولة وإلخ.

ولكنها استدلّت عليه أخيراً.
ثم أخبرت معبد بمكان إقامته فورَ أنْ طلب منها ذلك، ففوجئ وسألها إن كانت تعرفه فقالت له: لا! فقام فوراً وقصد منزله.

ولمّا وصل إلى هناك، استقبله على الباب بعض الحرّاس، وقالوا له إنّه ترك البيت منذ قليل مع جواريه وخدمه إلى الأهوازا فركض إلى دجلة حيث ترسو السفن الذاهبة إلى الأهواز، فسأل عنه.. سأل عن شريف سيّد مع جواريه وخدمه، فقالوا له إنّه ما زال تاركاً إلى الأهواز، فركب في أوّل سفينة مبحرة إلى الأهواز، علّه يلتقي به هناك على الشطّ عند الوصول، قبل أن ينتقل إلى مكان آخر، ويختفي فيه من جديد. ولكنّ أحد ملّاحي السفينة تقدّم منه وقال له: هذه السفينة مستأجَرة، ولا يحقّ لك السفر فيها، فرجاه معبد أن يسمح له، لأنّه مضطرّ للوصول إلى الأهواز، لأمر فيه موت أو حياة، وقال له إنّه مستعدّ أن يجلس في زاوية من المركب، بحيث لا يزعج أحداً. وفي هذه الأثناء، أقبل الرجل الذي استأجر السفينة، وقد سمع ما دار بين الاثنين، فرقّ لمعبد وقال للملّاح: دعهُ! وأمره أن يُجلسه في مؤخّرة السفينة ففعل. فشكر معبد الرجل الذي مضى بدون أن يلتفت إليه.

وجلس في زاوية من هذه الباخرة، يحلم بأن يلتقي بخزيمة بن خازم على الشاطئ، عند نزوله من الباخرة، وبأن يعرّفه عن نفسه وتتعرّف إليه خُليدة!

خليدة التي انتظرها طَوال تلك الليلة ولم تعد.

ولمّا صارت السفينة في فم نهر الأبلّة، وهي بلدة على «شاطئ دجلة البصرة العظمى»، في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، تغدّوا وشربوا، وأمر الرجل جواريه فغنّين، ومعبد بن رباح ساكت لا يأتي بحركة، كأنّه غير موجود، إذ يكفي الرجل منه هذا الإزعاج الذي سبّبه له. وكانت الجواري يغنّين أغاني لم

يسمعها ولا يعرف عنها شيئاً، وهي لا بدّ أن تكون أغاني لا يعرفها أحد غير هذه الجواري، ولا تُغنّى إلّا في بيت هذا الرجل الذي تبدو عليه النعمة عظيمةً وأصيلةً، كان في ودّه لو استطاع أن يسأل عن الملحّن، أو الملحّنين لأنّ فيها أكثر من أسلوب، لكنّه فضّل الصمت، وآثر ألّا يتدخلّ في الأمر وأن يبقى خارج الموضوع، لكنّ ما جرى هو أنّ إحدى الجواري بدأت تغنّي:

بانتْ سعادُ وأمسى حبلُها انصرمَا
واحتلّتِ الغَورَ فالأجْزاعَ من إضَما
(الشعر للنابغة الذبيانيّ، واللحن لمعبد الأوّل أبي عبّاد، خفيف ثقيل أوّل بالبِنصر)

فقاطعها سيّدها وقال لها، غَنِّ هذا الشعر بلحن معبد بن رباح! فاضطرب في جلسته وكأنّ كهرباءً مسّته. لقد لفظ اسمَه! أم أنّه كان يحلم؟ فركّز انتباهه على ما ستغنّيه، وبالفعل اندفعت تغني هذا الشعر بلحنه الذي من الثقيل الثاني بالبنصر. فاضطرب ولم يعد يستطيع السيطرة على نفسه: هذا هو اللحن الذي علّمه لخُلَيدَة، فكيف بلغ هذه الجارية ومن علّمها إيّاه؟

غنّته لكنها لم تُجِدْ أداءه، فلم يتمالك نفسه، وصاح بها: يا جارية إنّ أداءكِ هذا ليس بمستقيم! فسمعه سيّدها فقال له: وأنت من أنت لتتدخّل في الأمر؟ إلزمْ حدّك! فسكت معبد بن رباح مرغماً، وودّ لو يبوح بمن هو للرجل، لكنّه قال في نفسه: الحذر! الحذر! وخاصّةً في هذه الأيّام الصعبة. ثمّ غنّت من غناء غيره، وهو ساكتٌ لا يتكلّم، وكان يحاول حفظ هذه الأصوات التي يسمعها لأوّل مرّة.

وكان الرجل مستلقياً يتلقّى الشمس بوجهه، وجارية عند قدميه، تأخذ القدم منهما في حضنها، وتفركها فركاً على أساس، وليس كما اتّفق، وجارية بين يديها تأتي لها بالماء والزيوت وأنواع العطور. وكانت جواريه سافرات وهنّ يغنّين له أو يهتممن به. لذلك كلّه كان من قلّة الحياء التدخّل، لئلا يَظنّ الرجلُ أنه يتلصص عليه وعلى جواريه.

كان بين الرجل وغرفة قيادة السفينة عازل يحجبه عنهم. وكان معبد جهة القيادة، لكنه كان يسترق النظر أحياناً من بعض الثقوب.

ثمّ قال لها سيّدها: غنَ لمعبد، فقالت: أيّهما؟ قال ابن رباح! فغنّت:

إنّما أبلى عظامي وجسمي
حبُّها والحبّ شيء عجيبُ

لكنّها هذه المرّة أيضاً أخلّت ببعض أجزائه، فلم يتمالك معبد بن رباح نفسه هذه المرّة أيضاً من أن يتدخّل ويصيح: يا جارية! لقد أخللتِ بهذا الصوت إخلالاً شديداً! فجاءه صوت الرجل سريعاً وغاضباً من خلف الحاجز: أيّها الغبيّ المعتوه، ألن تكفّ عن هذا الفضول؟ إن كرّرتها مرّة أخرى سآمر الملّاح برميكَ إلى الماء!

ثمّ غنّت الجارية لبعض المغنّين، وكان هو يسمع ويحاول حفظ ما يسمع، لأنّ أغلب هذه الأغاني كان يسمعها للمرّة الأولى، إلى أن طلب منها سيّدها أن تغنّي له لحن معبد بن رباح في شعر عمر بن أبي ربيعة:

وجَلاَ بُردُها وقد حسَرتْهُ
نورَ بَدرٍ يُضيءُ للناظرينا
(جلا: كشف. بُرد: ثوب. حسَرتْه: أزاحته)

فلم تنجح الجارية في أدائه أداء جيّداً، بل بالعكس، كان أداؤها له هذه المرّة أسوأ من المرّتين السابقتين، فلم يستطع معبد السيطرة على نفسه هذه المرّة أيضاً، ووقف وصاح بالجارية بأعلى صوته، وبغضب شديد: ألا تستطيعين أداء صوت واحد بشكل جيّد؟ فقام الرّجل من بين يدي جواريه غاضباً، وقد أزعجه فضول هذا الرجل الذي أحسن إليه، فنادى على الملاّح ومن معه، وأمرهم بإلقاء معبد ابن رباح في الماء، فأمسكوا به وقذفوه إلى الماء، وهو يصرخ ويستغيث ويقول: أنا معبد بن رباح! أنا معبد بن رباح! اقطعوا رأسي إن كنتُ كاذباً!

وأُخرج معبد بن رباح من الماء وهو على آخر رَمَق، ووُضِع في زاوية من السفينة ليستعيد أنفاسه، ولمّا عادت إليه نفْسُه، بدأ يفكّر في العواقب المحتملة لفضوله. فماذا لو كان الرجل مأمونيّاً، وكان على علم بمن غنّى أخيراً في مجلس الأمين. إنّ الأمراء والقوّاد والكتّاب والوجوه عامّة، يدفعون الأموال الطائلة ليتجسّسوا بعضهم على بعض، وليعرفوا من يغنّي ماذا وعند من؟ هذا بشكل عام وفي الأيّام العاديّة، فكيف إذن اليوم، وجواسيس طاهر في جوف دار الأمين، وفي جوف دور قوّاده وأمرائه. ولا يمكن لمغنٍّ طلب منه الخليفة أن يعيد غناء مقطع أو أغنية بكاملها، ألّا تتداول اسمه الأوساط المعنيّة!

واستعدّ معبد ليدفع ثمن خطئه. وراح يهتمّ وهو على هذه الحالة

النفسيّة بتنشيف ثيابه. وحاول ألّا يسمع غناء هؤلاء الجواري، وحاول أن يتصرّف وكأنّهنّ غير موجودات، وكأنّه على السفينة وحده، استأجرها ليقوم بجولة سياحيّة في أهواز العراق الجميلة، وعلى شطّ العرب الذي سمع به ولم يزره من قبل. وأقسم أنّه سيحرق لحيته، إن عاد وتدخّل في شؤونهم. سيشتري شمعة من أوّل دكّان يقع عليها، بعد نزوله من الباخرة، وسيحرق لحيته بها. ولام نفسه كثيراً على ما فعل.

ومضت ساعة من الزمن، ومعبد هادئ مستكين، مشغول بتجفيف ثيابه.

ثمّ بدأ الجو يبرد والشمس تنحدر نحو الغروب، فسكتت الجواري عن الغناء، وسكنت كلّ حركة، ما عدا صوت السفينة ينشقّ عنها الماء، وبدا لمعبد بن رباح، أن الرجل يسبح في حلم، أوحت به غابتا النخيل، على طرفيِ دجلة، وأنّ الجواري حوله كفراشات من السكينة والمؤانسة، فاندفع يغنّي فجأةً:

وجَلا بُردُها وقد حسَرَتْه
نورَ بدر يُضيء للناظرينا

اندفع يغنّيه بلحنه، وبكلّ ما يشعر به من حرمان وضياع وخيبة. ومن أعماق أعماقه. وبكلّ الرجاء.

وما إن انتهى من أدائه حتّى صاحت الجواري: أحسنتَ! عمّن أخذتَ هذا الصوت؟ أعِدْ! فقال لا والله لن أعيد. ثمّ اندفع مرّة ثانية وغنّى صوتاً آخر ليس من تلحينه، فقلن لسيّدهن: لم نسمع غناء أجمل من هذا الغناء، ولم نسمع مغنياً أجودَ أداءً من هذا

المغنّي! فسله رجاءً أن يعيده علينا، ولو مرّة واحدة، لعلّنا نأخذه عنه، لأنّه إن لم يعده فلن نستطيع أخذه. فأجابهنّ سيّدهن: سمعتنّ ردَّه عليكنّ، فهو لا يريد، فكيف نجبره؟ وكان الرجل في الحقيقة، يموت رغبةً في أن يأخذ جواريه عنه، لكنّه كان يفكّر في الحلّ المناسب. ثمّ قال لهنّ: لقد أسأنا إليه ورميناه إلى الماء حتّى كاد يغرق ويختنق، فاصبرن قليلاً حتّى نرى كيف نداريه.

ثمّ غنّى معبد صوتاً آخر من لحنه، «فزلزل عليهم الأرض»! فوثب الرجل وخرج إليه وقبّل رأسه وقال له: يا سيّدي أخطأنا إليك وأسأنا، ولم نعرف أهمّيتك، ولم نقدّرْ عملك وفنّك وإبداعك، فاعف عنّا إنّ العفو عند المقدرة! فأجابه معبد: افترض أنّك لم تعرف مقامي، أكان ينبغي عليك أن تتسرّع وأن تتصرف نحوي بهذا الشكل الشديد السوء. أما كدتَ تقتلني؟ فقال له: أخطأتُ يا سيّدي، ها أنذا أعترف لك بخطئي، وأعتذر إليك ممّا جرى فأرجو منك أن تقبل اعتذاري!

يا إلهي! قال معبد في نفسه غير مصدّق ما يجري.
تفضّل واجلس معنا. اختلِطْ بنا. قال له السيّد.

أمّا الآن فلا! قال معبد، وقد أحبّ أن يُديم هذه اللحظة ما استطاع، دون أن يجعل الرجل ييأس منه، أو أن يحسّ بالخيبة والخذلان.

وظلّ الرجل يرجوه ويدعوه حتى استجاب معبد، وانتقل إلى جهتهم، واختلط بهم. فقال له الرجل: ممّن أخذت هذا الغناء؟ قال له معبد: أجبني أوّلاً ممن أخذتْ جواريك هذا الغناء؟ أجابه

الرجل: هذه قصّة طويلة إن شئت أخبرتك إيّاها، قال معبد قد شئت فهات أخبرني. قال الرجل: ذهبت مرّة إلى المدينة عند صديق لي، فسمعت جارية تغنّي، وأنا كما ترى أحبّ الغناء حبّاً لا يوصف، فسحرني غناء هذه الجارية فاشتريتها وجئت بها إلى بغداد، وبعد حوالي سنة ماتت ولم أعرف لماذا، لأنها لم تشْكُ يوماً من مرض أو وجع. وكانت أخذت عن مغنّ من هناك اسمه معبد بن رباح بعضاً من الأغاني، فأحببتُ أغانيها هذه حبّاً صيّرني عبداً لها. وقد طلبتْ منّي يوماً أن أرسل في طلب معبد فوافقتُ، وخطّطنا معاً لذلك لكنها ماتت. ولحسن حظّي بقي لي بعدها هؤلاء الجواري، وقد اعتنت هي بنفسها بتخريجهنّ. وأنا إلى الآن، كما تراني، أتعصّب لمعبد وأفضّله على المغنّين جميعاً، وأفضل صنعته على كلّ صنعة. فقال له معبد وقد أصابه الذهول: هذا أنت! قال ماذا تقصد؟ قال: هذا أنت الذي جئتُ أقصده من الحجاز؟ هذا أنت خزيمة بن خازم الذي عانيتُ من أجل أن أجده حرب بغداد! أنا معبد بن رباح الذي تحبّه وتفضّله! فتعانقا طويلاً، وقامت الجواري وانكببنَ على يديه ورجليه يقبّلنها، ويعتذرن عن سوء معاملتهن له.

وكان أوّل ما أراد معبد بن رباح الكلام عليه: خلَيدة! فسأله عنها ورجاه أن يخبره بالتفصيل، وكيف كانت حالها وهي تترك الحجاز، وأخبره أنه طوال تلك الليلة كان ينتظرها وأنّها لم تأتِ.
وبكى.
بكى معبد بن رباح لذكرى خُلَيدة الجميلة.

ثم أخبره قصّته كاملةً وبالتفصيل. قال: سمعت وأنا في الحجاز من بعض المسافرين، أنّك تحبّ غنائي، وتتعصّب له، وتفضّله على سائر

الغناء، فقرّرت أن آتي إليك، ووصلت إلى بغداد وعلقتُ في هذه الحرب المجنونة.

وأعطاه خزيمة بن خازم من ساعته، ثلاث مائة دينار، وهدايا وعطوراً بهذه القيمة وأكثر. وانحدر معبد معه إلى البصرة وأقام عنده، وانكبّ على جواريه يعلّمهن أيّاماً وأسابيع، وقد وعد خزيمةَ بأن يجعل من كلّ واحدة منهنّ خلَفاً جديراً بخليدة. وعندما اطمأنّ إلى مستواهنّ ورضي حِذقَهنّ، استأذن خزيمةَ بالانصراف، فأجابه خزيمة: مهلاً!

كان معبد يلاحظ في بيت خزيمة بشكلٍ خاصّ، وفي البصرة بشكل عام، نشاطَ المأمونيين المتزايد، ويلاحظ أيضاً أنهم يتصرّفون على أساس أنّ الخلافة باتت للمأمون بشكل لا رجعة عنه، وكان يرى انشغال خزيمة بن خازم بتدبير دخول المأمون إلى بغداد. وقد دُهش بزيارة قام بها هرثمة بن أعين إلى خزيمة، يرافقه مساعده زهير بن المسيّب الضبّي الذي ضرب بغداد بالمنجنيق، وهزم العراة في واحدة من أكبر المعارك، وأمعن فيهم القتل ورمت بهم خيوله، وقُتل من النظارة المتفرجين وقتها أعداداً كثيرة تقدّر بالآلاف. فخاف وقرّر الانسحاب. ولكن إلى أين؟

إلى أين؟ قال له خزيمة. ألستَ أنتَ الذي غنّيتَ لمحمّد الأمين وطرِب إليك وأعادك؟ ألم يأمر بإزالة الستارة وأنت موجود بين الندماء؟ ألا يعني هذا أنّك كنت من خواصّ ندمائه؟ فتحجّر معبد وتجمّد في مكانه. ألستَ أنتَ الذي كنت في الوفد، في الثلث الأخير من جيش الفرسان، الذي أراد محمّد الأمين الخروج به نحو الجزيرة؟
إلى أين تريد الذهاب إذن؟

وكان لا بدّ لمعبد بن رباح من أن يجيب بشيء، فقال: غنّيتُ في مجلس الخليفة يا سيّدي، ولم أغنّ في مجلس الأمين! فهل يمكن لرجل مثلي، مولى ابن عبد، أن يخالف الخليفة، وأن يرفض طلبه في المثول بين يديه للغناء؟ لم أكن أحلم بأن يعترف بي أحد في بغداد، فأجلسني هو مجلسه! ثمّ أنا لم آتِ إلى بغداد محبّةً بمحمّد الأمين، ولكنّني جئت بحثاً عنك!

اطمئنّ يا معبد من ناحيني، قال له خزيمة، فأنا لا أريد الانتقام منك، ولا أريد لك الضرر، لكنّ دماء غزيرة سالت، لأنّ محمّد الأمين غدر بأخيه، وخالف وصيّة والده العظيم، هارون الرشيد، الذي علّقها في مكّة، لتشهد عليها البشريّة جمعاء. ودُمّرت بغداد كما ترى، وقُتل عشرات الألوف من البشر، ما عدا الجرحى، لأنّ الأمين غدر بأخيه!

الإنسان يجب أن يكون دائماً إلى جانب الحقّ! استنتج خزيمة بن خازم. وقال إنّ وقوفه هو إلى جانب الحقّ كلّفه الكثير: قُتلت زوجتي عندما هاجمنا العيّارون والعوام والسفلة، وأرادوا تشليحنا. وأرادوا قطع رأسي بسبب ما سمّوه خيانةً وهو موقف حقّ! وكدتُ أن أُقتل. أهانني محمّد الأمين لأنني نصحتُه بالحقّ والصواب.

أنا أغفر لك وأعفو عنك، لكن عليك أن تتصوّر كيف سيكون الأمر مع المأمون عندما سيدخل بغداد. والمأمون لم يكن يدافع فقط عن حقّه المستمدّ من وصيّة والده، بل كان يدافع أيضاً عن الحق! الحقّ بالذات! كان يدافع عن قِيم الحقّ والوفاء، وكان يصون الخلافة كمؤسّسة ويفرض احترام الناس جميعاً لها، بمن

فيهم الخليفة بالذات. وعليك أن تتصوّر كيف سيكون الأمر معه عندما سينظر في لوائح الذين تعاملوا مع أخيه وتآمروا معه، ضدّ الحقّ والخلافة.

ألم تسمع بعيون طاهر؟ (عيون: جواسيس). كانت عيونه في غرفة نوم محمّد المخلوع، فوق المخدّة التي يلقي عليها رأسه، وكانت بين أثداء جواريه وبين أفخاذهنّ. فلن تهرب من حكم الخليفة، ولن تفلت، ولا يجوز!

ولكنّني، قال معبد، لم أكن ضدّ الخليفة المأمون، ولم آتِ من الحجاز إلى بغداد لأساند الأمين ضدّ المأمون ولأقاتل معه. جئت لأبحث عنك، ولو كنتُ حسَن الحظّ والتقيت بك فوراً لكان تمّ كلّ شيء بسلام، ولما كنتُ وصلتُ إلى ما وصلت إليه الآن.

ولكنّ قلبك خفق لرؤيته، قال خُزيمة، وتمنّيتَ له النصر على أخيه، وغنّيتَ له شعر أبي نواس:
فإن جرَت الألفاظ منّا بِمدحةٍ
لغيركَ إنساناً، فأنتَ الذي نعني

والمعارك جارية والدماء تسيل، والأمين مُتمادٍ في غدره، والمأمون يقاتل مرغماً قد فُرضت عليه المعركة. وأقسى شيء كان عليه هو أنّه كان يقاتل أخاه. فمن بيت أبيه ضُرب!

ولكن ماذا يغنّي واحد مثلي للخليفة يا سيّدي؟

ما كان عليكَ أن تساعد غادراً على التمادي في غدره. وكنتَ

على علم بما جرى، من أنّ الأمين قرّر عزل أخيه عن ولاية الخلافة بدون سبب موجِب، بل بدافع من الأنانيّة الكريهة الحاقدة فقط. لإعطائها إلى طفل قاصر.

حاضر! قال معبد بن رباح، وقد أحسّ بعجزه المطلق عن أيّ كلام.

لا تخَف منّي يا معبد، قال خزيمة، رغم كلّ الذي صارحتكَ به، فأنا كما ترى متعصّب إليك، وسأبقى، وسأعمل جهدي بعد عودتي إلى بغداد، كي أُنجّيك، لكن انتبه الآن، وابقَ منتبهاً إلى أن يدخل الخليفة بغداد، وتستقرّ أمور الخلافة، وأعلمني بمكان وجودك على الدوام. وأنصحك بألّا تحاول الإفلات. وما كنتُ أسمح لك بالانصراف من بيتي، وما كنت أتخلّى عن ضيافتك، لولا أني أريد أن أكون ناصع البياض، شفّافاً، في علاقتي مع الخليفة المأمون، فلا أريد أن يحاول أحد الإنقاص من إخلاصي له، باتهامي بأنّني آوَيْتُ معارِضاً له. خاصّةً أنّ بعض من زارني ورآك عندي يعرفك. ولكنّني أَعِدُك بأنّني سأتدبّر الأمر، اختفِ الآن. وأعطاه ألفَ دينار وغلاماً وفرساً وثياباً. وقال له مودّعاً: لا تنسَ الغناء! إصغِ لشيطانك! الغناء جمال الملك وبهاؤه وزينته، وما من ملك إلّا يَعرف ذلك، وبخاصّة المأمون.

وخرج معبد بن رباح من عنده مكسورَ الخاطر، خائفاً مضطربَ النفس مشغول البال، رغم الهدايا الثمينة التي حصل عليها منه، واتجه تلقائيّاً إلى بيت المرأة، التي آوته سنة كاملة دون أن تسأله عن اسمه. ففتحت له ورحّبت به، كأنّه لم يغب عنها. كانت وحدها، وفي خدمتها، إلى جانب جاريتها السوداء، عبد خصيّ. وكان هذا

النوع من العبيد غالي الثمن جدّاً، فسألها معبد من أين لها هذا؟ فاكتفت بالقول: إنّ الله كريم!

لا تفاتحه هذه المرأة بشيء.
فتحت له بيتها لكنّها لم تفتح له قلبها. وكانت حزينةً. وسألها عن بنتيها فقالت إنهما غائبتان! ففهم أنّه عليه ألّا يطرح مثل هذه الأسئلة التي لن تجيب عليها. فلن يؤدّي الفضول دائماً إلى نهايات سعيدة، كما حصل مع خزيمة بن خازم. أمّا هو فقد فتح لها قلبه، وأخبرها بما جرى له مع خزيمة بن خازم، وقال لها صراحةً إنّه الآن مطلوب من النظام الجديد، وطلب منها أن تسمح له بالاستتار عندها، وإلّا فهو مستعدّ للانصراف فوراً، حتّى لا يورّطها في شيء. فبكت غزيراً وقالت له: بل على الرحب والسعة. فشكرها وعرض عليها مالاً، فقالت له إنّها ليست بحاجة إلى مال.

وطال مكوثه عندها بدون أن يخرج، إلّا في الليل، إلى بعض الحانات، حيث كان يشرب ويستمع إلى بعض الغناء، ويطّلع على أخبار الخلافة، وما صارت إليه الأمور في بغداد، والاستعدادت الجارية لدخول الخليفة الجديد إليها، وما سيفعله بأنصار أخيه المخلوع، وما سيفعله بشكل خاصّ بعمّه، الذّي نصّب نفسه خليفة هناك، والذي ما يزال يتصرّف كخليفة رغم انتصارات طاهر الكاسحة، ورغم مقتل محمّد الأمين وتعليق رأسه في باب الحديد في بغداد، ثمّ في خراسان، ليراه الناس جميعاً.

وبقي معبد على هذه الحال حتّى دخل المأمون بغداد، وهرب إبراهيم بن المهديّ واختفى، وأمسك المأمون بزمام الأمور، وبدأت الأمور تستقرّ شيئاً فشيئاً في العاصمة، وفي المناطق الأخرى من

الأمبراطوريّة، فقرّر السفر إلى بغداد، بدل البقاء هنا في البصرة متخفياً، عاجزاً عن فعل شيء، خاصّة أنّ خزيمة بن خازم قد غادر هو أيضاً إلى بغداد، ودخلها مع المأمون، واستقرّ فيها، ثمّ إنّ أخباراً تجيئه عن عودة صديقه أبو زكّار إلى بيته، مع الجارية ظنّ، فلا معنى إذن لبقائه على هذه الحال، خاصّة أن هناك من يستطيع مساعدته بشكل جدّيّ. فأخبر المرأة التي تستضيفه بما عزم عليه. فباركت خطوته لكنها قالت له ليلة رحيله:

يا معبد بن رباح! يا مولى بني عُذيب! إسمع إذن قبل أن ترحل.
فاضطرب معبد وقال لها: تعرفين نسبي!

قالت المرأة:
إسمع يا معبد بن رباح:

أنا امرأة من قريش، عربيّة صرف، خالصة النسب، توفي زوجي ابن عمّي وكان قرشيّاً كريم النسب مثلي، وكنتُ أحبُّه حبّاً لا يوصف، فبكيتُ عليه واقفةً لأنّني قرّرتُ ألّا أتزوّج بعده. وقد شغلتني أحزاني به عن ابنتي شارية مدّةً، فسُرِقت وكانت صغيرة، فجننتُ! خاصّةً أنّها كانت كلَّ ما أنجبتُ! ومنعها خاطفوها من التكلّم بالعربيّة منعاً مطلقاً، وغيّروا اسمها، وعلّموها مكان العربيّة لهجة فارسيّة، حتّى يُظنّ أنها كانت من سبي فارس، أو شيئاً من هذا، وكانوا يضعونها في دهليز معتِم منتِن تحت الأرض، تتجمّع فيه الجرذان وتتّخذ فيه أعشاشها، كلّما تفوّهت عفواً بكلمة عربيّة، وكانت تُكوى بالنار على أصابع رجليها، كلّما أخطأت وخالفت أوامر أصحابها ونواهيهم، في كلّ ما يتعلّق بحياتها السابقة. ولمّا تأكدّوا من أنّها نسيت أصلها بالكامل ونسيت لغتها، باعوها إلى

سيّدة من بني هاشم مقيمة في البصرة، ثمّ باعتها هذه السيّدة إلى زبيدة والدة الخليفة المخلوع محمّد الأمين، وكان الأمين يهوى الغلمان، وكان كثيرون من أعدائه يأخذون عليه ذلك، فخافت عليه والدته زبيدة من هواه هذا، خاصّة أنها كانت مدركةً جدّاً لما كان من أمر الخلافة، وكَثرة الذين يريدون أن تكون بعد زوجها الرشيد لابنه المأمون من الجارية الفارسيّة، فكانت تشتري الجواري الصغيرات وتكلّف أحد المقرّبين إليها بتربيتهنّ كما يُرَبَّى الغلمان، حتّى يشتهيهنّ الأمين ويواقعَهُنّ كما يواقع الغلمان.

وكانت ابنتي شارية (حبيبتي التي غيّروا اسمها ثانية) في طور التهيئة هذا، عندما أرسلها المكلّف بتربيتها عند أحد المغنّين الشباب الوافد إلى بغداد من الحجاز، لتصحبه إلى بيته، وكان المكلّف قد تعرّف إليه في الحمّام الذي كان يأخذهنّ إليه، (ليعيشوا كما يعيش الذكور، فتصبح تصرّفاتهم ذكوريّة بشكل تلقائيّ)، فواقعها المغنّي رغماً عنها، ولم يكن يعرف من الأمر شيئاً، ولم يكن في استطاعتها أن تبوح له بهويّتها ومن هي، لأنّه كان محظّراً عليها ذلك، فحبلت منه، لأنّها حين رأت أنّه سيلجها بلا ريب، وأنّها عاجزة عن منعه، فضّلت أن تعطيه نفسها من الأمام، وأن يفضّها من الأمام بدل أن يفضّها من الخلف، لأنّ الخلف منزل الخليفة، إذا رادها أحدٌ هناك عوقبت بالقتل، فقادته إلى أمام، ففوجئ أوّلاً ثمّ اندفع كما يندفع الرجل المهتاج الملتهب، فعلقت (حبلت) بنتي شارية منه في هذا اللقاء. ولمّا بدأت الحرب بين الأخوين، انشغل الأمين عن ابنتي ورفيقاتها، وكان بطنها يكبر، ولم تعد تستطيع إخفاءه، فاستغلّت وضع الفوضى الذي كان يسود القصر، وهربت مع إحدى رفيقاتها، وجاءت إلى البصرة، وقصدتْ بيتي الذي كانت ما تزال تتذكّره. هي التي عرفتني أوّلاً ولم أعرفها. عندما

قَرَعَتِ البابَ، أمرتُ الجارية بأن ترى مَنِ الكوّة مَن الطارق، فعادت الجارية بثوب طفلة أعرفه، هو ثوب طفلتي الذي لا أنساه ما دمت حيّةً، وهو ثوبها الذي سُرقت وهي تلبسه، وقالت لي: في الباب جاريتان، تقول واحدة منهما إنها ابنتك التي سُرقت وكانت تلبس هذه الثياب، فجنّ جنوني وركضتُ فاندبّت عليّ. لم أعرفها أوّلاً لكثرة ما تغيّرتْ. وكانت حبلى.

وهكذا تعاظمتْ المشاكل على معبد بن رباح، وتكاثرت الهموم، وأحسّ أن مصيره لم يعد في يده وأنّه ألعوبة في يد القدر، وورقة خريف تلعب بها الرياح.

وأضافت أمّ شارية:
وحين أكملت البنت شهرها التاسع، وَلَدَتْ صبيّاً سمّته معبد.
معبد!
على اسم والده، حتّى يبقى الوالد حقيقة ماثلةً أمام ابنها وأمامها هي أيضاً، وحتّى يبقى حقيقةً واقعةً عندما تُعاقب فيما بعد، وهو عقاب حاصل لا ريب وفي كلّ الأحوال.

ولمّا كانت معارك بغداد بين جزر ومدّ، ولمّا كانت لا تعلم سوء العاقبة من انتصار أيّ من الأخوين، قبلتِ البنت بنصيحتي، فأرسلتُ الطفل إلى الحجاز عند أهلي وأهل زوجي. وكتبتُ لأهلي أنّني اشتريتُه من هاربين من بغداد قالوا إنّ أهله قتلوا في الحرب هناك. أرسلتُه مع جاريتي وشدّدتُ عليها ألّا تقول غير ذلك، وأن تقول أيضاً إنّني أرسلتُه لينمو في صفاء أرض الحجاز، وفي صفاء هوائه، وفي صفاء فصحاه العربية الخالصة، حتى ينشأ فيه وينمو ما يشبه زوجي، فأحبّه أكثر.

اسمك معبد بن رباح!

كانت ابنتي تتبّع أخبارك يا معبد، كانت تعرف علاقتك بأبو زكّار، كانت تعرف أنّك غنّيت في مجلس الأمين، وأنّك كنتَ في الثلث الأخير من جيش الفرسان حيث كانت هي، وكانت تعرف أنّك زرت إبراهيم بن المهديّ، وأنّ عُلَيّة أخته طارحتك لحناً من صنعها ومن كلماتها وأحبّت غناءك.

وهي، ابنتي، التي أرسلت إليك مع أحد الخدم ورقة كتبت عليها: انجُ بنفسك!

هل تتصوّر ما الذي كان جرى لك لو بقي الأمين حيّاً، وعلم بأنّك اغتصبت أحد جواريه؟

والآن أيضاً، وبعد انتصار المأمون، فهل تنتظر أن يكون الأمر سهلاً عليك؟

كانت شارية على ثقة بأنّك ستلجأ إلى البصرة، وكانت هي الفتى الذي استدرجك إلى هنا. لأنّها كانت تعلم بهرب خزيمة بن خازم إلى هنا، وكانت تعلم أنّه مغرم بغنائك وأنّك تبحث عنه. أما سألت عنه المكلّف بتربيتها، أمامها في الحمّام؟

وأرادت أوّلاً أن تجهض خوفاً من أن تُخنق، لأنّ الجارية التي تحيد عن درب الصواب تُخنق. هكذا حدث لرفيقتها التي قُبضَ عليها تراسل فتى. مدّدها أحد الخدّام المكلّفين بالجواري على الفراش، ووضع المخدّةَ على وجهها، وظلّ يشدّ عليها حتّى ماتت.

حلمت شارية بأن تهرب بحملها من القصر إلى أينما كان، وأن تلده وتربّيه، لكنّ هذا الحلم كان بعيد المنال، لا يمكن تحقيقه. وخافت أن يخنقوها، فقرّرت التخلّص منه سريعاً، لكن كيف؟

وفي غمرة هذه الحيرة تطوّرت الحالة في بغداد، وبدأت الرقابة على الجواري في القصر تضعف، فهربت مع صديقة لها إلى البصرة، ومعهما ما استطاعتا من الدنانير وعقود الذهب والسلاسل والخواتم وما إلى ذلك، وقصدتْ بيت والديها، بيتي هذا.

لم ينكر معبد شيئاً مما قالته المرأة أمّ شارية. بل بالعكس فقد قال بشكل واضح وصريح وعازم:

إنّها إذن زوجتي! وإنّني أتحمّل مسؤوليتي كاملةً، كزوج وأب!

قالت أمّ شارية: لا! لا يمكن أن تتزوّجها الآن وأن تكون تحتك وفي ملكك، لأنّها في الأصل ملك الخليفة الأمين، وكلّ ما كان ملكاً للأمين صار للمأمون، بما في ذلك الجواري والغلمان، فهو وارثه الوحيد. لا تستطيع شارية أن تهرب. يجب أن تعود إلى قصر الخليفة بشكل من الأشكال، لأنّ الخلفاء قد يتسامحون في كلّ شيء إلّا في الجواري. ويحبّ الخلفاء أن يتمتّعوا بجواري أعدائهم ومنافسيهم، وخصوصاً إذا كان هؤلاء أخوتَهم. كان الخليفة الهادي، شقيق هارون الرشيد، مولعاً بجاريته التي كان اسمها غَادَرْ، وكانت جميلة جدّاً، وكان صوتها أيضاً جميلاً جدّاً، وكانت جيّدة الأداء، وقد أمرها يوماً بأن تغنّي له، فغنّت:

أهابُكِ إجلالاً وما بكِ قدرةٌ
عليَّ، ولكنْ ملءُ عينٍ حبيبُها

فأجادت، وطرِب طرباً لا يوصف، وقام بكلّ جلاله وقبّلها وقبّلته، ثمّ غنّته:

أذاب الهوى لحمي وجسمي ومفصلي
فلم يبق إلّا الروحُ والجسدُ النضوُ

(النضو الضعيف الهزيل)

وما من محبّ نال ممن يُحبّهُ
هوىً صادقاً إلّا سيدخلُه زَهْوُ

فقام فجأة عن مقعده الملوكيّ، وضربها برجله، فوقعت عن كرسيّها، ووقع منها العود وانكسر. وراحت تركض وتصيح من الخوف ومن وقع المفاجأة، ثم أمر بإحضارها من جديد بعد أن هدأ غضبه، فحضرت بثياب جديدة وعود آخر، وجلست حيث كانت، فأدناها، فبكت متسائلةً ما ذنبها وما الذي فعلته واستوجب قصاصها، فقال لها: تخيّلتكِ مع أخي هارون وقد تسلّم الخلافة بعد وفاتي، على الكرسيّ المرصّع بالجوهر ذاته، وبالثياب المنسوجة بالذهب ذاتها، تغنّين له ويتمتّع بأغانيكِ وبكِ، فلم أطِقْ ذلك، ولم أتحمّله، فكان منّي ما كان. فقالت له: اقتلني قبل أن تموت! فأنا بعدك لن يطيب لي العيش على كلّ حال، اقتلني وأرِحْ قلبك من هذا الهمّ. وراحت تشهق بالبكاء، وكذلك هو، ثم مسحا الدموع عن أعينهما، وأمرها بأن تغني من جديد وقد اطمأنّ إلى إخلاصها. ثم أمر بعد ذلك بإحضار أخيه هارون، وجعله يُقسم بالطلاق من نسائه، وبعتق عبيده والحجّ ماشياً إن هو تزوّجها من بعده، ففعل.

وكان الهادي يريد خلع أخيه الرشيد من ولاية العهد، وقد أمر بالتضييق عليه في كلّ أموره، فابتعد عنه الرشيد، محتجّاً كلّ مرّة بحجّة، إلى أن جاءه خبر وفاته.

وأرسل هارون الرشيد، بعد أن أصبح خليفة، يخطب غادَرْ، فذكّرته بيمينها وبيمينه، فقال لها: أُكفِّرُ عن ذلك. فتزوّجها وزاد حبّه لها عن حبّ أخيه، حتّى أنها كانت تنام واضعةً رأسَها في حضنه، فلا يتحرّك لئلاّ تصحو!

جميع الجواري والغلمان يعرفون أنّ زبيدة والدة الأمين، كانت تراهن كثيراً على ابنتي، شارية، وكانت تقول إنّ الأمين سيغرم بها، لشدة ما كانت ذكيّة وجميلة وجذّابة. وكان صوتها أيضاً بدأ يتّضح ويحلو. لذلك يستحيل أن يمرّ غيابُها بلا أن يُلاحظ، ولن يسمح المأمون بذلك إطلاقاً.

هناك حلّ واحد لا أرى غيره، قالت أمّ شارية، وهو أن أستطيع إبلاغ المأمون بالظلم الذي حلّ بي، لأنّ ابنتي عربية، ولا يحقّ لأحد أن يسترّق عربيّةً ويحوّلها إلى عبدة جارية، إن هذا أمر محال. فإذا استطعت ذلك نكون فزنا جميعاً، أنا وأنت وابنتي وابنكما. ساعتذاك أزوّجك إيّاها. ولكن يجب أن نستطيع إبلاغه وإقناعه بقضيّتنا، حتّى يحرّرها وتصبح ابنتي من جديد وابنة زوجي، لكنّ المصيبة الكبرى ستقع في حال أمر بإبقائها بين جواريه، لأنّه إذا طلب رؤيتَها سيُعجب بها! ومن الذي يراها ولا يعجب بها؟

وأمّا إذا علم بأنّك واقعتَها، وبأنها حبلت منك ووضعت ولداً، فلن

يفلت من قصاصه أحد، لا أنت ولا هي! وخصوصاً أنت، لأنّ ما حدث كان رغم إرادتها. أمّا أنت فلن يسألك أحد كيف حقّ لك مواقعة «غلام» للخليفة، لأنّه لا يحقّ لك ذلك بكلّ بساطة. ثمّ إنّك من أنصار الأمين المخلوع.

لكنّ معبد لم يكن يعرف أنّ هذا «الغلام» هو ملك للخليفة، ولم يكن يعرف أنّ هذا الغلام هو جارية، وفوق هذا كلّه لم يكن يعرف أنّ هذه الجارية هي بنت عربيّة مسروقة، رُبّيت كما تُربّى الجواري السبايا. لم يكن يعرف كلّ هذا. كان يعرف فقط أنّ هذا الغلام ملك للسيّد الذي التقاه في الحمّام! لم يكن يعرف أكثر من ذلك. والذي حدث أنّ هذا الغلام سحره، وأنّه لم يصدّق أنّه صار عنده في غرفته في الفندق، وأنّه عندما حاول ولوجه فوجئ به يقوده إلى أمام.

هذا كلّ شيء. فهو إذن لا يتحمّل مسؤولية مواقعة غلام الخليفة رغماً عنه! فكيف بمواقعة جارية الخليفة؟

ولمّا سألها عن ابنتها اين اختفت، ولماذا لم يرَها منذ عاد، باحت له بأنّها أخفتْها، لئلاّ يعلم الخليفة فيما بعد أنّك انفردتَ بها تحت سقف بيت واحد، وأنّك نظرت إليها وهي سافرة، فيظنّ أنّك كنت تواقعها كما لو كانت زوجتك، فلا تعود عندذاك تنفع حجّتنا في براءتها، بل تصبح متآمرةً معك منذ أوّل لقاء لكما في بغداد.

ثمّ إنّني أودّ أن أبوح لك بشيء آخر، شديد الأهمّية، وهو أنّها تحبّك، وهي لهذا لم تَشْكُ اعتداءك عليها لأحد. أخبرَتْني أنّك،

عندما غنّيتَ في دار المكلّف بتربيتها، سحرتَها بغنائك، إذ كنتَ تغنّي لأنّك تحبّ الغناء، وكان صوتكَ متيناً وكليلاً، وأخبرتني أنّها خجلت من سوقية المكلّف، عندما استقدم المغني الشيخ العجوز. وكان المكلَّفُ وقتها يائساً من وضع الخلافة، وكان يردّد عليهنّ أنّ النعم لا تدوم، وأنّنا نعيش نهاية العالم! وكان من المستحيل عليها أن تصارحك وقتها بشيء، لأنها كانت في طاعة المكلّف، وما كان عليها سوى أن تطيع أوامره ولا شيء غير ذلك! أحسّت نفسها قريبةً منك، وأحسّتك وحيداً في أعماقك كما كانت هي وحيدة في أعماقها، فودّت أن تواسيك وأن تسلّي عنك. وعندما قال المكلّف: يا غلمان! فليذهب واحد منكم إلى معبد بن رباح في الفندق وليأتِ به إلى هنا، بادرت هي إلى القول: سمعاً وطاعة! أنا ذاهبة على الفور! وكان في مقدورها في الحقيقة ألّا تذهب، وأن تدع إحدى رفيقاتها تذهب مكانها، للدّالّة التي كانت تتمتّع بها عند زبيدة والدة الأمين، وكان الجميع يعرفون ذلك، لكنّها أرادت أن تذهب بنفسها لعندك. ولمّا صعدتْ إلى غرفتك كانت تشعر بأنّها محميّة ولا أحد يستطيع أن يمسّها بسوء. فاجأتَها! ولم تعد تعرف كيف تتصرّف، فلم تتعرّض من قبل لحادث من هذا النوع. كانت هذه أوّل مرّة يُعتدى عليها.

كان باستطاعة شارية أن تتخلّص من الطفل، وما تزال، وأن تعود إلى القصر ساعة تستقرّ الأوضاع، مدّعيةً أنها هربت عندما عمّت الفوضى وخافت على نفسها، لكنّها أرادت الاحتفاظ به مهما كلّفها الأمر!

هذه أوّل مرّة أسمع بفتاة اختارت أن تهرب من الحياة في دار الخلافة! قال معبد بن رباح. ثم سأل: والطفلُ؟ ابني!

فقالت أمّ شارية:
تريد الحقيقة؟ أرادت ابنتي أن تخبّئ الطفل خوفاً منك أيضاً، فقد خافت أن تريد التخلّص منه لئلّا يشكّل عقبة في طريقك أو خطراً على حياتك.

لا! قال معبد.

ووصل معبد بن رباح إلى بغداد متخفّياً في ثوب امرأة، ترافقه أمّ شارية، وقلبه يخفق خوفاً. فرحّبت بهما المرأة التي كان يقيم عندها، لكنها باحت له بما تفكّر به، ولم تُخفِ خوفها من أن يكتشف وجودَه عندها شرطةُ المأمون، وباحت له أنّها لا تخاف على نفسها بل تخاف على ابنها أن تنفصل عنه، فلا أحد يصدّق أنّه ابنها، لأنها سوداء وهو أشقر (حتّى أنت!)، وكثيرون يظنّون أنها سرقته عندما كان طفلاً.

لكنّها استضافتهما عدّة أيّام، حتّى وجدا مكاناً يقيمان فيه.

وكان أوّل ما قام به معبد، بعد وصوله إلى بغداد، زيارة صديقه أبو زكّار، الذي نصحه بالكتابة إلى عُليّة أخت الرشيد، فكتب لها رسالةً من عدّة كلمات، قال فيها إنّه موجود هنا في بغداد، وهو في طاعتها وتحت أمرها ساعة تريد شيئاً منه، وأعطى الرسالة إلى أمّ شارية، وطلب منها أن توصلها إلى أحد الحرّاس، عند مدخل الجناح الذي تقيم فيه عُلَيّة، وأن تطلب منه أن يُبلغها إيّاها. وهكذا كان، وانتظر طويلاً أن يجيئه جواب فلم يجئه، وكاد ييأس وهو لا يدري ما عليه القيام به للخروج من هذه العزلة، وصديقه أبو زكّار ينصحه بالصبر، ويطلب منه ألاّ يظهر كثيراً، لأنّ ملاحقة

أنصار الأمين ما زالت مستمرّة.

وكان معبد لا يكثر التردّد عليه إحساساً منه أنّه يفضّل ذلك، حتّى لا يُسيء الظنّ به أنصار المأمون. لكنّ أبو زكّار ظلّ صديقاً وفيّاً لمعبد، وكان ينصحه ويفعل من أجله ما استطاع. وهو الذي نصحه بالكتابة إلى عُلَيّة.

وإبراهيم بن المهديّ الذي أدخله إلى هذا العالم العجيب قد تخفّى، بعد أن اقترب المأمون من بغداد. فقد ذكر الناس أنّه أَمَّ المصلّين في يوم النحر، واختفى في اليوم الثاني، وما زال مختفياً حتّى الآن، أي بعد مضيّ ثلاث سنوات على هربه، بل أكثر.

وكان المأمون طوال تلك المدّة، لا يظهر لمغنّ في المدينة، إلّا نادراً وسرّاً، وكان المغنّي الشهير بُسخُنَّر، من هؤلاء المحظوظين النادرين. وكان المأمون يصرّح لمقرّبيه، أنّه لن يظهر للمغنّين إلا بعد أن يقبض على إبراهيم، وكان يحبّ الغناء، ويعرف أنّ المُلكَ بدون غناء كئيب، وبلا أُبَّهة، فكثّف البحث عنه في هذه السنة الثالثة لتخفيه، وأقسم أن يقبض عليه مهما كلّف الأمر.

لكنّ عُليَّة عمّة المأمون، أرادت أن تكسر جوّ الكآبة المخيّم على الخلافة، وأن تدفع المأمون إلى السرور والطرب، فدعت ابن أخيها إلى عندها، لحضور «مجلس غناء»، تقيمه له حتّى ينشرح صدره ويفرح قلبه، فامتنع المأمون محتجّاً بأنّ القلب في هذه الأيّام ليس للغناء، (لم يقل لها إنّه لن «يجلس للمغنّين»، طالما أنّه لم يقبض على أخيها، عمّه إبراهيم. وكانت هي تعرف ذلك)، لكنّها أصرّت عليه، وكتبت له رسالة تقول فيها:

«والغناء يرقّ الذهن، ويلينّ العريكة، ويبهج النفس ويسرّها، ويشجّع القلب، ويسخّي البخيل، وهو مع النبيذ يعاونان على الحزن الهادم للبدن، ويُحدثان له نشاطاً.

وفضل الغناء على المنطق (أي الكلام والنطق) كفضل المنطق على الخرس، والبُرْء على السَقَم.

وقد كانت الملوك تنام على الغناء، ليسري في عروقها السرور، وكانت ملوك الأعاجم لا تنام إلّا على غناءٍ مُطرِبٍ، أو سمر لذيذ.

والمرأة العربيّة لا تنوّم ولدها وهو يبكي، خوف أن يسري الهمّ في جسده، ويدبّ في عروقه، ولكنّها تنازعه وتضاحكه حتّى ينام وهو فرِح مسرور، فينمو جسده، ويصفو لونه ودمه، ويشفّ عقله، والطفل يرتاح إلى الغناء، ويستبدل ببكائه ضحكاً».

فأعجب المأمون برسالتها، وكان ذوّاقة للكلمة الذكيّة دائماً وللكلمة البليغة أيضاً (قال مرّةً: أخِّر الحرب ما استطعت، فإن لم تجد منها بدّاً فاجعلها في آخر النهار!)، فوافق على دعوتها شرطَ أن تكون حفلة متواضعة بدون الكثير من البذخ والعظمة.

وكان معبد بن رباح ممّن دعتهم عُليّة، ودعت كذلك أبو زكّار البغداديّ الأعمى مغنّي جعفر بن يحيى البرمكيّ (سبحان مغيّر الأحوال! قال أبو زكّار حين بلّغه رسول عُليّة الدعوة).

إسحق بن إبراهيم الموصليّ اعتذر عن عدم الحضور بحجّة المرض. ولم يستبعد أبو زكّار أن يكون تمارضه بإيعاز من الخليفة بالذات،

حتّى لا يكون للحفلة أيّ وقع.

لم يُصدّق معبد بن رباح أنّه مدعوّ عند عُليّة، بنت الخليفة، وأخت الخليفة، وعمّة الخليفة، وأن الخليفة بالذات سيكون حاضراً! كان خائفاً جداً. فكر في الهرب، لكن إلى أين.

وطار عقله عندما استدعته عُليّة، لتطارحه لحناً، حتّى يغنّيه في الحفلة. وكان هذا اللحن من تأليف إسحق بن إبراهيم الموصليّ بالذات! وكذلك الشعر أيضاً.

استدعت عُليّة معبد بن رباح، وأدخله خادمها وراء ستارة في غرفة مفروشة ومعدّة سلفاً للغناء، وفيها طاولة للطعام، وقال له: إجلس هنا وإيّاك أن تصدر حركة، اقطع نفسك! لكن استمع جيّداً واحفظ هذا اللحن الذي ستسمعه.

وكانت عُليّة أرسلت أحد خدّامها إلى إسحق بن إبراهيم الموصليّ ليأتي به، واحتجّت بأنّها تريد أن تُسمعه أغنيةً تدّعي جاريةٌ لها اشترتها منذ وقت قليل، أنّها أخذتها عن أبيه! وهي، أي عُليّة، تشكُّ في ذلك. ولما وصل أُدخل الغرفة المعدّة، وقُدِّم له الطعام، ثمّ قدّم له ماء ليغسل يديه، ثم مِسواك تَمَسْوَكَ به، ثم قُدِّم له الشراب الذي يفضّله (كان شرابه المفضّل يُقدّم له حتّى في دار الخليفة)، ثم دخل الخادم وقال له: مولاتي عُليّة تقول لك إنّها تعلم أنّك أعددت لحناً في شعر أنت ألّفتَه تقول فيه:

سَقياً لأرضٍ إذا ما نِمتُ نبَّهني
بعدَ الهدوءِ بها قرعُ النواقيسْ

وأنّك تريد أن تغنّيه بشخصك للخليفة، لذلك فهي تريد منك أن تسمعَها إيّاه الآن، حتّى تأخذه عنك وتحفظه، وتعطيك بالمقابل مبلغاً من المال (جائزة)، لا شكّ أنّك سوف ترضى عنه. وقال له الخادم أيضاً إنّ مولاتي عُليّة تقول، إنّك لستَ واثقاً من أنّ هذا اللحن سيعُجِب الخليفة، ولستَ واثقاً من أنّه سيُجيزك عليه (سيعطيك مالاً)، وإذا أجازك فلن يكون مبلغاً أكبر ممّا ستعطيك هي، لذلك اقبَلْ بما في يدك وما أنت متأكّد منه. فقبل العرض مرغماً، واندفع يُغنّي هذا الصوت، وعُليّة تسمعه من خلف ستارة وتردّده، حتى حفظته، ثمّ أمرت الخادم بإعطائه عشرين ألف درهم! (كان مدخول خيّاط الطبقات العليا ألف درهم في السنة على الأكثر!) ثمّ قالت له اسمعه منّي الآن: فغنّته غناء مدهشاً في جودته، وقالت له: ما رأيك! فأبدى إعجابه الشديد. ثمّ أمرته بأن يغنّيه بعد، فغنّاه وكرّره، ثم بعد ذلك غنّته هي وكان غناؤها تامّاً، فأجازته مرّة ثانية عشرين ألف درهم، وقالت له قبل أن تأمره بالانصراف: سأغنّي هذا اللحن للخليفة بعد أيّام وسأدّعيه لنفسي، ومن صنعتي وشعري، فَانسَ أنّه لك، وتأكّد أنني سأبعث أحداً ليقتلك إن أنت فضحت شيئاً ممّا جرى. هذا إذا نجوتَ من قصاص الخليفة إذا علم أنّك اجتمعت بعمّته!

كان معبد في حلم، كان في حلم خالص، إذ إنّه لم يعتَدْ على مثل هذه الحقيقة. ولو علم في تلك اللحظة أنّ إسحق بن إبراهيم كان آسفاً على الصوت رغم أنّه قبض هذا المبلغ، لما كان استوعب ما يسمع!

ثم أنهضته من حلمه عُليّة، حين توجّهت إليه بالكلام بعد خروج إسحق، وأمرته أن يردّده عليها حتّى تتأكّد من أنّه أخذه جيّداً

وحفظه، فردّده عليها حتّى اطمأنّ وقالت له انتبه: غداً في الحفلة سأقول للخليفة إنّ هذا من لحني، وإنّني علّمتُك إيّاه، ولا تخَف إذا سألك كيف وأين، فأنا أجيبه عنك. سأقطع لسانك إن قلتَ خلاف ذلك. ثم أعطَتْه ثلاثمائة درهم وصرفته.

خرج معبد بن رباح مضطرباً من عند عُليّة، بنت الخليفة وأخت الخليفة وعمّة الخليفة. خرج مخضوضاً، وخاف أن ينسى اللحن، فصار يردّده بصوت مسموع، وهو مسرِع إلى البيت حتّى ظنّ الناس أنّ به مسّاً من الجنون، ولمّا وصل إلى البيت أمضى وقته يردّده، ويشكر الله أنّه لم يعد مقيماً عند المرأة، تلك التي تشبه ذاكرتها الزمان، فلا يحدث شيء في الدنيا يدركه الحسّ أو العقل، إلّا ويصبح جزءًا منها! واحتار حتّى غفا وهو في حيرته، فجاءته هِرّتان هما ذاتهما اللتان جاءتاه مرّة من قبل، فردّد عليهما الصوت فأُعجبتا به إعجاباً شديداً لكنّهما قالتا له: إن غنّيتَه للخليفة قتلك! وصحا من غفوه مذعوراً وقال: ماذا يجري في الغفلة؟

وكانت أمّ شارية مضطربة مثله، بل أكثر، لأنّها كانت خائفة من إعلان اسمه للخليفة، قبل أن يعطي حكمه في المسائل المتعلّقة به.

وفي الحفلة الموعودة، بقي الخليفة من الجهة الأخرى للستارة، ولم يظهر للمغنّين، وكانت معه أخته، والخاصّة من خدمه. وكانت الجواري بالطبع وراء ستارتهنّ.

وكان معبد إلى جانب أبو زكّار مضطرباً، فباح له همساً باضطرابه وخوفه، وحاول أبو زكّار طمأنته، ولكن بأيّ سلطان؟

ثمّ أمر صاحبُ الستارة ابنَ جامع، (وهو المغنّي الشهير، الذي كان يحبّه إبراهيم بن المهديّ وكان يحارب به إبراهيم الموصليّ وابنه إسحق)، أن يغنّي الخليفة، ففعل، فلم يطرب الخليفة لغنائه. ثم أمر جماعة من المغنّين الحاضرين ففعلوا فلم يطرب الخليفة لغناء أحد منهم. ثمّ أمر معبد بن رباح بأن يغنّي، فكاد أن يغمى عليه، وحار فيما يغنّي، أيغني لحن عُليّة ولم يأمره أحد بذلك؟ أم يغنّي لحناً آخر لأحد ما أو له؟ لكنّ صاحب الستارة قطع عليه حيرته بعد ثوان، وأمره أن ينتظر، فانتظر وقلبه يضرب بقوّة، بحيث إنّ صديقه أبو زكّار الأعمى كان يسمع ضرباته، فهمس في أذنه: غَنِّ لمعبد! غَنِّ لابن سريج! غَنِّ لمن شئت! ثمّ قال له بل غنِّ للمجنون:
أُحبُّ من الأسماءِ ما شابَهَ اسمَها...

أو غنِّ له ما أخذتَ عنه عندما زرته في الصحراء، ولم يتسنَّ لك أن تغنّيه لأحد حتّى الآن.

ثم ساد الصمت، والمغنون ينتظرون صاحب الستارة أن ينقل إليهم رغبة الخليفة.

وكان الخليفة في تلك الأثناء يستمع إلى عمّته، التي كانت تخبره بأنّها صنعت لحناً في شعر لها، خصّيصاً له، وطرحته على المغني الشابّ معبد بن رباح، لتسمعه إيّاه بصوته، فقال لها: لا ليس الآن!

ثم قال صاحب الستارة بعد هذا الصمت الثقيل المقلِق: غنّ يا معبد! فتناول العود، وما أن بدأ يضرب عليه، حتّى أطلّ صاحب الستارة وقال: توقّف! فلا حاجة للخليفة فيك! فنفسُ مولاي الخليفة «لا تطيب لك بخير»، بعدما غنّيتَ المخلوع ما غنّيته!

لكنّ الخليفة لم يعاقب معبد. بل أمره بألّا يلتقي به في مكان. وجعل عقوبةَ ذنبه عدم استخدامه، أي عدم إحضاره للغناء في مجلسه. فكاد يُغمى على معبد، لأنّ عواقب هذا القصاص وخيمة، فمن يُعطي ويهب ويجيز كما يجيز الخليفة؟ وأيّ أمير أو شريف أو قائد أو ثريّ يستخدمه بعد الآن؟ فمن أين يجيئه الرزق إذن؟ لكنّه في الوقت نفسه اطمأنّ، لأنّ الأمور اتضحت وكان عقاب الخليفة له أقلّ من الموت.

ثم قال صاحب الستارة للمغنّي مسكين المدني بأن يغنّي الصوت الذي غنّاه ابن جامع ولم يُعجب الخليفة.

إن كنتَ تحسن هذا الصوت فغنِّهِ!

فاندفع مسكين وغنّاه، فوجم الجميع متعجّبين من جرأة هذا المغنّي، الذي لم يكن يوماً من الفئة الأولى من المغنّين، وقد قصّر في هذا الصوت ابن جامع بالذات.

ولمّا فرغ منه، سمع معبد بن رباح الخليفةَ المأمون يقول من خلف الستارة: أَعِدْهُ يا مسكين! فأعاده مسكين بقوّة ونشاط و«اجتماع قلب»، فأحسن فيه كلّ الإحسان. ثمّ غنّى صوتاً آخر:

شكونا إلى أحبابنا طولَ ليلنا
فقالوا لنا ما أقصرَ الليلَ عندنا

فقال المأمون: أحسنتَ يا مسكين! أعدْهُ! وأمرَ فرُفعت الستارة بين المغنّين وبينه، فكأنّ معبد ينظر إلى عين الشمس، فيحرق نورها عينيه. وسأل الخليفةُ مسكين مباشرةً: هل لهذا الصوت قصّةٌ يا

مسكين؟ قال مسكين، بعد أن قام وحيّا الخليفة، وأراد تقبيل الأرض بين رجليه، ومنعه الخدّام من الاقتراب منه، قال: نعم، إنّ لهذا الصوت قصّة!

ما هي؟ قال الخليفة.
فتردّد مسكين وتعثّر واحمرّ لونه، فقال الخليفة: نتكلّم يا مسكين.

قال مسكين: كنتُ عبداً خيّاطاً لسيّدٍ من آل الزبير، وكان لمولايَ عليّ ضريبة أدفعها له كلّ يوم وقيمتها درهمان، وإذا دفعتها له سمح لي بأن أفعل ما أريد، وكنت مولعاً بالغناء محبّاً له حبّاً يأخذ عليّ عقلي، وخطتُ يوماً قميصاً لبعض الأشراف، فدفع لي درهمين، وغدّاني عنده، وسقاني أقداحاً، وخرجت وأنا جذلان، «أجرّ الذيل» كما يقول الأخطل، وكأنّني فتى من قريش، فالتقيتُ بجارية حُميراء (بيضاء اللون) تحمل جرّةً على رأسها، وتسعى نحو بئر ماء، وتترنّم بصوت شجيّ جميل، ولحن مذهل، وتقول:

شكَوْنا إلى أحبابنا طولَ ليلنا
فقالوا لنا ما أقصرَ الليلَ عندنا
وذاك لأنّ النومَ يغشى عيونَهم
سراعاً وما يغشى لنا النومُ أعيُنا

فلم أفهم منه شيئاً لصعوبته، ذكّرني بأغاني معبد الصعبة، تلك المسمّاة «مُدُنُ معبد» و«حصونه»، لكنّني ذهلت، ورجوتها أن تعيده، فرفضتْ محتجّةً بأنّها مشغولة، فألححت عليها، فقالت لي، ألستَ عبداً مثلي، عليك ضريبة تؤدّيها إلى سيّدك كلّ يوم؟ اتركني إذن في شغلي، لأنّ سيّدي لا يرحمني إن تأخرت عن دفع

ضريبتي بلا سبب، أرسَلَني لأملأ له هذه الجرّة، لأنّه عطشان يريد أن يشرب. فما كان منّي إلّا أن أخرجتُ الدرهمين من جيبي، وأعطيتهما لها، وقلتُ لها: بلى سيّدي يفرض عليّ درهمين، فها هما. فأخذتهما منّي كالكارهة وقالت: أنت الآن تريد أن تأخذ منّي صوتاً سنربح به ألف ألف ألف دينار! (أرادت أن تقول ثلاثة آلاف دينار)، وأنزلت الجرّة عن رأسها، وأسندت مؤخّرتها إلى حافّة حائط، ورفعت إحدى رجليها ووضعتها على الأخرى، ووضعت الجرّة على ساقيها وراحت تغنّي، فركّزتُ بكلّ ما أملك من قوّة وطاقة على غنائها، حتّى دار لي الصوت وفهمتُه جيّداً، وحفظته كأنّه مكتوب في صدري، وانصرفتُ مسروراً أردّده، حتّى صار خفيفاً على لساني، أتصرّف به بسهولة كما أشاء. وعندما وصلتُ إلى سيّدي وكنتُ متأخّراً بادرني بالقول: هات ما عليك؟ فحاولتُ أن أخترع له حجّة، لكنّ شيئاً لم ينفع معه فقال لي: «يا ابن اللخناء!» (أي يا ابن القحبة والزانية)، أما قلت لك بأنّني لا أقبل لك عذراً، وبطحني، وضربني خمسين عصا غليظةً، بأقسى ما يمكن من الشدّة والغضب والغيظ، ثم بعد ذلك حلق لحيتي وشعر رأسي، فأصبحتُ أسوأ خلق الله، ونسيتُ الصوت!

ونسيتُ الصوتَ الذي دفعتُ من أجله درهمين وقصاصاً غليظاً.

وفي اليوم التالي نهضتُ كالمجنون، وذهبتُ إلى الموضع الذي التقيتها فيه، فلم أجدها، ولم أكن أعرف اسمها ولا اسم سيّدها ولا منزلها، ولا شيء عنها، فانتظرتُ حتّى حميت الشمسُ وإذ هي مقبلة، حُميراء من أصل فارسيّ أو روميّ، تحمل على كتفها جرّة كبيرة، تريد أن تملأها ماءً، فركضت نحوها حتّى بلغتها وقلت لها وأنا أكاد أبكي: أُنسِيتُ الصوت! قالت من أنساك إيّاه؟

وكيف؟ وهل يُنسى صوت كهذا لولا أنّك غير جدير به! فأخبرتها ما مرّ بي من الضرب، وحلق الرأس واللحية. فأقسمتْ أنها لا تردّده لي، إلّا إذا أعطيتها مرّة أخرى درهمين بل أكثر، فأخرجتُ من جرابي مقصّاً أستعمله لقصّ الثياب التي أخيطها، ورهنته لديها بدرهمين، وهو يساوي أكثر بمرّتين على الأقلّ، فقالت لي: كأنّي بك وقد أخذت مكان الأربعة دراهم أربعة آلاف دينار على الأقلّ من الخليفة.

قالت من الخليفة! كان عندها القدرة على التنبؤ بالغيب.

ثمّ أنزلت الجرّة، وأسندت مؤخرتها إلى حافّة حائط، ورفعت رجلاً ووضعتها على الأخرى، ووضعت الجرّة على ساقيها، واندفعت تغنّيه، وهي توقّعُ على الجرّة، ولم تزل تردّده حتّى رسخ في صدري.

ثم مضتْ، وذهبتُ إلى مولاي خائفاً، فقال هات ضريبتك، فصمَتُّ، ففهم الأمر فوراً وقال لي: ألم يكفِك ما فعلتَه بالأمس، واندفع نحوي ليضربني فقلت له اسمع! وأخبرته ما جرى معي وغنّيت له الأغنية، فوقف كالمأخوذ المذهول، وقال لي: معك هذا الصوت منذ يومين ولم تعلمني؟ أنت منذ الآن حرّ، وأمّا حلق الرأس واللحية فلا حيلة لي فيهما، وأمّا الضريبة فلن آخذ منك شيئاً حتّى ينبت شعر رأسك وتطول لحيتك.

فسُرّ المأمون كثيراً لهذه القصّة، وابتسم من كلّ قلبه، وقال: أعطوه أربعة آلاف دينار! فابتسم مسكين رغماً عنه ابتسامة ذات معنى، إذ تذكّر نبوءة الجارية الحُميراء، فقال له الخليفة لماذا تبّسمت؟ فلم

يستطع أن ينكر أنّه تبسّم، فاحمرّ مسكين، وتعثّر في الكلام، فقال له الخليفة تابع ولا تخفِ شيئاً عليّ، وإلّا قطعتُ لسانك!

قال مسكين: عندما وجدت نفسي بلا دراهم وبلا مقصّ أعمل به، احترتُ، فلم يعد لديّ ما أعطي سيّدي، ولم يعد في استطاعتي العمل وقد رهنت المقصّ. ثمّ تقدّم الوقت وأنا حائر لا أستطيع أن أقصّ قميصاً لأحد، فعدتُ إلى الموضع الذي التقيتُ فيه الجارية، وانتظرتُها هناك أن تمرّ، وإذ بها تظهر عليّ، وهي تحمل ظرفين من السمن، كلّ ظرف تشدّه إليها بيدٍ وتسنده إلى وركها، فاقتربتُ منها فقالت لي حين رأتني أقترب: أُنسِيتَ الصوتَ أيضاً؟ قلت لا! بل أريد أن تُعيدي لي المقصّ، وأقسم لك بأنّني سأفيكِ ثلاثة دراهم بدل الإثنين، لأنني بدونه أنا كالمشلول، لا أستطيع العمل، ولا أستطيع العودة مرّةً أخرى إلى سيّدي وليس معي ضريبتي، فرفضتْ مكرّرةً عليّ أنّ الخليفة سيعطيني أربعة آلاف دينار عندما أغنّيه هذا اللحن. فاغتظتُ إلى أقصى درجة، وتطلعتُ عند ذاك حولي، فرأيت المكان خالياً من كلّ إنس وجنّ، فاقتربتُ منها، ورفعتُ من ثيابها ما يُرفع، وأنزلت منها ما يُنزَل، وولجتُ فيها وهي حائرة لا تجرؤ على أي مبادرة، خوفاً من أن يسيل السمن من الظرفين، ولا تستطيع شيئاً إلّا أن تشتمني. ولمّا قضيتُ حاجتي منها، تركتها وانصرفتُ، لكنْ بعد أن قلتُ لها: ما أبقيتُه فيكِ خذيه مجّاناً!

قال الخليفة: وأقيموا عليه حدّ الزنا، ويعطيها نصف جائزته! وتحرّوا إن حبلت منه وأخبروني!

فتعجّب الحاضرون من عدل الخليفة وعلمه، وكاد معبد بن رباح

أن يبكي، وأحسّ بوحشة رهيبة، وحشةِ من غضبَ عليه الحقّ! فأصابته كآبة نادرة. وأحسّ بذنب لم يقترفه، كان من الممكن أن يتفاداه. كيف؟

وتألّم.
آهٍ ـ دفء الطاعة ووحشة المعصية!

أليس استحسانُ الخليفة لغناء مسكين المدنيّ، وطربه له، درساً عليه أن يفكر فيه جيّداً، وأن يتعظ به؟

لقد أدّى مسكين لا شكّ هذين الصوتين بشكل جيّد، يقرب من أداء المغنّين من الدرجة الأولى، لكنّه ليس أداء درجة أولى. غير أن الخليفة أبدى إعجاباً زائداً به، وأعطاه الوقت كلّ الوقت ليغني، وليتمادى في قصّته عن الصوت الذي أخذه عن الجارية الحُمَيراء.

وحده أبو زكّار الأعمى توجّه إلى معبد بالكلام، وهم منصرفون من عند عُليّة. ناداه باسمه دون أن يُخفض صوته، وطلب منه أنْ يقترب. قال له لا تيأس! لم تقترف ذنباً لتندم عليه. الحياة كالبهيمة يا معبد، لا تعرف كيف تَخْبُط. وأراد أبو زكّار أن يُسمع الآخرين لكن دون افتعال، فتكلّم بصوت عاديّ وكأنّ شيئاً لم يكن. أمّا الآخرون فتحاشوه، كأنّه مصاب بالطاعون، أو بالكلَب، أو بالجرَب، بل أكثر من ذلك، كأنّه مصاب برِجس مُعْدٍ.

وكان المأمون في تلك الفترة يثبّت حكمَه، ويلاحق مناصري أخيه الأمين، ويتعرّف على خارطة الخلافة الواسعة، من كل النواحي

الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والفنيّة، وبشكل خاص خارطة بغداد.

وفي هذا السياق، أمر يوماً بأن توضع له لائحة بأسماء جميع أهل الأدب الجديرين بمجالسته ومسامرته، وأمر بأن تدعى الفئة الأولى منهم إلى مجلسه يوماً، ما عدا حسين بن الضحّاك. فعندما قرأ أسماءهم وبلغ إلى اسم حسين قال: أليس هو الذي يقول في محمّد (أخيه):

هلاّ بقيتَ لسدّ فاقتِنا
أبَداً، وكان لغيرك التّلَفُ

فلا حاجة لي فيه إذن، والله لا يراني أبداً إلّا في الطريق.
ولمّا بلغه أنّه مدحه بقوله:

رأى اللهُ عبدَ الله خيرَ عباده
فملّكه، والله أعلمُ بالعبدِ

فكّر طويلاً ثمّ قال: ما تطيبُ نفسي له بخير بعدما قال في أخي ما قال. فكيف أثق به وقد ذهب عقله عندما علم أنّ محمّد قُتل، فأنكر ذلك وصار يقول لا لم يُقتل، بل اختفى قصداً حتّى يستجمع قواه من جديد ويعود فاتحاً إلى بغداد! وكيف أثق به وكان الأمين يختاره ليركبه، حين كان يلاعب مجالسيه. كان ينادي: من منكم حماري؟ كان كلّ واحد منهم يقول: أنا! أنا! لأنّه كان يركب الواحد منهم عبَثاً ثمّ يعطيه. لكنّه كان يفضّل ركوب حسين بن الضحّاك في غالب الأوقات.

وانحدر حسين إلى البصرة، فأقام فيها طوالَ أيّام المأمون. فهل على

معبد أن يفعل الشيء نفسه؟ أي أن ينفي نفسه إلى مكان ما، وألّا يعود للظهور في أيّ مكان منظور؟

وقد اشتدّت ملاحقة المأمون لبقايا النظام السابق، من رموز وأنصار، وبثّ عيونَه في طلبهم، وكثّف البحث عن عمّه إبراهيم بشكل خاصّ، فالخلافة ما زالت بدون مجلس غناء حتّى الآن. ثمّ، وهذا هو الأهمّ، أراد أن يفتح ملفّات قوّاده، وأوّلها ملف طاهر بن الحسين، الذي كان قائد الجيش الذي أرسله إلى بغداد، لحصارها وإسقاط أخيه، وقد أسقط أخاه، وقطع رأسه.

لماذا قطع رأسه؟
وكان هرثمة عاهده على إحسان معاملته، وعلى أخذه إلى أخيه المأمون في خراسان، ليتخذ قراراً في أمره بنفسه. لكنّ طاهرْ أفشل خطّته، وقبض على محمد الأمين، وقطع رأسه، وعلّقه على عود في باب الحديد في بغداد، وذلك بدون أن يستشيره! فكيف يجرؤ على ذلك؟

لا يطمئنّ المَلِك لمن قتل ملكاً، حتّى ولو كان الملك القتيل عدوّاً.

وكانت تدمع عينا المأمون كلّما رأى طاهر بن الحسين. كان يتذكّر أخاه محمّد.

واستتر معبد بن رباح، ولم يعد يخرج من بيته إلّا نادراً، وكان يقصد حانة الشطّ أحياناً، حيث كان يلتقي أبو زكّار الأعمى.

ولم يعد يزور أبو زكّار في بيته حتّى لا يحرجه. فالأيّام كانت أيّام

حذر، لأنّها أيّام انتقال السلطة.

وجاءته في الحلم ذات يوم شجرة وقالت له: أنا شجرة! أنا لستُ هرّة! فاصنع لحناً في أبيات إسماعيل بن يسار:

حتّى إذا الصبح بدا ضوؤه
وغارت الجوزاءُ والمرزمُ
أقبلتْ والوطءُ خفيٌّ كما
ينسابُ من مكمنه الأرقمُ

(الجوزاء: مجموعة كواكب. المرزم: نجم بعينه. الأرقم: الأفعى.)

قال كيف أصنع لحناً وقد نشفت قريحتي وهجرني شيطاني؟
قالت: بلى تستطيع!

وفي اليوم التالي التقى أبو زكّار في الحانة وأخبره ما رأى في الحلم وهو نائم، وتمتم له اللحن الذي سمعه بعد انصراف الشجرة وانقضاء الحلم، فذهل أبو زكّار بهذا اللحن وقال له: إنْ سمعك صاحبك خزيمة بن خازم تغنّي هذا الصوت فسيجنّ من الطرب. قال معبد ولكنّه قال لي ألاّ أتردّد عليه، إلّا بعد أن يسمح لي بذلك. فقال أبو زكّار: سأبلّغه بنفسي أنّك صنعت لحناً، لو صُنع أيّام الرشيد، لاختاره المغنّون بلا شكّ، أوّلَ الثلاثة التي اختيرت على أنّها أجمل الغناء.

يا ريتْ! قال معبد.
قال أبو زكّار: سأزوره قريباً لأنّه أرسل يطلبني لأغنّي بمناسبة انتهائه من إعادة إعمار بيته، الذي دمّره أنصار الأمين.

كأنّ شيئاً قبض على عُنُق معبد بن رباح، وكاد أن يخنقه، حين سمع من أبو زكّار هذا الكلام.

وأراد أن يسأله إن كان أرسل في طلب أحد من المغنّين غيره، لكنّه عجز عن الكلام. وقال في نفسه، لا شكّ أنه دعا أشهر المغنّين في بغداد. وعند ذاك فكّر في كلّ شيء، وفي كلّ الاحتمالات، ما عدا العودة إلى أهله في الحجاز ليختفي هناك مكسوراً ومغلوباً على أمره.

وانتظر معبد بفارغ الصبر أن تتمّ الحفلة، وأن يلتقي أبو زكّار في حانة الشطّ في اليوم التالي، ليسأله عن كلّ شيء، وبخاصة عن ردّ فعل خُزيمة بن خازم على خبر الحلم والشجرة واللحن. قال أبو زكّار: لم يصدّق! أدخلني غرفةً وقال لي غنّني إيّاه، فقلت له: لا أستطيع، فهو كمدن معبد، إنّه حصن لا يمكن أخذه. قال: لا أستطيع أن أدعوه إلى بيتي، قُلْ له أن يوافيني إلى دجلة الأسبوع القادم، وأن يركب في السفينة التي اسمها عائمة.

ولكنّ معبد شغل باله صاحبُ هذه الأبيات، إسماعيلُ بن يسار، لأنه معروف بشعوبيّته، وبتعصّبه الشديد للأعاجم ضدّ العرب، وهو الذي يقول في قصيدة يفخر فيها على العرب بالعجم:

إذ نربّي بناتنا وتَدُسُّو
نَ سَفاهاً بناتكم في الترابِ

إشارة إلى أنّ العرب قبل الإسلام كانوا يئدون بناتهم. وقد ردّ عليه أحد العرب بالقول: إنّ حاجتنا إلى بناتنا غير حاجتكم إلى بناتكم! وأراد بذلك أنّ العجم يربّون بناتهم ليُنكِحوهنّ، (أي ليتمتّع بهنّ

الآخرون) أمّا العرب فلا يفعلون ذلك.

وكان البعض يقول إنّ المعركة بين الأمين وأخيه المأمون كانت، بمعنى من المعاني، معركة بين العصبيّة العربيّة والعصبيّة الأعجميّة الفارسيّة، ومعبد، وقد كوَتْه الأيّام، لا يريد أن يزجّ نفسَه في ذلك، بل يريد النجاة برأسه في هذا البحر الهائج من العواطف والمصالح.

لكنّ أبو زكّار قال له وبشكل حاسم: غنِّها! يعني الأبيات. ثمّ ذكّره بأن الشجرة هي التي قالت له بأن يغنّي هذه الأبيات، وأنّ الشجرة قالت له: أنا شجرة! أنا لستُ هرّة! ثم قال له: قُل لمن يعترض عليك ما قاله الأخطل لرجل من بني شيبان: إنّ العالِمَ بالشعر، لا يُبالي إذا مرّ به البيتُ السائرُ الجيّدُ، أمسلمٌ قاله أم نَصْرَانِيّ!».

وهكذا لم تعد تمضي الأيّام على معبد بن رباح، لشدّة ما كان الانتظار ثقيلاً، وكان هذا باب نجاته الوحيد.

وقصد السفينة «عائمة» في اليوم والوقت المحدّد، فاعترضه الملاّح، فتدخّل خُزيَمة بن خازم، وسمح له بدخولها، وقال له: تَدَخّلْ حين تخطئ إحدى جواريّ، واعترِضْ عليها، وقل لها كيف يكون الصحيح! وهكذا كان، حتّى دعوه وأطعموه، ثمّ قدّموا له الشراب، وطلبوا منه أن يغنّي، فدَوزَنَ عوده، وتمهّل، وتنفّس نفَساً عميقاً قبل أن يندفع ويغنّي لحنه الجديد، في شعر إسماعيل بن يسار:

حتّى إذا الصبح بدا ضوؤه
وغارت الجوزاءُ والمرزمُ

فكأنّ مياه دجلة ماجت بالسفينة، وتابع:
أقبلتْ والوطْءُ خفيٌّ كما
ينسابُ من مَكْمَنِهِ الأَرْقَمُ

وكان مع خزيمة بن خازم في السفينة بعض من أصحابه، فقام أحدهم، وكان يبدو عليه أنّه شيخ رصين، وألقى بنفسه من السفينة وراح يخبط بيديه وهو يقول: أنا الأرقمُ! أنا الأرقم! فأسرع إليه الملاّحون، وأدركوه قبل أن يغرق، فقال لهم: لن أعود إلى هذه الدنيا بعدما ذُقتُ طعمَ الجنّة! لا تعيدوني! لا تعيدوني! إنّي واللهِ أَعلمُ من معاني الشعر والغناء ما لا تعلمون! ثم أفلت من أيديهم، وغاص في الماء من جديد، وهو يصرخ: غنّوا! أنا الأرقم! أنا الأرقم!

أمّا خزيمة بن خازم فكاد أن يشق ثيابه طرباً، وقام وقبّل معبد بن رباح بين عينيه وقال له: لا تَيأَسْ! إنّ الفرج قريب، ستقبض شرطة الخليفة على إبراهيم بن المهديّ قريباً، لأنّ الخليفة كثّف البحث عنه، وزرع مخبريه في كلّ مكان، وهو لا يريد إطلاق الغناء في القصر قبل أن يمثل بين يديه. ولا تنسَ أنّ إبراهيم عمّه، وقد أعلن نفسه خليفة، ولا يمكن أن يطمئنّ قلبه قبل أن يؤتى به إليه ذليلاً مكبّلاً. عندذاك سيظهر الخليفة للمغنّين وسيفتح لهم كنوزه، فالمأمون يعرف أن الغناء أُبَّهَةُ المُلك وجلاله، وهو يعرف أنّ المُلك لا يكتمل بدون غناء.

وأراد معبد إخباره بأنّ قضيّته الكبرى ليست غناءه للأمين وإعجاب الأمين به، على أهميّة هذه القضيّة وخطورتها، بل القضيّة الكبرى هي مواقعته غلام الأمين، وحَبَلُ «الغلام» منه ووضعه صبيّاً! لكنه

عدل عن ذلك، خوفاً من أن يرى خُزيمة فيه كثيراً من المشاكل، فييأس منه ويصرف النظر نهائيّاً عن مساعدته.

ومضت الأيّام، وجاء الخبر بأنّ شرطة المأمون قبضت على إبراهيم ابن المهديّ، «ابن شَكْلَة» كما صار الناس في بغداد يسمّونه الآن. وشَكْلَة هذه أمُّه كانت بنت شاه أفرند، وهو أحد المقرّبين إلى المازيار، وقد قُتل مع المازيار في إحدى المعارك، وسُبِيتْ بنته شكلة، فحُملت إلى الخليفة المنصور الذي وهبها إلى زوجته أمّ أولاده، فربّتها حتى كبرت قليلاً، ثمّ أرسلتها إلى الطائف فنشأت هناك حتّى تفصّحت، (أي أتقنت الفصحى)، ولمّا كبرت استردّتها إليها، فرآها المهديّ يوماً عندها فأعجبته، فأعطته إيّاها، فنكحها فولدت منه إبراهيم، ونشأ إبراهيم محبّاً للغناء، كأخته عُليّة، وكان الناس يقولون عنهما: لم يُرَ في جاهليّة ولا إسلام، أخٌ وأختٌ أحسنُ غناء من إبراهيم بن المهديّ وأخته عُليّة.

ولمّا ظفر المأمون بعمّه إبراهيم بن المهديّ كان في ثياب امرأة، وكانت ترافقه امرأتان، وقد قبض عليه شرطيّ اسمه حارس بن أسود، في الدرب المعروف بالطويل في بغداد. وكان يتنقّل من موضع إلى موضع لا يثبت في مكان، وقد أختفتْ آثاره عندما اختفى في سُوَيقةِ بغداد.

وأحبّ المأمون أن يذلّ إبراهيم أمام الناس جميعاً، فجيء به ذليلاً بالقيود، «يَحجِل» فيها ويلبس لباس النساء، فأمر برفع المنديل الذي كان يحجب كلّ وجهه، وبوضعه على صدره، ولمّا بان وجهه قال له:

أيش يا إبراهيم؟

لم يخاطبه بكنيته، بل خاطبه باسمه إمعاناً في إذلاله.
قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين!

قال: لا سلّم الله عليك ولا حفظك ولا رعاك ولا كلأك يا إبراهيم!

قال إبراهيم: كما تريد يا أمير المؤمنين، وأنت وليّ الثأر (أي المكلّف به) وأنت الذي بيدك القصاص، والعفو أقرب للتقوى، وقد أصبح ذنبي فوق كلّ ذنب، كما أنّ عفوك فوق كلّ عفو، فإن تُعاقِب فبحقّك، وإن تعف فبفضلك. ففكّر الخليفة مليّاً ثم قال: إنّ هذين أشارا عليّ بقتلك، فرفع إبراهيم رأسه فوقع نظره على المعتصم أخي المأمون والعبّاس ابنه، فقال: ما أشارا عليك إلّا بما يُشار على مثلك، ولكنّ الله عوّدك على العفو، عادةً جريتَ عليها، دافعاً ما تخاف بما ترجو! فتبسّم المأمون وقال: إن من الكلام ما يفوق الدُّرَّ ويغلبُ السحر، وإنّ كلام عمّي من هذا الكلام. وعفا عنه، لكنه أمر بأن يؤخذ إلى مبنى الحرس المركزي، وأن يُعرَض هناك للناس عدّة أيّام. ثم أمر بأن يعود إلى بيته، مكرّماً في الثياب المناسِبة لنَسَبِه، وشرف أصله. وأمر قائد الشرطة بأن يحدّد له الأماكن التي يمكنه أن يرتادها، والأماكن التي لا يحقّ له ارتيادها. ثمّ وَكَّلَ به رجلاً من خاصّته، يثق به أشدّ الوثوق، ليراقبه سرّاً، ولينقل إليه أخباره وما يفعل وما يقول ساعة بساعة.

وقد كتب الموكَّل به إلى الخليفة يوماً، أنّ إبراهيم تمثّل مرّة بهذا البيت:

وعفوتَ عمّن لم يكن عن مثله
عفوٌ، ولم يشفع إليك بشافع

فبكى المأمون وأمر بإحضاره وقال له: يا عمّ! صِرْ إلى المنادمة وارجعْ للغناء! فلن ترى منّي إلّا ما تحبّ.
وقد سُمع المأمون لمّا عفا عن عمّه يتمثّل بهذين البيتين.

فلئن عفوتُ لأعفوَنّ جلَلاً
ولئن سطوتُ لأوهِنَنْ عظْمي
قَومي همُ قتلوا أُمَيْمَ أخي
فإذا رميْتُ أصابني سهمي

وكان إبراهيم أشدّ خلق الله إعظاماً للغناء، وكان فنّاناً موهوباً، لكنّ شرف نسبه كان يمنعه من الغناء صراحة للناس بدون عازل أو حاجب، وكان إذا صنع لحناً، نسبه إلى جاريتين له كان يفضّلهما، وكان يبلغ الناس من أغانيه الكثير، بدون أن يُعرَف أنّه له.

وكان إبراهيم بن المهديّ، قبل مقتل الأمين وخلافة المأمون، يقول لمن طعن عليه كونه يغني: إنما أصنع (أُلَحِّن) تطرّباً لا تكسّباً، وأغنّي لنفسي لا للناس. وكان يقول أيضاً: لولا أنّي أرفع نفسي عن هذه الصناعة (أي عن هذا الفنّ) لأظهرتُ فيها ما يعلم الناس معه أنهم لم يَرَوا قبلي مثلي!

وكان ابن المهديّ، رغم مستواه الراقي في الغناء تلحيناً وأداء، يقصّر في أداء الغناء القديم، ويعجز عن تلحين أغان من ذلك النوع، فكان لذلك يحذف «نَغَم الأغاني الكثيرة العمَل»، التي تتطلّب جهداً فائقاً، وكان يخفف منها كثيراً، حتّى تصلح لصوته وقدرته على الأداء، وكان إذا عاب أحد عليه ذلك قال: أنا ملك وابن ملك، أغنّي ما أشتهي وعلى ما ألتذّ!

وبعد أن عفا عنه المأمون وقال له: «اجلس يا عمّ مطمئنّاً، فلن ترى أبداً منّي ما تكره، إلّا أن تُحدِث حدثاً، أو تتغيّر عن طاعة، وأرجو ألاّ يكون منك ذلك»، دعا إلى دارته كلّ مطرب مجيد مقيم في بغداد، فأزال كلّ ستارة بينه وبينهم، وغنّى! وكان لا يظهر لأحد وهو يغنّي، قبل خلافة المأمون، إلّا لأخيه الرشيد وأخته عُليّة.

لم يدعُ معبد بن رباح!

ثم صار يتهتّك بالغناء وشُرب النبيذ بحضرة المأمون، وكان يخرج من عنده ثملاً مع المغنّين الآخرين، بعد أن كان يخرج من قصر الخليفة وحده كابن خليفة، وذلك حتّى يُظهر للمأمون أنّه تخلّى نهائيّاً عن فكرة الخلافة، وأنّه لم يعد صالحاً لها على الإطلاق.

ومرّة بلغ المأمون أنّ إبراهيم قال عنه، إنه لم يعف عنه إلّا لأنّ الصوت الذي يخرج من حنجرته، لا يشبهه صوت يخرج من حنجرة إنسان، فغضب عليه وأرسل في طلبه، فاعتذر منه إبراهيم، فقال له المأمون:
لن نُكَدِّرَ عَفْوَنَا عنك!
وأمره بالانصراف.

فعاد إلى بيته ونام نادماً مشغول البال، فجاءه في المنام إبليس، في صورة شيخ أبيض اللحية، يتّكئ على عصا، وعلّمه لحناً غنّاه فيما بعد، في حفلة غناء دعا إليها جميع المغنينّ، ما عدا معبد بن رباح، فزلزل عليهم الأرض، وارتجت حيطان القاعة.

آه يا معبد بن رباح متى ستنتهي درب عذابك؟

وأُخبر المأمون يوماً، أنّ عمّه قد تبذّل كثيراً، وهو جالس يغني بلا حجاب يحجبه عن الناس، فقال: حتّى لا نُكَدِّر عفونا عنه!

تمنّى معبد بن رباح لو أنّ إبراهيم بن المهديّ قُتِلَ أثناء حرب بغداد، لأنّ علاقته السابقة به تشكّل عبئاً عليه، وهو الذي أخبر الأمين عنه وعرّفه إليه. وكان يشعر بأنّ إمعان الخليفة في إذلاله وهو عمّه، يشكّل ولا ريب نوعاً من رسالة موجّهة إليه بالذات، وإلى كلّ مغنّ أو شاعر أو أديب كان مقرّباً من أخيه.

أمّا الخبر الذي حلّ عليه حلولَ الكارثة، فهو خبر «وفاة» عُليّة!

عُلَيّة بنت المهديّ من جاريته مكنونة، التي اشتراها من تاجر القيان الشهير يحيى بن نفيس. اشتراها بسبعة عشر ألف دينار، أي بثروة لا تأتي عليها النيران، وغلبت عليه (أي أحبّها كثيراً)، وقد ستر أمرها عن والده المنصور حتّى مات، وولدت له عُلَيَّة.

وقد أُغرمت عُليّة بخادمها طَلّْ، وقالت فيه شعراً، وقد انزعج من ذلك أخوها هارون الرشيد. وأحبّت خادمها رَشَأْ أيضاً وقالت فيه شعراً. لكنها كانت غالباً ما تكني عنهما فلا تذكر اسمهما صراحة، بل تستعمل أسماء أخرى تشير إليهما.

وكان سبب موتها أنّ الخليفة المأمون، ضمّها إليه مرّة في مجلس دعته إليه، وغنّت له من لحنها، فطرِب، وقام إليها وضمّها إليه طويلاً، وراح يقبّل رأسها لا يتوقّف، فشرقت مما شمّته من قميصه الذي غطّى وجهها، وراحت تسعل لا يزول عنها السعال، وارتفعت حرارتها وماتت بعد أيّام قليلة!

فمَنْ معبد بن رباح هذا إذن ليعفو عنه الخليفة، وقد قام بهذا الفعل الشنيع واعتدى على جارية الخليفة؟

كانت عُليّة، بنتَ المهديّ، وأختَ هارون الرشيد، وعمّةَ الخليفة المأمون بالذات.

وكانت إذا غنّت هَمَّ سامعها أن ينطح برأسه الحائط طرباً. وغنّت لهم جميعاً، غنّت لأخوتها وبينهم الرشيد، الذي رقص مرّة طرباً لغنائها، وغنّت لإبراهيم أخيها وغنّى لها، وطارحته وطارحها وكان أقرب أخوتها إليها، وكانت قربه عندما أعلن نفسه خليفة.

وغنّت للمأمون ابنِ أخيها.

يبدو أنّ عُليّة كانت تُسعد أخاها الرشيد وتُشقيه، لكنها كانت تسعده أكثر مما تشقيه، وكانت تسعد ابن أخيها وتشقيه لكنها كانت تُشقيه أكثر ممّا تسعده، فضمّها إليه وشدّها، حتّى امتلأت رئتاها مما كان في قميصه الذي غطّى رأسها به.

ليس غير خزيمة بن خازم يا معبد بن رباح، إنّه الأمل المتبقّي الوحيد.

وكان معبد الذي يجابه مسألة غضب الخليفة عليه، وعدم استخدامه له لعلاقته بمحمّد الأمين، تقض مضجعه المسألة الكبرى، تلك التي تعمل على حلّها أمّ شارية بلا تعب ولا مَلَل. لكنّ هذه المسألة أيضاً لن تحلّ إلّا بقرار من الخليفة بالعفو أو بالعقاب. وإذا كان يأمل في حلّ المسألة الأولى بشكل من الأشكال، فإنّه لا يرى

كيف ستحلّ المسألة الثانية بدون قصاص ألهم.

وكانت أمّ شارية وسّطت شريفاً من أشراف بني هاشم وهو عبد الوهاب بن علي، الذي نقل الأمر إلى الخليفة، فتلاشى بذلك أملُ معبد بخزيمة بن خازم الذي رجاه، بعد أن علم بالأمر، ألّا يزوره وألّا يذكر اسمه، حتى يصدر حكم الخليفة فيه.

قال عبد الوهاب للخليفة: إنّ امرأة رفعت إليّ قصّةً (ورقة كتبت عليها قضيّتها)، ذكرت فيها أنّها قرشيّة من بني زُهرة صَليبة (أي خالصة النسب ،وعريقة وكريمة) وأنّها أمّ شارية التي اشترتها زبيدة والدة محمّد المخلوع، وألبستها لباس الغلمان وربّتها كتربيتهم، على عادتها لصرف ابنها محمد المخلوع عن إتيان الغلمان. وقالت هذه المرأة إنّ ابنتها سُرقت بعد وفاة زوجها، عندما كانت مشغولة بالحزن عليه، واحتجّت بأنّه لا يمكن أن تكون بنتُ امرأة عربيّة من قريش جاريةً يحلّ فرجها بالبيع والشراء، ويُسرّى بها، وتُنكحُ كالسبيّة.

فإذا كانت هذه المرأة صادقة في ادّعائها أنّها من بني زُهرة، وأنّ شارية ابنتُها، فمن المحال أن تكون شارية «أَمَةً» (جارية وعبدة).
وهل حققتم في المسألة؟ قال الخليفة.

نعم! أجاب عبد الوهاب، واكتشفنا أنّ الأمور أكثر تعقيداً. أرسلنا إلى الحجاز أحداً يُحقّق في ادعائها في ما يتعلّق بنسبها، وهذا أمر سهل سنعرفه بعد قليل، وإحساسي الشخصيّ أنها محقّة في ادّعائها، ولكنّ الأمر الأهمّ هو أنّ هذه الفتاة حبلت وولدت صبيّاً! ممّن؟

من مغنّ شاب قدم من الحجاز، وأحبّه المخلوع وقرّبه منه.
وخانه واعتدى على جواريه؟ قال الخليفة. ثمّ سأل: ما اسمه؟
معبد بن رباح.

هذا هو الذي طارحته عمّتي عُليّة لحناً، وطلبت منّي سماعه بصوته. ودمعت عيناه عندما تذكّر عمّته عُليّة، واستغفر الله.

وأمر الخليفة بجلب معبد بن رباح، وعيّن له موعداً، وأمر بإحضار ما أمكن من المغنّين وجميع أنواع المبدعين، حتّى يكونوا شهوداً على عدوان واحد منهم، وعلى القصاص الذي سينزله به.

وجيء بمعبد بن رباح في اليوم المحدّد، مكبّلاً «يَحجِلُ في الأصفاد» (الحَجْلُ هو مَشْيُ المُقَيَّد، والصَفْدُ هو القَيد)، فسأله الحاجب صاحب الستارة أن يختصر قضيّته، فقال إنّه كان يجهل جهلاً مطلقاً أن يكون هذا الغلام مُلكاً للخليفة. قال ذلك وهو ينظر إلى الأرض، رغم أنّ الخليفة لم يظهر عليه، بل كان أمرَ بإقامة الستارة بينه وبين الحاضرين جميعاً، وكان صاحبُ الستارة، المكلّفُ بها، ينقل أسئلة الخليفة ورغباته إلى عبد الوهاب بن عليّ، وسيط أمّ شارية، ومعبد بن رباح صاحب الفعل الشنيع.

وكان عَرْضُ معبد لقضيّته مقنعاً إلى حد بعيد، لكنّه انتبه وهو يلفظ كلمة «خليفة» (عندما قال «كنت أجهل أنها ملك الخليفة») أنّه يخطئ، ولكنّها الكلمة المناسبة، فهل يمكن لواحد مثله، مولى ابن عبد مُعْتَق، أن يقول محمّد أو الأمين بدل الخليفة؟ وهل هو من وزن أن يسمح لنفسه بأن يقول المخلوع؟

قال: كنت أجهل أن الغلام ملك الخليفة. ولم يَرِدْ على بالي لحظةً، أنّه ليس ملك سيّده، الذي تعرّفتُ إليه في الحمّام. ولمّا أردتُ وُلُوجَه قادني هو بنفسه إلى الأمام، ففوجئتُ، ولكنّ الذي جرى جرى بسرعة خاطفة، وفي خلال ثوان لا أكثر. وأنا مستعدّ إن سمح لي مولاي وسيّدي أن أنسب الصبيّ إليّ، وأراد أن يتابع ويقول: أنا مستعد أن أخطب هذه الفتاة من أهلها، لكنّه انتبه أنّها ملك للخليفة الآن، وأنّ كلّ ما كان للأمين بات ملكاً للمأمون، فقال بدل ذلك: وأنا مستعدّ أن أعمل بمشيئة مولاي وسيّدي ونور عينيّ.

معبد بن رباح يغنّي ولا يقول الشعر. ومعبد بن رباح ليس بناثر ولا بكاتب. لذلك أحسّ بأهمية الكلام البليغ، هنا في هذا الموقف. ليت يجيئه كلام ببلاغة الكلام الذي قاله إبراهيم بن المهديّ للمأمون، عندما ظنّ المأمون أنّ إبراهيم يعرِّض بوزيره، الحسن بن سهل، وهو يغنّي، قال إبراهيم: «يا أمير المؤمنين، لم أذهب حيث ظننتَ، ولستُ بعائد!» فخلّى سبيله الخليفة.

لكن من أين لمعبد بن رباح هذه البلاغة المحرِّرة المنقِذة؟ وتذكّر نصيحةَ أبيه ومحاولاته لردّه عن الغناء، وتذكّر أنّ أباه قد كُرّم بشعره، وأَعتَقَ نفسه بشعره، وأعتق العائلة كلّها.

ليت ما قاله إبراهيم الموصليّ في إبراهيم بن المهديّ صحيحاً، قال: إن إبراهيم بن المهديّ هو من أفضل من ولدَ العبّاس بن عبد المطّلب (يعني أنّه أفضل من كل الخلفاء العبّاسيين!)، فقيل له: ولكنّه يغنّي وهو ابن خليفة، فقد حطّ من قيمته الغناء وأذلّه! قال: وهل تمّ فضلُه إلّا بذاك!

ليت ذاك كان صحيحاً! قال معبد! ليت أنّ الغناء يجعل من صاحبه ذا قيمة وشأن!

وأحسّ بعجزه عن أن يستعين بسحر البيان، فانكبّ على الأرض ليقبّلها، رامزاً بذلك إلى أنه يقبّل الأرض بين رِجْلَي الخليفة، لكنّه كان مثقلاً بالأصفاد فوقع على وجهه ولم يعد يستطيع الوقوف، فاقترب منه الحرّاس ورفعوه عن الأرض، وكان الخليفة في ذلك الوقت قد انصرف بعد أن أمر بتعذيبه ومصادرة ما يملك.

هذا قصاص من يُنكر الجميل.

فلم يشعرْ معبد إلّا أن صاح: خطيئتي لا تستدعي أن يُحلّ دمي! صاح صياحاً ليسمعه القاصي والداني! وهو لم يُرد ذلك ولكنّ شيئاً أقوى منه حمله على الصياح. وما إن أنهى عبارته حتّى خرج الخليفة من خلف الستارة، وانقضّ عليه كنار الصاعقة، وضربه بالسيف وهو في جفنه، فوقع على الأرض مغشيّاً عليه، ثمّ فتح عينيه لحظةً فوقعتا على عيني المأمون، فرآهما عيني نادم! فاطمأن وهو يغرق من جديد في إغشاءته.

وأمر المأمونُ به سلاّم الأبرش، الذي ولاّه عذاب الناس (التعذيب) منذ دخوله بغداد. وكان سلاّم مغرماً بالنساء والبناء. كان مزواجاً مطلاقاً، تزوّج شرعاً عشرات النساء، ما عدا الجواري، ولم يُبقِ إلّا على امرأته الأولى لشرف نسبها، لأنها كانت من بني هاشم. وكان يحبّ القصور الفاخرة فيشتري منها أو يبني. وكانت لديه طريقتان مفضّلتان في القتل السريع، الأولى هي أن يوقف الشخص على رأسه في حفرة عمقها حتّى الخصر، ثم يُلقي التراب في

الحفرة، ويدوسه بالأرجل حتّى يشتدّ، فتخرج روح الرجل من دُبُره (الدبر: باب البدن). والثانية هي أن يُكتّف الرجل ويُقيَّد، ثم يؤخذ القطن ويُحشى في أذنه وخيشومه وفمه، ثم يوضع المنفخ في دُبُره حتّى يتعاظم جسمه، ثمّ يُسدّ الدبر، ويُفْصد الرجل من العرقين اللذين فوق الحاجبين، وتخرج روحه من هناك.

لكنّ الخليفة لم يأمره بقتل معبد بل بمقاصصته، وكان سلاّم يعرف تماماً ما يريده الخليفة، لكنّه لم يكن يحبّ القصاص الذي لا يؤدّي إلى الموت، فجرّد معبد من ثيابه وضربه ثلاثمائة وستّين سوطاً، ثم سلّمه إلى مساعده عبدالله بن مالك، وأمره أن «يهتمّ» به، فتناول عبد الله السوط من سلاّم الأبرش وضربه، فكان ضربه برداً وسلاماً قياساً إلى ضرب سلاّم، ثم أخذه قرب بيته، وحفر له قبراً ليضعه فيه كما أمر الخليفة. وبينما كان معبد ينتظر شبه عريان أن ينتهي الحفّار من الحفر، كان الصبية والمارّة والجيران يتفرّجون عليه من بعيد، فأمر عبد الله رجاله بتفريقهم ومنع الفرجة، فارتاح قليلاً لهذا القرار، ثم أمر عبدُ الله فجأة بكبش، فذُبحَ وسُلِخ وأُلبس لمعبد ليحمي به جِلده الممزّق من الجَلد. لم يأمر الخليفة إذن بتعذيبه حتّى الموت، أمر بتعذيبه وحسب، تفاءل معبد رغم آلامه. ثم قاده عبدالله ووضعه في القبر، ووكّل به جارية له اسمها بَشّة.

لم ينم بالتأكيد، ليس من النزيف وآلام الجروح في جسده وحسب، بل من البقّ والبراغيث التي كانت تملأ القبر، وتجتمع بالمئات على اللحم الحيّ المسلوخ عنه جلده، فطلب من الجارية بَشّة أن تجلب له وعاء صغيراً، فيه جمر وبخور يُذهب البقّ والبراغيث، فاحتالت وجلبت له ما طلب، وارتاح قليلاً من البقّ لكنه كاد أن يختنق من الدخان، ثمّ فجأة وهو في هذه الحالة،

أطلّت حيّتان من فوق القبر وأرادتا النزول نحوه، وقد شدّتهما رائحةُ الدم النازف واللحم الحيّ والميت، فاستعدّ لكي يقبض عليهما، كلّ واحدة منهما بيد، لكنهما ابتعدتا بسبب الدخان الذي كان يخرج من القبر كثيفاً. واحتار معبد بين أن يختنقَ بالدخان الكثيف، ليمنع الأفاعي عن لحمه ودمه، وبين أن يتنفس بسهولة ويشدّ الأفاعي إليه.

بقي في القبر أيّاماً بلياليها. وفي الليلة الأخيرة قبل خروجه، وكان بدأ يشعر بعودة العافية إليه، اندفع بالغناء فجأة في شعر عمر بن أبي ربيعة:

ووالٍ كفاها كلَّ شيء يهمُّها
فليستْ لشيءٍ آخرَ الليل تَسهَرُ

فسمع عبد الله بن مالك هذا الغناء، فظنّ أن حيطان بيته تضطرب، وخرج إلى حافة القبر وجلس عندها بحيث لا يراه، وعندما انتهى قال له والله لولا غضب الخليفة لأعطيتك فراشي، ولكنني إن أردتُ أن أخالف الخليفة فيك عليك أن ترفض، فما أجمل دفءَ الطاعة، وما أقبح وحشة المعصية!

ثم أخرجه عبد الله من القبر في اليوم الموعود، وقال له: اذهب أنت حرّ، لكن اعلم أنّ قصاص الخليفة لك هو عدم استخدامه لك! فاجعل ألّا يكون قصاصاً دائماً، رحمةً بك وبي! ثمّ قال له: سأبقيك هنا في بغداد، لن أنفيك منها كما جرت العادة في مثل حالتك، وقد مرّ عليّ أمس بالصدفة خزيمة بن خازم وأخبرني عن موهبتك في الغناء.

وخاف معبد بن رباح أن يورّط أمّ شارية في مشاكل لا تستطيع تحمّل أعبائها، فهجر البيت وهي تبكي، ولم يجد أحداً ليستضيفه في بغداد، ولم يعد عنده مال يصرفه ليأكل ويشرب، ولم يكن في كلّ بغداد في تلك الأيّام سوى مَضافتين، يستطيع عابر السبيل الجائع أن يأكل فيهما. واحدة منهما كانت لحسن بن سُليْم الكلبي، والثانية لعمّار التغلبيّ، فقصدهما وصار يتغدّى عند الأوّل ويتعشّى عند الثاني، وكان يذهب إلى المسجد لينام فيه.

قالت له أمّ شارية وهي تضمّه إليها وتبكي: أعلمني دائماً أين أنت.

وكان ذات يوم نائماً في المسجد، عندما سمع ضجّةً في الخارج، في شارع قريب، فقام وخرج ليرى ما يجري دون أن يراه أحد، فرأى رجلاً يقول للحرّاس ومعهم خادم للخليفة، والله لست سارقاً ولا عاصياً ولا شيئاً، قالوا له يريدك الخليفة!
الخليفة!

فأخذوه إلى المأمون، وكان المأمون أرِقاً في تلك الليلة، لا يجيئه النوم، فأمر خادماً له أن يمضي مع بعض الحرّاس، وأن يقبض على من يَراه في الشارع، كائناً من كان، رفيعاً كان أم خسيساً.

قال الخليفة للرجل: لماذا خرجتَ في مثل هذا الوقت، وقد بقي حتى يطلع الفجر ثلاث ساعات؟

قال الرجل: غَرَّني القمر!
قال الخليفة: إجلس إذن! إجلس!

فأمر بإطعامه من ثلاثة أنواع من الأطعمة، طبخ هو نوعاً منها، وطبخ أخوه المعتصم نوعاً، وطبخ النوع الثالث كبير الطبّاخين في قصره، فأكل الرجل من الأوّل فقال: هذا طعام الخلفاء، وأكل من الثاني فقال: هذا طعام يقرب طعمه من الأوّل، وأكل من الثالث فقال: هذا أكل الناس! فتبسّم المأمون وأعطاه أربعة آلاف دينار، وهو مبلغ يعيش به طوال حياته عزيزاً كريماً، مع عياله وأطفاله وصبيته الصغار، مالكاً للضياع والجواري والغلمان. ثم قال له: إيّاك ثمّ إيّاك أن تعود إلى الخروج في مثل هذا الوقت من الليل مرّةً أخرى! وخرج الرجل من عنده غير مصدّق، وعاد إلى المسجد الذي قُبض عليه قربه، وبات فيه الليلَ يحمد الله.

يا معبد! قال معبد مخاطباً نفسَه، لو تأخّرتَ قليلاً في العودة للمَبِيت في المسجد، لوقعَتِ القرعة عليك، وكنتَ أنت اليوم في سمائك السابعة.

وجاءه ذات يوم غلام صديقه أبو زكّار، حاملاً إليه منه مائة درهم، وناقلاً إليه رغبته في أن يزوره، لكن في المساء بعد أن ينام الناس، وقبل أن تنتشر عيون الخليفة.

وأخبره أبو زكّار أن الخليفة بدأت تستقرّ له الأمور، وأنه بات اليوم أكثر اطمئناناً إلى حكمه، ولم يعد متوتّراً كما كان في السابق، وأنّه أقام منذ أيّام مجلساً للمناظرة والنقاش بين الفقهاء وأصحاب الآراء المختلفة، فأمر خادمه فأدخلهم غرفة كبيرة مفروشة، وأمرهم بنزع أحذيتهم وما ثقُل عليهم، ثم أُحضرت الموائد وأُطعموا ما شاؤوا، ثم جيء لهم بالشراب، وبعد أن فرغوا من الأكل والشرب اغتسلوا، ثمّ جيء بالمجامر فبُخّروا وطُيّبوا، ثم أدخلوا إلى قاعة

الخليفة، فأدناهم منه، وفتح باب النقاش، بعد أن ألقى كلمة طلب منهم فيها أن يقول كلٌّ رأيه، دون خوف أو حذر، ولكن ضمن حدود التهذيب واحترام الآخر، وكان حين يتدخّل في النقاش يُبدي رأيه كأنه واحد منهم، لا خليفة الله! وظلّوا يتناقشون ويتناظرون حتى غابت الشمس، فأقيمت عند ذاك الموائد مرّة ثانية، وأطعموا وأشربوا وانصرفوا!

وقرّر أن تكون هذه الجلسة دورية مرّة في الأسبوع، كلّ ثلاثاء.

وقرّر أيضاً إحياء جلسات الغناء في القصر، بشكل دوريّ ودائم، فقد تاقت نفسه إليها، وقد اطمأنّ إلى عمّه الذي يزداد في الابتذال عن قصد، حتّى يؤكّد له أنّ الخلافة عنده مسألة لم تعد واردة على الإطلاق.

والمأمون ذوّاقة يا معبد، ويعرف أهميّة الغناء، فلا تيأس.

ثمّ أخبره أبو زكّار، أنّ هرّة جاءته في الحلم وقالت له: لماذا لا يغنّي معبد بن رباح لخزيمة بن خازم! وقال إنّ الهرّة قالت له: انتبه! أنا هرّة ولست هرّتين واحدة سوداء وواحدة بيضاء! (وهذه إشارة إلى الهررة التي كانت تزور في النوم معبد بن رباح وقبله إبراهيم الموصليّ. اثنتان كلّ مرّة، واحدة بيضاء وثانية سوداء). فقال له معبد، ما زال شيطاني يزورني لكنّني لا أحفظ ما يحكيه لي، وقال له: كم أنني أشتاق إلى تلك الصخرة، التي كنت أستلقي عليها في الليل في الحجاز وأنا أرعى الإبِل والغنم لأسيادي، فأسمع أصواتاً ثم أقوم أحكيها. قال أبو زكّار: لا تيأس! ادعُ شيطانك اليوم واحفظ ما يردّده لك.

وبالفعل، تعشّى في مضافة عمّار التغلبيّ، وذهب إلى المسجد لينام، فسمع صوتاً في الليل، يأتي من لا أحد ومن لا مكان، وكان صوتاً جميلاً ساحراً أخّاذاً، وكان لحناً في شعر أبي نواس:

دارتْ على فِتيةٍ ذَلَّ الزمانُ لهم
فما أصابهمُ إلّا بما شاؤوا

وتمنّى أن يبقى غافياً لا يفيق أبداً، حتّى يبقى يسمع هذا الصوت الملائكيّ، لكنه أفاق من غفوته وراح يحكي ما سمعه ويردّده حتّى لا ينساه. وفي الصباح كتب على ورقة كلمتين: «لحن هائل!» وذهب إلى بيت خزيمة بن خازم، وأعطى الحارس الورقة وطلب منه أن يوصلها إلى سيّده. وفي اليوم ذاته أرسل خزيمة إليه أَخَصَّ خدمه، وأكثرهم ثقةً، وجاء به إلى بيته، فأعطاه وأطعمه، ثم قدّم له الماء ليغتسل، وقدّم له النبيذ، وناوله العود، ونادى على جواريه، وقال له هات ما عندك! فاندفع يُغنّي:

دارتْ على فِتيةٍ ذَلَّ الزمانُ لهم
فما أصابهمُ إلّا بما شاؤوا
صفراءُ لا تنزِلُ الأحزانُ ساحتَها
لوِ مسّها حجرٌ مسّته سرّاءُ
فأرسِلتْ من فم الإبريق صافيةً
كأنّما أخْذُها بالعين إغفاءُ

فما كان من خزيمة بن خازم إلّا أن قام، وتناول نعلَيْه، وعلّق كلّ نعل في أذن، ودبّ على ركبتيه ويديه، وراح يمشي كالضأن، ونعلاه يتحرّكان في كلّ اتجاه، ويقول: أنا حمار اركبوني! أنا حمار اركبوني! فقامت جواريه تركبه كما يُركب الحمار وهو يتنقّل بهنّ في البيت.

ثمّ قال له أَعِد: فاندفع من جديد وغنّى، وما إن انتهى حتى قام خزيمة، ونزع عن معبد ثوبه بيده وقال: تضعون هذا الثوب في كفني وتدفنونه معي، فخجلت الجواري وقد أصبح معبد بن رباح عارياً، وخبّأن وجوههنّ بأيديهنّ حتّى لا يراهنّ سيّدهنّ ينظرن إليه وهو على هذه الحال، لكنّ خُزيمة انحنى وتناول ذَكَر معبدْ وقبّله بشفتيه الاثنتين، ثمّ أعطاه ثوباً آخر من عنده. ثمّ قال له: لن يغمض لي جفن ما لم يَدْعُك الخليفة إلى مجلسه! لقد اطمأنّ الخليفة الآن، وبات مرتاحاً لسير أمور الخلافة وتطوّرها. وهو محبّ للغناء كثيراً. أكثر منّي.

معقول؟ قال معبد.

ثمّ نصحه أن يظلّ يبيت في المسجد، وأن يبقى يأكل في المضافتين، حتّى يعرف الخليفة كم تسوء أحواله إذا ظلّ غاضباً عليه، وحتّى يكون عطفه عليه أكبر. وباح له بسرٍّ لا يُباح به، لأنّه في طبيعته سرّ دولة، قال له إنّه، أي خُزيمة بن خازم، يخطّط مع الخليفة لإبعاد طاهر بن الحسين عن أمور الخلافة، وأنّ ثقة الخليفة به تزداد وتتعمّق كلّ يوم، وستصبح لا شكّ تامّةً إذا ما نجح في هذه المهمّة. وربّما انتهى «بنا» الأمر إلى قتله. فلا تيأس، واعتَبِرْ أنّ الفرج بعون الله قريب.

وظلّ معبد على هذه الحال زمناً طويلاً، ينتظر الفرج ولا يأتيه، وينتظر أن يفاجئه الخبر الجميل، ولا يفاجئه هذا الخبر الجميل، إلى أن أساء الأدبَ يوماً محمّد الصولي أثناء نقاش فقهيّ، مع علي بن الهيثم، في حضرة المأمون، فغضب المأمون وخرج من القاعة إلى جناح النساء، «فعَابَثَهُنَّ ساعةً»، كعادته حين يغضب، ثم عاد إلى

مجلسه بعد أن ارتاح، وأمر حاجبه بأن يدَعَ محمّد الصوليّ ينصرف «إلى لعنة الله!»، ولكنّ محمّد قصد طاهر بن الحسين، ورجاه الذهاب عند الخليفة فوراً، حتّى يطلب منه العفو عنه، لكنّ طاهر قال له: هذا ليس وقت زيارتي للخليفة. فقال محمّد: لا أستطيع النوم ساعةً واحدة، إذا لم يكن الخليفة راضياً عنّي! (يا إلهي! قال معبد بن رباح، أفهم ذلك جيّداً!) فوافق طاهر، وذهب عند الخليفة فأذن له بالدخول، ولمّا رآه المأمون يقترب منه، طلب من خادمه مُجِيرْ الذي كان «واقفاً على رأسه» محرمةً مسح بها دمعه، ثم حرّك شفتيه بكلام لم يستطع طاهر إدراكه، لأنّه لم يكن بعدُ قد وصل إليه. ولمّا دنا منه طاهر وسلّم عليه، ردّ السلام وأمره بالجلوس، «فجلس في موضعه»، فسأله عن سبب مجيئه في غير وقته، فعرّفه بالسبب، وطلب منه العفو عن محمّد فعفا عنه (استوهبه ذنبه، فوهبه له). لكنّ النار أحرقت أجواف طاهر، الذي أراد أن يعرف ما قاله الخليفة وهو يقترب منه، فبعث من يداري ويلاطف كاتبَ مجيرْ خادم الخليفة، ويغريه بعشرة آلاف درهم، ليُطلعه على ما سمعه مُجير من المأمون، فأخبره أنّه لمّا رأى طاهر دمعت عيناه، وترحَّمَ على أخيه محمّد الأمين، ومسح دمعه بالمنديل. فأحسّ طاهر بخطورة الموقف، وكان بدأ يدرك ما معنى أن ينظر قاتل خليفة في عينيّ خليفة، فركب فوراً إلى أحمد بن الأحول (ركِب إليه، ذهب لعنده)، وكان هو لا يركب إلى أحد من أصحاب المأمون بل يركبون كلّهم إليه، فقال له: جئتك لتحتال لي، حتّى يعيّنني الخليفة والياً على خراسان، فأبتعد عنه، ويصبح عندي أقوى جيش في الخلافة، فآمَنُ منه، وكان أحمد بن الأحول يفضّ الرسائل التي ترِد إلى الخليفة، من جميع أنحاء الخلافة، فقال له: لقد أخطأتَ في المجيء إليّ، لأنّك في العادة لا تأتي إلى أحد إطلاقاً، والكلّ يأتون إليك، فاذهب الآن إلى بيتك،

ولا تجئ لعندي أبداً، لأنّ مجيئك سيلفت الانتباه، فينتشر الخبر، ويبلغ المأمون فتثير ظنَّه. فانصرف الآن وانسَ الأمرَ ما استطعت، وأمهلني مدّةً حتّى أستطيع أن أحتال لك وأحقّق ما تطلب. وراح أحمد ينتهز الفرص، وكان والي خراسان في ذلك الوقت غسّان بن عبّاد، فزوّر رسالة باسمه يقول فيها إنّه مريض، ولم يعد يقوى على العمل وإدارة شؤون الدولة هناك، ويطلب من الخليفة تعيين أحد آخر مكانه، فانْهَمَّ المأمون وتساءل عمّا في استطاعته أن يفعل، وسأل أحمد، فنصحه بأن ينتظر، فربما كان ما به مرضاً عارضاً، يشفى منه مع الوقت. ثم كتب أحمد رسالة ثانية باسم غسّان، وختمها، وجعلها في البريد الوارد إلى الخليفة من خراسان، وكتب فيها أنّ المرض تفاقم، وأنّ أيّامه معدودة، ويلحّ على الخليفة بتعيين شخص آخر مكانه ليتسلّم أمور الولاية، فقلق المأمون عندما قرأها واحتار في من سيعيّن هناك، وراح يستعرض الأسماء أمام أحمد، وراح أحمد يطعن في كلّ اسم يعرضه عليه، ويبتدع له علّةً إن لم يكن فيه علّة، حتّى وصل إلى طاهر بن الحسين، فقال: ما رأيك في الأعور؟ وكان طاهر بعين واحدة، فقال أحمد: أعتقد أنّ هذا خيرُ من ذكرتَ لولاية خراسان، لأنّ خراسان بلاد حرب وطاهر لها، فتأمن من هذه الناحية. ففكّر المأمون طويلاً ووافق على مضض.

وبعد أيّام من التردّد عيّن المأمون طاهرَ رسميّاً على خراسان، وطلب منه أن يُعسكر ناحيةَ باب خراسان في بغداد، في انتظار أن يبلغه توقيعه الأخير. ودعاه في تلك الليلة إلى مائدة العشاء، وكان بين الحاضرين أبو عيسى بن هارون الرشيد أخو المأمون، وكان رجلاً جميلا جدّاً، تقف الناس له في الشوارع لتتفرّج عليه عندما يخرج، وكانت الجواري يحلمن بأن يشتريهنّ ويمتلكهنّ، وهو الذي كانت

تمتدح فيه الجارية الشهيرة عَرِيبْ طيبَ رائحة فمه وقساوة قضيبه. وكانت طباعه شديدة الخصوصيّة. وبينما الجميع على الغداء، تناول أبو عيسى هندباءة، وغمسها في الخلّ، وضرب بها طاهر على عينه السليمة، فغضب طاهر وانتفض، واشتكى للخليفة: يضربني على عيني السليمة، فماذا يبقى لي؟ فقال له الخليفة، لا تغضب! إنّه يفعل ذلك مع أعزّ الناس إليه! فهدأ غضبه، وعادوا جميعاً ينصرفون إلى طعامهم وأحاديثهم. ثمّ لاحظ طاهر، وهم ما زالوا على الغداء، أن الخليفة يبحث بعَيْنيه عن سكّين كانت قربه، فأمسك بها وناولها إلى الخليفة، وانتبه وهو يفعل ذلك، أنّه يمسك بمقبضها بينما النصل في اتجاه الخليفة، فاضطرب! وازداد اضطرابه عندما لاحظ أنّ الخليفة يلاحظ ذلك، فاستدرك الموقف بأن قال: في نحر أعدائك يا أمير المؤمنين!

وبعد شهر كامل من إبلاغ طاهر بتوليته خراسان، وعسكرته عند باب خراسان في بغداد، قرّر الخليفة أخيراً أن يوقّع أمر التعيين، وأقام غداء بالمناسبة، وكان خزيمة بن خازم بين المدعوّين، وكان من المعارضين الأشداء لقرار الخليفة بتعيين طاهر، لكنّه لم يجد الوسيلة المناسبة لإبلاغ الخليفة بعدم اقتناعه بهذا القرار، خاصّةً أنّه لم يكن يملك حجّة يمكن استعمالها لإقناع الخليفة برأيه المخالف. لكنّه رغم ذلك، تقدّم من الخليفة بعد أن انتهى الغداء، وقال له بعد أن اعتذر مسبقاً عن كلّ خطإ قد يقع فيه: يا أمير المؤمنين، محبّتي لك قلقة من قرارك بتعيين طاهر! لم يبلغني من أحد جاء من خراسان أنّ غسّان بن عبّاد مريض! ولقد تجرّأتُ وقلتُ لك ما أرى، لا ما تحبّ أن تسمع، فامنحني عفوَكَ! فسكت الخليفة لحظةً، كادت أثناءها أنفاس خزيمة بن خازم أن تنقطع، ثمّ تمثّل ببيت لعمرو بن معد يكرب:

إذا لم تستطع شيئاً فدَعْهُ
وجاوِزْهُ إلى ما تستطيع

وعمرو بن معد يكرب هذا شاعر جيّد، وفارس أسطوريّ، شجاع مقدام، عظيم البَدَن، كان إذا التفتَ التفتَ بجميع جسمه، وكان الخليفة عمر بن الخطّاب يقول إذا نظر إليه: «الحمد لله الذي خلقنا وخلق عمراً» تعجّباً من عِظم خَلقِه! وقد شارك في معركة اليرموك الفاصلة مع الروم، وشارك في معركة القادسيّة الفاصلة مع الفرس، وقَتل بيده رستم قائدهَم. وقد قال هذا الشعر في أخته ريحانة، لمّا سباها الصِّمةُ بن بكر. وكان الصمّة قد أغار على قوم عمرو، ووضع يده على كلّ ما يملكون، وسبى نساءهم، وبينهنّ ريحانة، وساقهنّ جميعاً، فلحقه عمرو وناشده أن يطلق أخته، فرفض، وكانت هي تناديه بأعلى صوتها: يا عمرو! فلم يقدر على انتزاعها، وقال عندئذ القصيدة التي فيها:

إذا لم تستطع شيئاً فدَعْهُ
وجاوِزْهُ إلى ما تستطيع

ثمّ وقّع الخليفة قراره بتعيين طاهر، وأمره بالمسير إلى خراسان في صباح اليوم التالي، وأمر بإحضار مُخارِق المغنّي فوراً، فأُحضر، فقال له: تستطيع أن تغنّيِ:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه..

قال نعم! فغنّاه فقال المأمون: لم تغنّ بشكل جيّد! فسأل الموجودين إن كان أحد منهم يعرف مغنيّاً يجيد غناء هذا الشعر؟ فقيل له عَلُّويه الأعسر، فأمر بإحضاره، فأُحْضِر فوراً كأنّه كان وراء الستارة، وغنّى فلم يُعجب الخليفة غناؤه!

ثمّ أمر الخليفة بإحضار المغنّين عشيّة اليوم التالي، أي عشيّة اليوم الذي سيغادر فيه طاهر إلى خراسان، وأعلن عن جائزة لمن يغنّي هذين البيتين أجمل غناء، وكان يعلم جيّداً مدى تعلّق خزيمة بن خازم بالغناء ومدى تعلّقه بمن يحبّ من المغنين، فقال له إن كان عندك من هو جدير بالدعوة فادعه، فانتهز عبد الله المناسبة وقال له: لقد سمعتُ من جاريتي خليدة، التي ماتت رحمها الله، هذا الشعرَ في لحنٍ لم أسمع مثله حتى الآن، يوازي في عظمته مُدُنَ معبد وحصونَه، وقد علمتُ أنّ صاحبه يعيش في الوقت الحاضر فقيراً معدماً، يتغدّى في مضافة ابن سُلَيْم الكلبيّ، ويتعشّى في مضافة عمّار التغلبيّ، وينام في المسجد لأنّك غضبت عليه، فقال له الخليفة: ما اسمه؟
معبد بن رباح!

وهل تحبّه أنت؟ قال له عبد الله: الحقّ أقول لك يا أمير المؤمنين، إنّني أتعصّب له على جميع المغنّين!
مُرْهُ بأن يأتي!

ثم أمر الحضور بالانصراف، وكان من عادته أن يردّد حين يريد أن ينصرف الناس من عنده: «بَرْقٌ يَمان، برق يمان!»، لكنه استبقى عبد الله ليقول له باختصار: إذا كان عندك فكرة ما بالنسبة إلى طاهر، فقلها لي غداً قبل موعد الغناء. وكان في رأس عبد الله في الحقيقة أكثر من فكرة، كان في رأسه مخطّط كامل، فجاءه بُعَيْدَ وقت القيلولة في اليوم التالي، واستأذن بالدخول فأذن له، فقال: الغلام الذي عند طاهر، كان عند عليّ بن ماهان قائد محمّد المخلوع، وقد تملّكه طاهر بعد مقتل سيّده، نستطيع الاتصال به لقتل طاهر، ولن يرفض بالتأكيد إذا علم أنّها رغبة الخليفة، وأنّ

وراءه بالتالي من يحميه، وعندي من له علاقة وثيقة به ويستطيع التأثير عليه، وهو الذي نقل إليّ خبر نقمته على طاهر وحقده عليه.

وكان خُزَيمة بن خازم، أرسل في طلب معبد بن رباح، فورَ خروجه من عند الخليفة بعد الغداء، وأخبره بما قال للخليفة وأطعمه، وأعطاه غرفة في بيته وثياباً وبضع مئات من الدراهم. وقال له: انتبه! لقد كذبتُ على الخليفة، وأخبرته أنني سمعتُ من خليدةَ لحناً في شعرِ عمرو بن معد يكرب:
إذا لم تستطع شيئاً فدعهُ..

وقلتُ له إنّ هذا اللحن أنت الذي صنعته، وعلّمتَها إيّاه، قبل وفاتها عندما كانت ما زالت في الحجاز، وقلت له إنّه يوازي مُدُنَ معبد وحصونَه!

وأخبر خُزَيمة معبدْ أيضاً، أنّ الخليفة تمثّل بهذا البيت، بعدما وقّع على قرار تسليم طاهر بن الحسين ولاية خراسان. وقال له: إذا ربحتَ قلبَه هذه المرّة، فقد ربحتَه إلى الأبد! وهو ما زال في أوّل عهده بالخلافة، وسيكون لك المستقبل منذ الآن بلا نهاية!

وأراد المأمون في الحقيقة، أن تكون هذه الحفلة انطلاقةَ عهده، في ميدان الغناء، ونداءً للمغنّين أنّهم إنْ أَعطَوا نالوا!

أمّا معبد بن رباح فكان لديه ليل واحد ونهار، حتّى ينجح في الامتحان، ويدخل الجنّة! وحتّى يتزوّج شارية، ويستعيد ابنَه من الحجاز، ويستقدم زوجته الروميّة وابنته السوداء إلى بغداد.. وسوف

يستطيع تزويج ابنته من رجل من الطبقات العليا، رغم سوادها، لأنّه سيكون في إمكانه أن يعطيها ما شاءت من المال!

والأهمّ من هذا كلّه الآن، هو ألّا يُحرِجَ شفيعَه لدى الخليفة خزيمة ابن خازم، وألّا يُوقعه في ورطة.

كان الضغط عليه كبيراً جدّاً، وكان الفشل ممنوعاً عليه. فقصد شيخاً يسكن في مكان منعزل من بغداد، يقال إنّه يحفظ ألحاناً، أخذها عن والده المجنون، الذي أخذها بدوره عن قدماء الحجاز. فقال له الشيخ: أَحفظُ أشياء عن والدي الذي كان أوّل من علّم إبراهيم الموصليّ الغناء، ولكنّ هذه الألحان كلّها أخذها إبراهيم عنه. كان والدي فقيراً معدَماً، وكان إبراهيم يُدخله إلى بيته ويطعمه ويسقيه ويخدعه ويأخذ عنه. وكان يوهم الناس أنّه مجنون. ووالدي لم يكن مجنوناً، بل كان بسيطاً يعطي من قلبه بدون حساب. وكان إبراهيم يُذهل هارون الرشيد بهذا الغناء.

وعاد معبدْ إلى بيته خائباً، ولم يعد إلى بيت خُزيمة، وطلب من أمّ شارية أن تتركه وحده في غرفته وأن تسدل عليه الستائر، وألّا تعود إليه حتّى يخرج من تلقاء نفسه.

لم يجد معبدْ حلًّا سوى استدعاء شيطانه.

وبينما هو على هذه الحال في غرفته، أحسّ بالبرد يتغلغل في عظامه، فلف جسمه بغطاء من صوف، وغلبتْه غفوة فغفا، فتمثّل له في الغرفة شيخ يشبه ابنَه من شارية الذي لم يرَه بعد، فقال له: يا أبو معبد، ما لي أراك مغموماً! ففوجئ معبد بهذا الرجل الذي

كَنّاه: أبو معبد! وما من أحد في الدنيا يعرف أنّ له ابناً. وتذكّر الشيخ الذي علّمه الأغنية التي سرقت منه أوّل قدومه إلى بغداد، فقد كنّاه بهذه الكنية: أبو معبد!

فأجابه معبد: أَبْحَث عن لحن أغنّي فيه شعر عمرو بن معد يكرب:
إذا لم تستطع شيئاً فدَعْهُ
وجاوِزْهُ إلى ما تستطيع

وسأغنّيه للخليفة المأمون بالذات! لكنّ شيطاني يناساني وأنا في أمسّ الحاجة إليه. فقال له الشيخ، فليكن لحناً خفيفاً ثقيلاً بالبنصر! فعلى هذا اللحن رقّص إبراهيم الموصليّ هارون الرشيد بكلّ أبهته، حتّى استغفر الله.
ردِّده عليّ. قال معبد.

فردّده عليه، فانتبه معبد من نومه، ونادى بصوت عال: بُنَيَّ! يا معبد! فسمعته أمّ شارية فدخلت عليه لتراه ملتحفاً بغطاء الصوف، والعرق يتصبّب منه كأنّه مصاب بالحمّى، فقال لها ناوليني العود، وراح يعزف قبل أن ينسى، وظلّ يردّد الصوت حتى غفا.

وفي اليوم التالي، قصد خزيمة وقال له: أغنّيه لك لتحكم في لحنه، فغنّاه له، فقام وقبّله في جبينه وقال لخدمه وجواريه: أعطوه كلّ ما بين أيديكم! وقال له:
لقد نجونا!

وفي قصر الخليفة أجلسه الخدم في المكان المخصّص له، ولم يكن بالطبع في الواجهة، حيث كان إسحق بن إبراهيم الموصلي أستاذ

الموسيقى والغناء، وابن جامع الذي يُنزل بصوته طيور السماء، وعلّويه الذي أحبّه إبراهيم الموصليّ وعلّمه الغناء، ومخارق الذي كان مملوكاً واشتراه الرشيد وأحبّ غناءه وأعتقه وأغناه وكنّاه بأبي المهنّأ.

وحين أعلن الحاجب حضور الخليفة، وقف الجميع وحيّوا وسلّموا، ثمّ أمرهم الحاجب بالغناء واحداً بعد واحد، حسب رغبة الخليفة! وحين بلغ الدور معبدْ اندفع يغنّي بكلّ جوارحه:

إذا لم تستطع شيئاً فدَعْهُ
وجاوِزْهُ إلى ما تستطيع

أصبتَ بنصيحتك يا خزيمة! قال الخليفة. ثم أمر معبدْ بأن يعيد هذا الصوت عدّة مرّات. وكان المأمون معروفاً بالرصانة والعقل، ورغم ذلك قام ورقص على رِجْل واحدة، وصاح:
يا آدم، لو تسمع ما أسمع من ولدك الآن لسرّك!

حتّى سُمع صياحه من وراء الستارة. فاضطرب معبد من هذه المفاجأة، وودّ لو يستطيع تقبيل الأرض عند قدمَي الخليفة الذي أجازه (أعطاه) ثلاثة آلاف دينار! وكانت هذه أوّلَ مرّة يُعطى بالدينار الذي كان يساوي أيّام المأمون خمسةَ دراهم، وأحياناً عشرة.

وبينما كان معبد خارجاً من قصر الخلافة، ناداه الحاجب صاحب الستارة وقال له: يأمرك الخليفة بأن تحضر في يوم زواجه من بوران.

وبوران هي بنت الحسن بن سهل، الذي أصبح وزير المأمون المقرّب

إليه، وكان فائق الذكاء والأدب والفصاحة، وأراد أن «يُملكَ» المأمون ابنته بوران (أن يزوّجه بها)، فأحبّ الخليفة ملْكها، فأقام له عرساً لم يُعرف له مثيل لا في الجاهلية ولا في الإسلام، ولا في العجم ولا في العرب.

وحين انحدر المأمون في نهر دجلة، إلى مكان يُعرف بـ«فم الصلح» بعيداً عن بغداد، في شهر شعبان من عام ٢٠٩ هجريّة، انحدر معه معبد بن رباح، في مركب آخر يتبعه. وكان في الصف الأوّل من المغنّين.

وغنّى معبد بن رباح كما لم يُغنَ يوماً أحد، لا قديماً ولا حديثاً، ولا في الحجاز يوم كان عاصمة الدنيا في الغناء، ولا في فارسَ كسرى أنو شروان، ولا في بلاد الشام، ولا في مكان. غنّى فكأنّ غناءَه مأخوذ من كلّ قلب، ومن كلّ عقل، ومن كلّ أحشاء. غنّى ما يطلب المغنّون أن يغنّوه ولا يجدونه.

وبكى وهو يغنّي أغنية خُليدة التي أخذتها عن بنت ابن سُريج. وغنّى لقيس ما قاله قبل أن يرى الظبية هاربةً من الوحش.

وطرب لغنائه الحسن بن سهل والد العروس، ونثر على الهاشميّين أقرباء الخليفة وعلى القوّاد والكتّاب والوجوه «بَنَادقَ» (جمع بندقة، وهي أنبوب صغير من رصاص أو غيره) فيها أوراق بأسماء ضياع، وأسماء جوارٍ، وصفات دواب، وغير ذلك، وكانت البندقة تقع على الرجل فيفتحها، فيجد فيها على قدر حظّه، فيمضي إلى وكيل الوزير ويعطيه الورقة التي وجدها في البندقة، فيعطيه الوكيل صكّاً بملكيّة ما كُتِبَ فيها.

ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك (النوافج: أوعية من جلد) وبَيْض العنبر.

ولمّا شكره المأمون، وناداه بكنيته، وسأله عمّا يشتهي: حوائجك يا أبا محمّد؟ أجابه: لا شيء سوى مكاني في قلبك! فأمر المأمون بحمل خراج فارس وكُوَر الأهواز إليه سنةً كاملةً.

وكان من نصيب معبد بن رباح ضيعة قرب بغداد، على شاطئ دجلة، وثلاث جوار صبايا، وثلاثة غلمان، وعبدان، أحدهما خصيّ، ودوابّ.

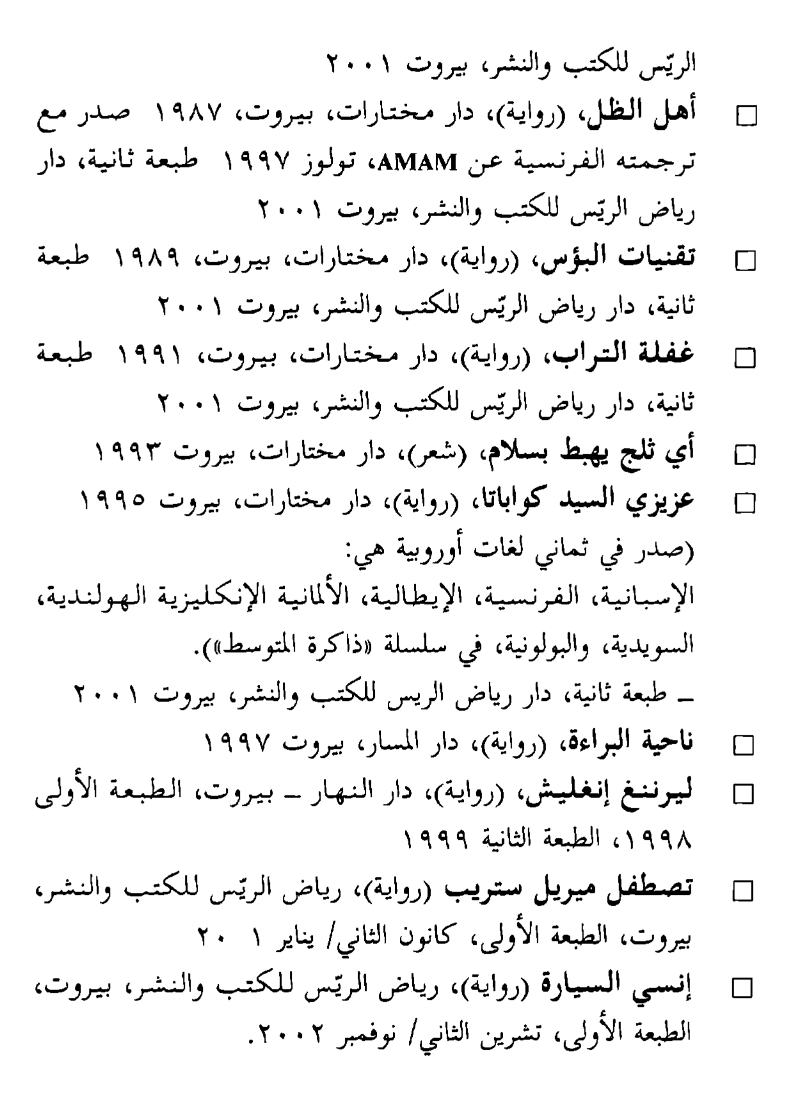
وأهدى إليه الخليفة المأمون شارية وابنَها.

واشترى معبد بن رباح بَشّة من وليِّها عبد الله بن مالك. وبشّة هي التي أحسنت إليه، عندما كان في القبر يحتار بين الاختناق وسُمِّ الأفعَيينَ، وأعتقَها، وزوّجها، وتكفّل معيشتها.

وراسل ابنة «عمّه» التي حرمه والده منها، لإقناعها بالطلاق فرفضت، لكنّه ظلّ يأمل في استجابتها.

صدر له

- **حين حلّ السيف على الصيف**، (شعر)، مع ترجمته إلى الفرنسية. دار الفارابي، بيروت، **Le Sycomore, Paris** ١٩٧٩
- **لا شيء يفوق الوصف**، (شعر)، منشورات لبنان الجديد، بيروت ١٩٨٠
- **أنسي يلهو مع ريتا**، كتاب البالغين، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٣
- **المستبد**، (رواية)، دار أبعاد، بيروت، ١٩٨٣ طبعة ثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت ـ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠
- **فسحة مستهدفة بين النعاس والنوم**، (رواية)، دار مختارات، بيروت، ١٩٨٦ صـدر مترجماً إلى الفرنسية عن **Actes -Sud**، بعنوان **Passage au Crépuscule**، ١٩٩٢. طبعة ثانية، دار رياض



الريّس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠١

- ☐ **أهل الظل**، (رواية)، دار مختارات، بيروت، ١٩٨٧ صدر مع ترجمته الفرنسية عن **AMAM**، تولوز ١٩٩٧ طبعة ثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠١
- ☐ **تقنيات البؤس**، (رواية)، دار مختارات، بيروت، ١٩٨٩ طبعة ثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠١
- ☐ **غفلة التراب**، (رواية)، دار مختارات، بيروت، ١٩٩١ طبعة ثانية، دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠١
- ☐ **أي ثلج يهبط بسلام**، (شعر)، دار مختارات، بيروت ١٩٩٣
- ☐ **عزيزي السيد كواباتا**، (رواية)، دار مختارات، بيروت ١٩٩٥ (صدر في ثماني لغات أوروبية هي:
الإسبانية، الفرنسية، الإيطالية، الألمانية الإنكليزية الهولندية، السويدية، والبولونية، في سلسلة «ذاكرة المتوسط»).
ـ طبعة ثانية، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠١
- ☐ **ناحية البراءة**، (رواية)، دار المسار، بيروت ١٩٩٧
- ☐ **ليرننغ إنغليش**، (رواية)، دار النهار ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨، الطبعة الثانية ١٩٩٩
- ☐ **تصطفل ميريل ستريب** (رواية)، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، كانون الثاني/ يناير ١ ٢٠
- ☐ **إنسي السيارة** (رواية)، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٢.

رشيد الضعيف

معبد ينجح في بغداد

وأحسَ الصبيُ كأنَه يجلس على وتد، وفهم بلا ريب ما يعني ذلك، لكن معبد كان دائماً يشدّه ليُبقيه جالساً، وكان يحاول في الوقت نفسه إلهاءه بالنقر على العود، ثمَ قال له وهو يلهث إنَ أفضل طريقة في الدنيا حتى تتعلَم الغناء، هو أن تمزجه باللذة، فلا تعود تميّز بينهما، تعال أعلَمك الطريقة! لكنَ الصبيَ انتفض انتفاضة من جلس على عقرب، وقال لا! لا تفعل! يقتلك الخليفة! كان معبد قد تحقق في هذا الوقت، من أنَ الغلام ليس له ذَكر ولا بيضتان. وانتبه إلى أنه ربما كان جارية.

(من الكتاب)




ISBN 9953-21-187-6